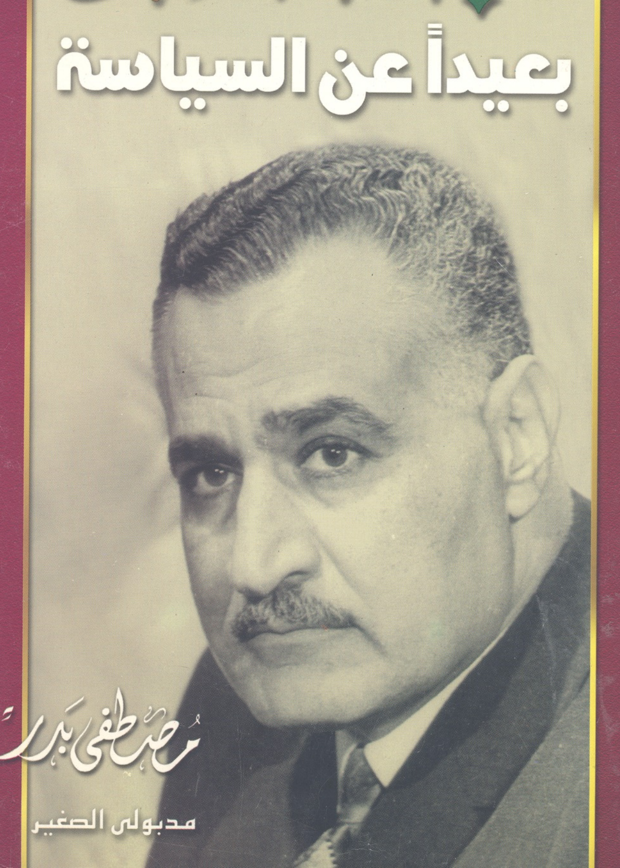
عبد الناصر

بعيداً عن السياسة



مصطفى بدر

مدبولي الصغير

جمال عبدالناصر
بعيداً عن السياسة

مصطفى بـــدر

الكتاب: عبدالناصر بعيداً عن السياسة

المؤلف: مصطفى بدر

تصميم الغلاف: عاطف منصور

الجمع والتنفيذ الفنى: عفت إبراهيم

التصحيح اللغوى: وليد عثمان

رقم الإيداع ٢٠٠١/٣٥٤٢ الترقيم الدولى 977-286-112-7

مصطفى بدر

جمال عبدالناصر
بعيداً عن السياسة

الناشر
مدبولي الصغير

الإهــــداء...

إلى أبنائى

لعلكم تدركون مالم ندركه فى حياتنا.

وطنا بلا حدود.. وشعبا بلا قيود.

مصطفى بدر

هذا الكتاب

كنت أتهيب دائما الكتابة عن جمال عبدالناصر.. ولا أنكر أننى حاولت.. ليس مرة واحدة.. إنما عشرات المرات... وفى كل مرة كنت أمزق كل الكلمات.. وكل الأوراق التى كتبتها عنه.. كنت أشعر دائما أن كلماتى عاجزة عن الحديث عن رجل لم يكن مجرد قائد.. أو تعبير عن هذه الأمة - الأمة العربية - إنما كان تجسيدا لها فى مرحلة تحول هام عاشتها.. تجسيداً لنضال وأمال شعبها.

فقد كان جمال عبدالناصر.. وسوف يبقى لسنوات لانستطيع من الآن أن نرى مداها.. تجسيدا لاحلام مصر فى الحرية والتقدم.. لاحلام وطن عربى بلا حدود.. وشعب عربى بلا قيود..

وقد رحل جمال عبدالناصر وأنا فى التاسعة عشرة من عمرى.. أى أننى واحد من الجيل الذى اطلق عليه ناصر بحق.. أنه على موعد مع القدر.

واحد من الجبل الذى عاش أروع معارك التحرير العربى والكرامة العربية.

والآن.. ونحن فى العام ٢٠٠٠ وقد مر ٣٠ عاما على رحيل جمال عبدالناصر.. تغير خلالها العالم كله.. وتغيرت مصر.. بل يمكن القول إن أوضاعها انقلبت رأسا على عقب.. ولعل أبرر ما يميز هذه الاعوام الثلاثين هو تلك المحاولة المستعرة المجنونة والتى لم تتوقف إلى الآن لمحو ذاكرة الشعب المصرى.. ورغم ان المحاولة تشارك فيها قوى مسلحة بأعتى وسائل الإعلام وأجهزة المخابرات وملايين الدولارات..

كانت المحاولة تستهدف - ومازالت - وباختصار شديد شطب سنوات جمال عبدالناصر من الذاكرة المصرية العربية..

إلا أن الشيء المدهش.. والمؤكد أيضا أن ذكرى جمال عبدالناصر وأعماله لاتزال حية فى ذاكرة أبناء وطنه مصر وأبناء أمته العربية التى خاض بها ومعها اروع معارك التحرير العربى والكرامة العربية.

بل إن صورة عبدالناصر كبطل عربى قوى لاتزال تلهم وجدان شعوب أخرى.. فقد كان جمال عبدالناصر طرازا فريدا من الزعماء والقادة.. تعددت اجتهاداته وتنوعت وتميزت بطابعها الخاص.. وحظى بسببها باحترام وتقدير انصاره ومعارضيه على السواء.

وليس هناك غموض فى تفسير ظاهرة بقاء جمال عبدالناصر حيا فى ذاكرة أمته.. رغم المحاولات المحمومة لشطب أو تشويه هذه الذاكرة.. التفسير ببساطة أن ذاكرة الشعوب لايصيبها الوهن أو الضعف.. وهى تستطيع دائما ان تميز بين قادتها الذين اخلصوا فى العمل من أجل رفعتهم.. وكانوا تجسيدا لطموحاتهم واحلامهم.. وبين من تولوا امورها فوأدوا تلك الاحلام وهذه الطموحات وعادوا بشعوبهم عشرات السنوات إلى الوراء.. الأولون يحتلون مكانة أثيرة فى وجدان وقلوب شعوبهم - والآخرون يسقطون فى غياهب النسيان ـ بقرار شعبى ـ وكأنهم لم يوجدوا أبدا.

يبقى أن أذكر واقعة صغيرة جعلتنى أطرح تهيبى من الكتابة عن جمال عبدالناصر.. جعلتنى وللمرة الأولى بعد ٣٠ عاما من رحيله أكتب عنه ولا أمزق ما أكتبه.. ليس لأننى أصبحت أكثر قدرة على التعبير عنه وعن عصره.. أو لأننى وفقت فى العثور على صيغة تجعلنى راضيا عن ما أكتبه عنه..

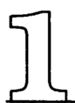
لم تكن كل هذه الأسباب هى دافعى فى كتابة هذا الكتاب.. كان دافعى هو سؤال واجهتنى به ابنتى البكر أكثر من مرة وهو: لماذا لا أكتب ما احكيه لها عن عبدالناصر..؟!

كان تلح فى السؤال.. وكنت اراوغ فى الإجابة... إلى أن قالت لى: يا أبى.. لا أستطيع ان احكى لصديقاتى عن جمال عبدالناصر كما تحكى لى عنه.. وقد وعدتنى كثيرا بالكتابة عنه.. هنا قررت ان اكتب.. ليس لابنتى وحدها.. وإنما لكل أبناء جيلها..

للمـلايين الذين عـاشـوا جمـال عـبـدالناصـر بالسـمع.. عـاشـوه فى حكايات أبائهم الذين عاشوا ثورة عبدالناصر وأحبوه..

لهؤلاء.. هذا الكتـاب الذى يضم عددا مـن الحكايات عن جمـال عبدالنـاصر الانسـان. عن القـصـص الصـغـيـرة فى حيـاته.. القـصـص الصـغـيـرة التى تفـسـر لماذا كـان جمـال عبدالناص تجسيد الأمته.





القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

عبدالناصر..
ابناً لأرض مصر الطيبة..

طفل يقطع رحلته كل صباح من باكوس إلى روضة الأطفال بمحرم بك..
ورئيس للجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية.. يقود المظاهرات..
ويهدد الطلبة بحرق عنابر المدرسة من أجله..
ولانه حفيد فلاح من بنى مر.. ولان والده موظف صغير.. ولانه
بلاواسطة.. الا الله.. يسقط فى كشف الهيئة فى الكلية الحربية..
ولانه شاب قوى البنية وشجاع، وصاحب حق.. ولديه رغبة شديدة أن
يكون جنديا صالحا.. يقتنع به وكيل وزارة الحربية.. ويأمر بقبوله فورا!!

لم يكن سوى الله وحده يعلم.. ان ذلك المنزل الصغير المتواضع رقم ١٨ بشارع الدكتور قنواتى فى حى باكوس بالاسكندرية.. سوف يشهد ولادة أمل الأمة العربية المنتظر ـالتى كانت معه دائما على موعد مع الاقدار عام ١٩١٨.

كان حى باكوس يشبه آنذاك قرية من قرى ريف مصر.. وكان الزعيم الوليد يقطع رحلته كل صباح من باكوس إلى روضة الاطفال بمحرم بك.. وانتقلت الاسرة بعد ذلك إلى أسيوط..

وبعد سنوات انتقل للعمل فى الخطاطبة من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٣٠ وهى بلدة صغيرة تجاور مديرية التحرير الآن.. حيث أكمل تعليمه الأولى فى مدرست السكة الحديد.. والتى كانت تضم ٦٠ تلميذا نصفهم صباحا.. والنصف الآخر فى فترة المساء.

ويقول «جورج فوشيه» مؤلف كتاب جمال عبدالناصر وصحبه.. ان السبب فى تنقل والده من بلد إلى آخر.. انه لم يكه لديه واسطة أو نقود لدى كبير داخل مصلحة البريد.

وظل جمال عبدالناصر فى مدرسة السكة الحديد من سنة ١٩٢٣ حتى عام ١٩٢٤.. ثم أرسله والده إلى القاهرة بعد وفاة والدته ليعيش مع عمه السيد خليل حسين الذى ألحقه بمدرسة النحاسين الابتدائية.. والمدرسة تقع فى قلب القاهرة الاسلامية حيث تقع على مقربة من مقابر سلاطين المماليك وتجاور حى الحسين وخان الخليلى.

ويعلن جورج فوشيه عن تأثر جمال عبدالناصر بهذ الحى بقوله: «لاشك أن هذا الجو الدينى من مساجد ومشايخ وروائح البخور، قد أثرت فى شخصية الرئيس وتوجت ايمانه بالدين وقيمه الروحية والاخلاقية ومبادئه الفاضلة».

ملامح الزعامة المبكرة

حسن النشار، أقدم اصدقاء جمال عبدالناصر، رافقه فى مراحل طويلة من حياته حيث كان والداهما يعملان سويا فى مصلحة البريد، وينتقلان معا فى أكثر من بلدة.. يحكى عنه.. يقول:

«كان جمال عبدالناصر بالنسبة لنا كزملاء فى المدرسة وأصدقاء فى الحياة يمثل شيئا مبهما.. فهو رائدنا فى كل شىء.. فى الدراسة وفيما بعد الدراسة.. كان أطول قامة منا جميعا.. وكان رزينا يستأنس بالوحدة والتأمل والصمت.. وكان دائم التفكير وكان أبعدنا عن الخطأ وارتكاب ما يستوجب المحاسبة.. وكنا عندما نختلف حول موضوع ما يكون رأيه دائماً القول الفصل».

وكان عبدالناصر يثير دهشة والديه بخواطره وايحاءاته الغريبة.. فذات يوم فى «الخطاطبة» سأل أباه فجأة والأسرة تتناول الطعام.. وقطعة من اللحم فى فم جمال «أبى.. لماذا نأكل اللحم.. والفلاحون الذين يرعون الماشية ويربونها لا يأكلونها؟»

وتوقف الوالد عن الاكل.. وأخذ ينظر إلى ابنه فى تأمل وصمت.

ولقد كانت صدمة جمال عبدالناصر فى وفاة أمه عام ١٩٢٦ مفاجأة أليمة له.. وذات يوم عاد والده إلى المنزل ليجده يحفر أمام مدخل المنزل وسأله.. ماذا تفعل يا جمال؟.. وكانت اجابته «لقد أردت أن أرى ما تخبئه لنا هذه الأرض.. نخرج منها واليها نعود»..

ودهش الأب.. ولم يجد جوابا أمام ابنه الذى يحاول أن يعرف كل ما يسمعه بنفسه ويتأكد منه..

يهتف.. «تحيا مصر» وهو يضرب بالعصى

ترك جمال «مدرسة النحاسين الابتدائية» بعد السنة الثالثة وأرسله والده إلى جده لوالدته السيد محمد حماد.. حيث أتم هناك السنة الدراسية فى مدرسة العطارين ونال منها الشهادة الابتدائية.. ثم عاد إلى عمه حسين ليلتحق بمدرسة حلوان الثانوية، ثم نقل والده من كوم حمادة إلى الاسكندرية عام ١٩٢٩..

فأقام معه جمال حيث التحق بمدرسة رأس التين الثانوية.وحيث بدأ اشتغاله لأول

مرة بالعمل السياسى مما كلفه تلقى عدة ضربات بعصى البوليس الغليظة فى جبهته.. تركت العصى أثرها على جبهته بوضوح.. ورغم ذلك واصل هتافه مع رفاقه «تحيا مصر» وثار وهو يتألم لتلقيه الضرب على يد فريق من مواطنيه لايفقهون بسبب الجهل ان ما يفعلونه لمصلحة اعداء وطنه.. ولاحظ فى مرارة أن رجال الأمن الذين انضموا فى ثورة ١٩١٩ إلى الشعب.. قد اصبحوا اليوم اداة من أدوات الانجليز وحكام مصر.. وهنا يعلق جورج فوشيه على هذه الواقعة بقوله «وكانت هذه فترة تحول عبدالناصر من متظاهر إلى ثائر»..

قارئ.. وكاتب.. وممثل..

فى عام ١٩٣٣ التحق جمال عبدالناصر بمدرسة النهضة الثانوية وكان عمره آنذاك ١٥ عاما.. واستقرت الاسرة فى باب الشعرية بجوار مسجد الشعرانى الذى كان يقضى فيه ساعات طوالاً ليقرأ الكتب التى كان يستعيرها من مكتبة اساتذته «أحمد حسنين القرنى» و «مرسى الحميدى» و «نجيب إبراهيم»..

ومن الكتب التى قرأها فى ذلك الوقت «المدافعون عن الاسلام» الذى نشره وقدم له الزعيم مصطفى كامل.. والذى يذكر فيه الأمة المصرية بمجدها السالف ويلقى الضوء على معالم الحضارة العربية وروعتها.. ويدعو أبناء الامة إلى احياء المجد السالف..

وقرأ جمال كتاب «طبائع الاستبداد» للكاتب الوطنى السورى عبدالرحمن الكواكبى الذى عانى من اضطهاد الاتراك فلجأ إلى لبنان ثم إلى مصر.. والكتاب ثورة عارمة على الاستعمار والاقطاع والطغيان وقرأ كتاب «أم القرى» الذى يصور اجتماع مصر فى شكل مؤتمر.. وتداولهم وبحثهم فى أسباب تخلفهم.. وقرأ ايضا كتاب أحمد أمين عن مجددى الاسلام مثل جمال الدين الافغانى ومحمد عبده، وكتاب «اعلام المسلمين».. وتابع مقالات الامير شكيب ارسلان فى صحيفتى اللواء والاخبار والصحيفة الاخيرة كان يصدرها أمين الرافعى المعروف بعدائه لكل حل وسط مع الإنجليز.. وكانت هذه المقالات تدور حول فضل الحضارة العربية على أوروبا.. ولماذا انتقلت الحضارة إلى الغرب وكيف يمكن للعرب استعادتها بالعلم والوحدة والحرية..

وكان لعبد الناصر استاذ اسمه القونى فتح امامه آفاق الحضارة الغربية وفنونها..

وكان يستعير بعض الكتب مثل «روسو» و«فولتير».

وقد انعكست قراءاته على مقالاته التى كتبها بعد ذلك عندما اصبح رئيسا لتحرير مجلة مدرسة النهضة الثانوية.. حيث كتب مقالا بعنوان «فولتير رجل الحرية»

ولعل أشد ما استرعى نظره فى كتابات فولتير.. ثورته على فساد الحكم، وعلى الروتين.. وكتب يقول:

«كانت مشاغلة تنحصر فى المحافظة على استقلاله ككاتب».

ويقول حسن النشار الذى عاصر مرحلة الطفولة والشباب لعبد الناصر: كان هدوء جمال عبدالناصر واتزانه يهيىء له امكانيات هائلة للقراءة والاستيعاب وابداء الملاحظات وكتاباتها على هوامش الكتب التى يقرأها بنهم.

وكان السؤال الأول الذى يوجهه لاصدقائه.. ماذا قرأتم..؟! ويسمع منهم تلخيصا لما قرأوه وملاحظاتهم.. ثم نبادره بالسؤال.. وأنت؟

ويبدأ عبدالناصر فى ذهنية حاضرة وبترتيب مدهش.. يسرد ما قرأه فى أمسه من كتب أو مقالات.. ودائما يخرج بأفكار تظل محور مناقشتنا لفترة طويلة.

وكان عبدالناصر يشترى كتب توفيق الحكيم وبعد أن يقرأها يعطيها لى.. واشترى كتب العقاد ثم اعطيها له ليقرأها.. حتى استقرت كتب توفيق الحكيم عندى واستقرت كتب العقاد لديه.. ومازلت حتى الآن احتفظ بكل كتبه.

وكان جمال يستخدم القلم وهو يقرأ.. ويضع خطوطا تحت العبارات التى تثير فى نفسه معانى.. أو تلك التى تستحق وقفة للتأمل والتفكير.. فمثلا المحادثة التى جرت بين عالم الآثار الفرنسى ومهندس الرى الانجليزى فى كتاب «عودة الروح».. حول الشعب المصرى وافتقاره إلى قائد مخلص يلتف حول.. نجد عبدالناصر يضع تحتها خطوطا.. ويعلق عليها بكلمات من عنده.

وقد كان ناصر شغوفا على وجه الخصوص بقراءة كتب التاريخ والروايات الادبية التى تدور حول التاريخ والفلسفة.. وكثيرا ما كان يناقش حولها ساعات طويلة مع سامى النشار الذى اصبح استاذا للفلسفة الاسلامية فى جامعة الاسكندرية.. وكان يسأل عن الكتب التى تبحث فى عوامل الضعف والقوة التى تجتازها الشعوب فى مراحل كفاحها.

ويكشف حسن النشار عن جوانب خفية فى شخصية عبدالناصر.. وهو حبه للمسرح.. حيث كان عضوا فى فريق التمثيل بمدرسة النهضة الثانوية وقام بدور يوليوس قيصر على مسرح «برنتانيا» يوم ١٩ يناير عام ١٩٣٥.

ثم عين فى عام ١٩٣٦ مديرا لمسرح المدرسة.. وكان جمال شغوفا لأبعد حد بالاستماع إلى الموسيقى العربية والموشحات والبشارف وبالاستماع إلى الموسيقى الغربية وبوجه خاص «الكلاسيك» منها...

وكان ناصر ولوعا بالرياضة.. وكان يفضل رياضة السير على الاقدام لانها لاتعطله عن هواية التفكير والتأمل والمناقشة، حيث كان يصحب اصدقاءه إلى صحراء العباسية لتدور بينهم المناقشات السياسية والفكرية.. كانت مناقشات محورها الظلم الذى تعيشه الأمة.. وإلى متى..؟..

جرت مناقشة فى صبيحة أحد الايام فى مدرسة النهضة.. وسئل جمال عبدالناصر من أحد زملائه.. كيف قضيت الأمس..؟.. قال جمال: فى قراءة كتاب.. وفى حل خلاف حدث بين اثنين من الزملاء احتكما إلى.. واستمع جمال إلى موضوع الخلاف.. ثم التفت إلى الزميل الذى اقتنع بأنه مخطىء وقال له: الحق مع صديقك وعليك انت بالاعتذار.. فغضب الزميل وقال: انت فى جانبه لانه صعيدى مثلك.. وابتسم جمال فى هدوء.. وقال يعيرنى بأنى صعيدى.. اننى فخور بذلك.. لان الصعيدى رجل حقا.. رجل لا يتنازل عن شىء من حقوقه.

ويقول جورك فوشيه لقد كان عبدالناصر فى مفاوضاته على موضوع التعويضات عن الاضرار الناجمة عن العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.. متشددا فى مطالبه وكان المتحدث الذى لايمكن انتزاع شىء منه دون مقابل.

أنا واسطتى ربنا..!

يحكى حسن النشار عن اتصال عبدالناصر بالحركة السياسية فى القاهرة عام ١٩٣٥.

«كان الشخصية السياسية التى ننتظر منها الأمل فى الخلاص.. تتمثل فى احد وزراء ذلك العهد».

وفى ظهر يوم الثلاثاء ١٢ فبراير من نفس العام كان عبدالناصر وزملاؤه على موعد مع هذا الزعيم.. ولمحوه يخرج من مكتبه وخلفه حاشية من النواب وغيرهم..

واعترض جمال طريقه وهو يهم بدخول «الاسانسير» وقال له: احنا كونا مجموعة كبيرة من طلبة المدارس المختلفة.. وعاوزين ناخد رأيك فيما يجب أن نفعله.. وكيف يمكننا خدمة بلادنا!

في هذه اللحظة بالذات أحسن الزملاء بشخصية الزعيم تتجسد فى جمال عبدالناصر.. شجاع يمتاز بكل صفات القيادة والقدرة، على مواجهة الكبار بلا تردد أو خوف.

ونصحه الوزير بالاتصال بطلبة الجامعة.. وذهب الزملاء خلف عبدالناصر إلى هناك ليجدوا شباب الاحزاب يتطاحنون.. لا حول الكفاح والآمال والامانى.. ولكن حول من يكون رئيسا ووكيلا وامينا للاتحاد.. وانفض الاجتماع دون التطرق بكلمة واحدة حول هذه المعانى.. وهو ما دفع جمال عبدالناصر إلى تكوين «لجنة طلبة المدارس الثانوية» وكان يحمل معه كراسة تضم قيادة التنظيم الذى كان يضم كثيرا من الاسماء بينها حسين عباس، وأحمد الشافعى، ومحمود التونى، وعبدالرؤوف جبريل..

وفى الوقت الذى دعت فيه الاحزاب إلى العودة إلى الدراسة عقب إعلان عودة دستور «١٩٢٣».. كان جمال عبدالناصر يخطب فى فناء مدرسة الحسينية الثانوية.. وهجم البوليس.. وتقرر اغلاق المدارس.. ولكن عبدالناصر لم يهدأ.. فقد ساعدته الكراسة التى دون فيها أسماء وعناوين قيادات الطلبة، فى الاتصال بهم ومعاودة تنظيمهم من جديد فى فترة تعطيل الدراسة.

وفى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥.. وفى مدرسة النهضة الثانوية.. وقد بدأت الدراسة منذ شهر.. وكان قد مضى عام على وعد توفيق نسيم باعادة دستور ١٩٢٣.. وكان المناقشات فى الفصل وفى فناء المدرسة حول اسلوب المقاومة.. ولكن من الذى يستطيع أن يعلن عن قيام المظاهرات.. فالسجن أو الفصل مصيره المحتوم.

وفى اللحظة التى بدأ فيها جمال عبدالناصر تنظيم صفوف الطلبة للتظاهر ويأخذون طريقهم إلى شوارع القاهرة.. قبض عليه البوليس والقى فى سجن قسم الموسكى لانه هتف بحياة مصر.

ودعا رئيس الحكومة آنذاك إلى عودة الطلبة إلى مدارسهم معلنا «إن الذين يواصلون تنظيم المظاهرات خونة» وفى أعقاب هذا التصريح نشبت الصراعات بين اصحاب القمصان السوداء واصحاب القمصان الخضراء.

وكان عبدالناصر يهب على رأس مجموعات من طلبة المدارس.. الثانوية لنجدة العدد القليل من الطلبة الوطنيين بقيادة نور الدين طراف.

واخرج البوليس السياسى رئيس اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية.ولكنه لم يكف عن مراقبته.. وحرص ناظر مدرسة النهضة الثانوية على فصله بتهمة تحريض الطلبة على الثورة..

وفى اللحظة التى عرف الطلبة بما حدث لجمال عبدالناصر كانوا قد اتخذوا قرارا بحرق المدرسة الداخلية، وبعد ساعة واحدة كانت النيران تندلع من العنابر.

يتذكر حسن النشار: ولما كانت المدرسة خاصة لاتتبع وزارة المعارف فقد خاف الناظر على امتداد خسائر المدرسة إلى بقية ما فيها من فصول وادوات.. وقرر عودة عبدالناصر، ولكننا صممنا ان يذهب إليه فى منزله ويعتذر له.

وبالفعل ارسل له ضابط المدرسة الذى اصطحبه معنا فى عربة حنطور دخلت المدرسة ونحن نهتف بحياة مصر.

ويقول عبدالناصر فى كتابه فلسفة الثورة:

«فى تلك الايام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة، وصرخت من أعماقى بطلب الاستقلال التام ولكن صراخنا ضاع هباء.. وبددته اصداء واهنة لاتحرك الجبال ولاتحطم الصخور».

ومن هنا.. ولهذه الاسباب كان جمال عبدالناصر على قناعة تامة كما يقول جورج فوشيه فى كتاب «عبدالناصر وصحبه» لقد امتلأت نفس الشباب يقينا بأن مصر لن تحصل على استقلالها بالخطب والمرافعات.. بل يجب أن تقابل القوة بالقوة.. والاحتلال العسكرى بجيش وطنى.. و.. وقرر عبدالناصر ان يكون ضابطا بالقوات المسلحة..

فى لجنة كشف الهيئة بالكلية الحربية سأله مدير اللجنة:

ـ اسمك ايه؟

ـ جمال عبدالناصر حسين.

ـ أبوك بيشتغل ايه؟

ـ موظف بمصلحة البريد..

ـ موظف كبير؟

ـ لا.. موظف صغير.

ـ بلدكم ايه؟

ـ بنى مر مديرية أسيوط..

ـ يعنى فلاحين؟

ـ أيوه..

ـ فيه حد من عيلتكم ضباط جيش؟

ـ لا..

ـ امال ليه عاوز تبقى ضابط؟

ـ عشان ابذل دمى فداء الوطن.

ـ فيه حد اتكلم عشانك؟

ـ واسطه يعنى؟... انا وسطتى ربنا!

ـ انت اشتركت فى مظاهرات ١٩٣٥؟

ـ أيوه..

ـ كده.. طيب اتفضل!!

وخرج جمال.. ليعرف انه سقط فى كشف الهيئة لانه حفيد فلاح من بنى مر.. ولأن والده موظف صغير.. ولأن واسطته ربنا..!

واقنعه حسن النشار بالالتحاق معه فى كلية الحقوق.. ولكنه قبل الامر على مضض.. انه صاحب حق.. ورغبته ان يخدم فى المجال العسكرى.. لانه المجال الوحيد الذى يعتقد انه يوافق استعداده وتحقيق آماله فى الخلاص.

وفى العام التالى.. تذرع جمال بالشجاعة وتوجه إلى منزل اللواء إبراهيم خيرى وكيل وزارة الحربية، وعلى باب المنزل سلم الخادم بطاقته ودخل ينتظر فى الصالون.. وجاء وكيل الحربية الجديد ليسأله:

- ماذا تريد؟

- أفلا تقبل الكلية الحربية الطلبة إلا إذا كان عندهم واسطة.. ام ان هناك قواعد عامة تسرى على الجميع؟

- هل قدمت طلبا ورفض؟

- اجل.. ونجحت فى الكشف الطبى.. ولكن كشف الهيئة يحتاج الواسطة.. وليس لى واسطة.. ومعنى ذلك أن أعود إلى كلية الحقوق.

ورمقه اللواء إبراهيم خيرى طويلا.. شاب قوى البنية وشجاع وصاحب حق.. ولديه رغبة شديدة أن يكون جنديا صالحا.. وقال له فى بساطة: اذن.. تقدم مرة ثانية للكلية.

وفوجىء جمال عبدالناصر أن وكيل الكلية الحربية على رأس لجنة كشف الهيئة.. وأمر بقبوله فورا.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

رسائل وقراءات وفيرة

ما الذى يقوله عبد الناصر فى رسائله الشخصية؟

بيان درجات جمال عبد الناصر فى الاختبار النهائى للتخرج من الكلية الحربية..

ماذا كان يقرأ عبد الناصر وهو طالب فى الكلية الحربية؟

ما الذى اضطر عبد الناصر للقفز من نافذة «ميس» الضباط إلى الشارع؟

فى جبل الاولياء، لم يكن له من رفيق الا «قرد»!!

فى ٢ سبتمبر عام ١٩٣٥ أرسل جمال عبدالناصرإلى صديقه حسن النشار الذى اصبح استاذا للفلسفة الاسلامية فى جامعة الاسكندرية.. خطابا من الاسكندرية يقول فيه:

«قال تعالى:﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.. فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم؟.. ان الموقف اليوم دقيق، ومصر فى موقف أدق، ونحن تقريبا نودع الحياة ونصافح الموت، فان بناء اليأس عظيم الاركان. فأين من يهدم هذا البناء، ان فى الحكم حكومة قائمة على الفساد والرشوة، والدستور معطل والحماية على وشك الإعلان فأين من يقول للانجليز: ارجعوا عن غيكم فان فى مصر رجالا ذوى كرامة لايريدون ان يموتوا كالانعام.. أين الكرامة..؟ اين الوطنية.. ؟ اين ذلك الذى يسمونه رعونة الشباب؟.. كل ذلك قد غاب فى الآفاق..

وظهرت الامة نائمة كأهل الكف والرقيم.. فأين من يوقظ هؤلاء التعساء الذين هم فى حالتهم لايعلمون.. قال مصطفى كامل «لاحياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة»..

ولكننا نجد الآن حياة مع يأس ويأساً مع حياة.. لقدانقلبت الآية يا أخى ورجعنا إلى الوراء.. رجعنا خمسين سنة إلى الوراء.. رجعنا إلى حكم كرومر».

وفى يوليو ١٩٣٨ بعث من منقباد الى صديقه حسن رسالة يقول فيها:

«يسرنى ان تعلم ان اخلاقى مازالت متينة.. فطبعا جمال الحاضر الموجود فى منقباد.. هو جمال الذى تعرف منذ بعيد الذى يبحث عن آماله فى الخيال ولكنها تفر كالاشباح».

وفى فبراير ١٩٣٨ ارسل بخطاب اخر يقول فيه:

«اننا نشتغل الآن تحت رئاسة شوية « .....» اكثرهم أو جلهم يتمنون عودة الاستعمار للسيطرة على الجش.. وكلهم مجردون من الاخلاق ربنا ما يوريك؟!»

ويقول فى رسالة بعث بها من الخرطوم:

«كل عيبى هنا فى عملى أنى «دغرى» لا أعرف الملق ولا الكلمات المنمقة، ولا أتمسح بالاذيال.. إذ أن شخصا هذا صفاته يحترم من الجميع ولكن الرؤساء، الرؤساء يا حسن يسؤهم ذلك الذى لا يسبح بحمدهم.. يسؤهم ذلك الذى لايتملقهم وهم الذين اعتادوا الذل فى كنف الاستعمار يقولون«كما كنا يجب ان تكونوا.. كما رأينا يجب أن تروا، ويحزننى يا حسن ان أقول هذه السياسة نجحت نجاحا باهرا.. ويحزننى ياحسن ان هذا الجيل الجديد قد افسده الجيل القديم فاصبح منافقا متملقا.. ويحزننى يا حسن ان اقول اننا نسير إلى الهاوية بالرياء والنفاق والملق.. والذى ينتشر بين الصغارنتيجة لمعاملة الكبار «اما أنا فقد صممت ومازلت.. ولذلك تجدنى فى عداء مستمر مع هؤلاء الكبار ولا حول ولا قوة الا بالله».

يقول أنور السادات فى كتابه ثورة على النيل:

«اذكر فيما اذكر اننا فى أيام الشباب.. تلك التى تراود فيها الأحلام النفوس.. اخذنا نتأمل قول جمال عبدالناصر.. الانجليز أس الفساد».

ولم يكن أحد منا يجهل أن الانجليز أس كل بلائنا.. فكنا نكرهم ولكن تلك الكلمات فاه بها جمال كأنه أراد أن يعهد الينا برسالة عظيمة يجب الا يتنحى عنها أحد منا.

وفى يوم كنا نسمر ونشوى أبو فروة وقال لنا جمال:

«فلننتهز هذه الفرصة لنخلق شيئا متينا.. ولتكن جلستنا هذه جلسة تاريخية. ولنظل على الدوام مخلصين للصداقة التى تربط بيننا.. وانا بفضل هذا الاتحاد سننتصر على كل ما تأتى به الأيام..

نعم.. فلقد كان جمال يضع مقياس الاخلاق فوق كل مقاييس الرجولة والاخلاص والتضحية.. وكان للوقت عنده ثمن كبير.. انه الحياة والعمر والمستقبل.. وكان يجمع اصدقاءه وزملاءه دائما على أن تكون أوقاتهم مفيدة ومخلصة لما يؤمنون به وما يطمحون اليه من آمال..

عبدالناصر.. ضابطا..

منذ التحق عبدالناصر بالكلية الحربية فى مارس سنة ١٩٣٧ وهو يضع نصب عينيه هدفا محددا وهو أن يكون طالبا متفوقا لكى يتخرج كأحسن ضابط وفعلا، مالبثت قيادة الكلية أن اختارته كرقيب لدفعته.

وفى سنة ١٩٣٨ عين رقيبا على الدفعة الجديدة، حيث تعرف على أكثر أفرادها انضباطا وحيث صار فيما بعد اقرب الاصدقاء الى قلبه، وهو عبدالحكيم عامر.

وفى الوقت الذى اطلق فيه الطلاب على جمال «جيمى» وسموا عبدالحكيم عامر «روبنسون» وذلك لصبره وحبه المغامرة، وبسرعة واثر امتحان مفاجىء كوفى«جيمى» بأن أخذ رتبة «الانباشى».

وقد كان المنهج الدراسى للدفعة فى الكلية الحربية آنذاك يستغرق ثلاث سنوات ولكنه فى سنة ١٩٣٨ احتاج الجيش إلى مجموعة من الضباط الجدد مما دعى قيادة الكلية الى اختصار هذا الكورس بالنسبة لدفعة جمال.. وخلال ستة عشر شهرا فقط كان جمال يتقدم للاختبار النهائى للتخرج. ولقد حصل على مجموع كلى بنسبة ٧١٪ وهو يعتبر أعلى تقدير فى الدفعة وبيان درجاته كالاتى:

- فى العلوم والرياضيات ٨١٪
- فى القيادة والتنظيم ٩٥٪
- فى التاريخ العسكرى ٦٨٪ وكانت أقل درجاته ولقد كان هذا غريبا ذلك أن التاريخ كان مادته المفضلة فى المدرسة الثانوية.

كان جمال اثناء دراساته بالكلية الحربية يقضى معظم وقته فى المكتبة وكان مما قراه بعض الكتب باللغة الانجليزية، ولقد ركز معظم قراءته فى التاريخ العسكرى والسياسى حيث قرأ كثيرا من التراجم عن نابليون وبسمارك وكمال اتاتورك ولقدكان «جيمى» شغوفا بالاطلاع فى المشاكل الاقتصادية الخاصة بالشرق الاوسط.

وهذه قائمة ببعض الكتب التى قرأها جمال وهو طالب فى الكلية الحربية فى سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨:

عنوان الكتاب المؤلف باللغة الانجليزية

- الذئب الاغبر «مصطفى كامل»... ارمسترونج
- جوردون فى الخرطوم... جون بوشان
- بونابرت حاكم مصر... شارل رد
- حياتى الماضية... تشرتشل
- الاسكندر الأكبر... ارتوردیفال
- بسمارك هيدلام... مورلاى
- فوش، رجل اورليان... ليدل هارت
- هنبرج وساحا الثورة الجرمانية... اميل لودفيج
- لورانس والعرب... جرافز
- مارلبورو... اتكنسون
- رجل وأعمال... جون بوشان
- نابليون اميل... لودفيج
- الجنود ورجال الدولة... روبرتسون
- لورانس فى شبه الجزيرة العربية... ليدل هارت
- جغرافية الامبراطورية العسكرية... كول
- ذلك البحر المتوسط ج... مارتيللى
- قلب أوروبا... جون جانتر
- أمس واليوم فى سيناء... جارفيس
- حملة فلسطين... وايفول
- الازمة الدولية... ونستون تشرشل
- غاليبولى جون... مانستفيلد

- حملة المارن... لويل تينج

- الاستراتيجية الالمانية فى الحرب الكبرى... تيام

- تاريخ الحرب الكبرى ١٤ ـ ١٩١٨... ليدل هارت

- استراتجية حملة مصر وفلسطين ١٩١٧ ـ ١٩١٨... كيارس

- نابليون ووداترلو «جزءان»... بيك

- حرب النهر ونستون... تشرشل

- تاريخ فلسطين وسورية... اوليستيد

- مغامرة بونابرت فى مصر... الفود

- الاتسراتيجية البريطانية سير «ف»... مورس

- اعمال الابطال... كينون وين

- رحلتى الأولى إلى البحار الجنوبية... كنيجستون

- التمرين على السلاح... المراجع الرسمية

وباللغة العربية:

- عودة الروح... توفيق الحكيم

- تاريخ الثورة المصرية «١٩١٩»... عبدالرحمن الرافعى

- الأيام... طه حسين

●●●

فى صيف ١٩٣٨ بعث جمال برسالة إلى جده وباقى أقاربه فى بنى مر يخبرهم بأنه بمجرد أن يتخرج سوف يعمل ويعيش قريبا منهم بمسعكر منقباد.

وفى أول يوليو ١٩٣٨ تخرج الملازم جمال عبدالناصر من الكلية الحربية والتحق بكتييبة البنادق الخمسة للمشاه فى منقباد.

وها هو الملازم جمال عبدالناصر يذهب إلى مكان خدمته فى تلك البقعة التى يهفو اليها قلبه والتى تستحق بجدارة صفة الوطن، لقد وقف ينظر من خلال شباك عربة القطار العسكرى ويتذكر طفولته وبنى مر ومنزل جده، واخذ يسرح فى ماضيه ويتذكر بل ويكاد يشم رائحة الخبز المنزلى الساخن حينما كان يحشر به جيبه ومنظر وداعه لأقاربه الصغار من أولاد الفلاحين، وكيف كان جمال يسعد وهو يذهب ممتطيا ظهر الحمار إلى اسيوط لزيارة والده.. آه لهذه السنوات التى عايشها بنفسه والتى يراها الآن حينما يرى الفلاحين الذين يكدحون فى الحقول «بجلاليبهم» الفضفاضة الزرقاء.

كتب جمال إلى صديقه حسن النشار يقول:

«بالأمس بدأت خدمتى العسكرى بمنطقة منقباد، هذه البقعة الرائعة والشاعرية التى تحتل ركنا من المعمورة، فحول المعسكر تنتشر الجبال والرمال الصفراء كما تحيط بها الاراضى الخضراء والرياض التى تنساب فيها القنوات الهادئة، ففى الشمال تجد الحقول وفى الجنوب تشاهد سلسلة من الجبال، ترى عندها الصحراء الشرقية وكأنها قد مدت يدها لتصافح بها يد الصحراء الغربية».

وأصبح كثير من الذين عايشوا جمال فى منقباد أصدقاء له، ولقد استمرت بعض هذه الصداقات ودخلت إلى مجال العمل حيث التحق بعضهم بتنظيم «الضباط الاحرار» فيما بعد.

واعتقد عبدالناصر ان الجيش المصرى سوف يهب فى النهاية للكفاح من أجل الحرية واستقلال البلاد، ولقد دعم عقيدته هذه نظرته للتاريخ المصرى والمامه به والتاريخ الثورى للجيش المصرى.

ففى سبعينات القرن الماضى تكونت فى الجيش مجموعة ثورية حيث اطلق عليها اعضاؤها اسم «مجموعة الضباط الاحرار» فكم هى تسمية رائعة «الضباط الاحرار».

وهكذا كان يفكر جمال فى هؤلاء الضباط الذين انتظموا حينئذ للدفاع ضد المتسلل البريطانى فى مصر وللمطالبة ببعض الاصلاحات الوطنية والشعبية.

ولم يدع جمال أى فرصة أو لقاء يمر عليه حينما يقابل زملاءه الا ويذكرهم بانتفاضة

عـرابى، أول من قـال إن الجـيش يجب أن يكون فـى خـدمـة الشـعب، لقـد كـانوا دائمى التحدث عما حدث فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ حينما قاد أحمد عرابى قواته واتجه بها إلى ميدان عابدين حيث يوجد القصر الملكى الذى يسكنه الخديوى توفيق وقد ظهر من شرفة القصر وبجواره القنصل الإنجليزى العام ليدور هذا المشهد التاريخى:

سألهم الخديوى:

- لماذا أتيتم إلى هنا؟

- رد عرابى وهو يقف مستندا على سيفه: لقد أتينا لكى نفرض مطالب الشعب والجيش العادلة.. قالها وهو يسمح بيده على شاربه.

- قال الخديو والعجب يرتسم على وجهه:

أية مطالب..؟

- اسقاط الوزارة التى يمقتها الشعب، وزيادة عدد الجيش واطلاق الترقيات للجنود المصريين.

- حاول القنصل الانجليزى ان يشجع الخديوى، فقال وهو يصيح فى هيستريا:

ما أنتم الا عبيد احساناتنا وليس للعبد الحق فى المطالبة بأى شىء!

- وهتف به عرابى:

لقد ولدتنا امهاتنا احرارا، ولن نستعبد أو نورث بعد اليوم.

كان جمال دائم التفكير فى هذا المشهد، متخيلا ذلك الوقت الذى يستطيع أن يقف فيه وهو ورفاقه بشجاعة ضد الظلم والاستبداد مستكملين بذلك الكفاح الذى بدأه عرابى.

أخذ جمال وضعه فى منقباد وسط حامية تتكون من ثلاثة آلاف من الشباب الظامئين للعمل العسكرى بعد مللهم من معيشتهم الكئيبة والمملة، وكان الجميع يقضون أوقات فراغم فى النقاش العنيف حول مصير ومستقبل البلاد، واحيانا كان جمال يأخذ بعض اصدقائه ويذهب بهم إلى «بنى مر» حيث يستقبلهم الحاج حسين وهو فخور بحفيده

الضابط ويرحب بهم أشد الترحيب وكانوا غالبا ما ينتظرون حتى يتناولونا الغداء الريفى الذى يسعدهم ويجعلونه مادة للتذكر والحديث عندما يرجعون إلى معسكرهم.

كان جمال متأكدا من انه لابد وأن يوضع فى القائمة السوداء نتيجة لما يطرحه من افكار تحررية وسط ضباط الحامية وبطريقة مكشوفة وان هذا الوضع سيحمل له بعض المتاعب التى ستؤثر على دورة فى الترقى العسكرى، بل لم يقف به الامر عنه هذا، فقد طلب رئيسه نقله إلى السودان، واضيف إلى طلب النقل صديقه عبدالحكيم عامر.

وما لبث الاصدقاء أن انتقلوا إلى الخرطوم فى القيادة العسكرية المصرية البريطانية المشتركة، حيث اعتبروهم هناك من الضباط المغضوب عليهم، وقد وجدوا انفسهم فى وحدة عسكرية يحب قائدها الشرب، ولكنه يكره أن يشرب وحده، لذلك فإن الضباط بحكم التقاليد العسكرية مضطرون لان يكونوا ندماء له ويشاركونه فى شربه.

وفى احدى الليالى تم دعوة الملازمين الصغيرين للمشاركة فى الاحتفال بعيد ميلاد القائد الذى لاحظ عزلة هؤلاء.

كان منظر الضابط الزرى وعيونه الزائغة تبعث فى جمال الشعور بالتقزز، لقد كان يحاول ان يتماسك بصعوبة، ولهذا أجاب بلطف وان كان ممزوجا بدرجة من الشدة الكافية بأنه لايستطيع أن يشرب.

وفى هذه اللحظة انغلق باب «الميس» بشدة وهنا رمق القائد هذا الضابط المبتدىء بنظرة من قدميه حتى رأسه ورفع إليه الكأس وأمره بالشرب، ووقف جمال ممتقع اللون وهو يحمل بيده الكأس ويراقب القائد الذى أخذ يفرغ فى جوفه الكأس تلو الآخر، اخذ جمال يتلفت حوله ثم لمس عامر فى مرفقه وقال له انظر ثم اشار إلى الشباك حيث كان احد الاصدقاء يثب من خلال النافذة لكى يجد نفسه بعد ذلك فى الشارع.

وخلال بضع دقائق أخذ جمال يضحك وصديقه عامر وهم يشقون طريقهما إلى السينما.. فقد وثبوا من النافذة إلى الشارع.

وقد فهم القائد ذلك على أنه اهانة شخصية موجهة له، وذات مرة طلب القائد جمال إلى مكتبه وأخبره بأنه سيبعث به إلى حامية بعيدة فى جبل الاولياء.

وأخذ جمال يفكر.. ماذا يجرى فى القاهرة الآن.. وبالطبع فان العيش فى الخرطوم له عديد من المميزات.. وقد أصبح واضحا ان مجرد الخروج من الخرطوم هو بمثابة عقاب.

وتم النقل فعلا إلى جبل الأولياء.. وظل جمال عبدالناصر مكدودا فى هذه الفترة.. ليس من تسلية غير مداعبة أحد القرود التى اشتراها من أحد مروضى القرود المتجولين واحضره معه فى قفص.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

عبدالناصر..
سنوات النضج والمرارة

رجل مثل الملايين من الرجال
يحب.. ويتزوج .. وينجب الاطفال
ويقاتل ويعمل من أجل أن تكون مصر وطنا للحرية
كيف تزوج..
وأقام الخلايا الأولى للضباط الاحرار..
وقاتل فى فلسطين.. ؟!

عادعبدالناصر إلى القاهرة وبمجرد عودته بدأ يلتف حوله مجموعة من ضباط الجيش من الذين تجمعهم وحدة الموقف والنقمة على الاستعمار الانجليزى وفى ضاحية أبو زعبل التى خدم فيها عبدالناصر بمجرد عودته من السودان تمكن من الالتقاء بمجموعة من شركاء الرأى الذين وجدوا فيه أيضا شريكا لهم.

كان البوليس ينشر عملاءه، وما كان عبدالناصر يغفر لنفسه لو أن أى فرد من الضباط الوطنيين قد سقط فى يد البوليس. ولهذا أخذ يتلمس الظروف ليعرف من الضباط ما إذا كان احدهم يمتلك شقة بالقاهرة ليدبروا فيها لقاءهم، وفعلا تمكنوا من الحصول على منزل احد شيوخ الازهر.

فى صباح يوم، توجه جمال إلى العنوان المذكور، وقبل ان يدخل البيت، أخذ يستكشف المكان بمنتهى الحرص.. كان المكان يبدو مريحاً. فالمنزل يقع بجوار احد المساجد فى حى شعبى قريب من الازهر ونادرا ما يتجول فيه الانجليز، ومع ذلك فقد كان مالك المنزل يعتبر احد الموالين لرجال السلطة.

طرق عبدالناصر الباب، وادخل إلى حجرة صغيرة خانقة كان لابد لمن يصل إليها ان يعبر ممرا شبه مظلم بعد ان يجتاز السلم للطابق الثانى إلى أن أتى زملاءه.

فى تلك الحجرة المحبوسة الهواء اجتمع خمسة أشخاص.. بدأ عبدالناصر الاجتماع مهنئا بانضمام ضابطين جديدين، ثم طلب اغلاق الباب، ثم قام بتقديم الزملاء الجدد للقدامى وبالعكس حتى تم التعارف فيما بينهم.

قال عبدالناصر: لقد قلتم انكم تؤدون المشاركة فى الكفاح من أجل حرية الوطن.

ورد الضباط الايجاب وبالايماء برؤوسهم علامة على الموافقة.

وسألهم:

- هل تفهمون ماذا سيعنى هذا وكم سيتكلف من أعباء؟

- نعم.. نحن نعرف هذا جيدا ونعلم أيضا أن بعض رفاقنا الآن معتقلون.

- اذن، دعونا نتناقش سويا فى هذا الأمر.

قال عبدالناصر هذه الكلمات ثم استطرد بأن تسمية «الضباط الاحرار» تصلح تماما كاسم للتنظيم القائم فعلا فى الجيش، حيث يتسع لجميع العناصر الوطنية كما أن هذا التنظيم على استعداد لتدعيم جميع الاتجاهات الوطنية.

وأضاف جمال قائلا:

أن التنظيم يقوم على ثلاثة مبادىء أساسية هى..

أولا: الصداقة التى يجب أن تسود بين جميع الضباط الاحرار بصورة أكثر من رابطة الدم.

ثانيا: السرية التامة.

ثالثا: الحب غير المحدود لشعبنا ووطننا.

وهكذا اقدم عبدالناصر على عمل قد يدفع حياته ثمنا له حيث اخذ يستغل وجوده بالقاهرة فى التحدث مع الضباط الذين تربطهم به معرفة قديمة. وبصفة خاصة هؤلاء الذنى يحسون بالاستياء من الاوضاع السائدة ويفاتحهم على أنه ممثل لتنظيم «الضباط الاحرار» الذى يكافح من أجل تحرير مصر.

وهكذا خطوة بخطوة تمكن عبدالناصر من ضم بعض الأعضاء إلى التنظيم، وبعد ذلك ادرك جمال انه يجب على تنظيم الضباط الاحرار ان يبدى نشاطا أوسع خاصة فى جميع التبرعات لاسر الضباط المعتقلين.

ولقد كان جمال يخشى الانتقال مرة أخرى إلى مكان آخر مما سيؤثر على عمل التنظيم، ولكن سرعان ما عين مدرسا فى الكلية الحربية، وفعلا تسلم عبدالناصر وظيفته الجديدة، واصبح عليه الآن ان يستعد لدخول امتحان اركان الحرب، وبدأ يسهر الليالى بالمكتبة، وكان جمال فى نهاية الحرب العالمية الثانية قد اصبح نقيبا «يوزباشى».

اصبح عبدالناصر بذلك شخصا مشغولا، تحفل حياته بكثير من الاعباء، فعليه ان يستعد لامتحان اركان الحرب من جهة، وعليه ان يواصل عمله فى تنظيم الضباط الاحرار من جهة أخرى، ولهذا كان لايظفر بأى وقت من أوقات الفراغ، فى الوقت الذى تمارس فيه كل هيئة التدريس بالكلية حياتها بلا أى طائل وبعدم مبالاة واضحة. فمنهم من ينفق وقته فى لعب القمار والورق، ومنهم من يقضى كل وقته فى مطاردة النساء والاستمتاع بمصاحبتهم فى صالات الرقص.

ولكن.. عبدالناصر كان يشغله شىء واحد.. هو استقلال مصر وحريتها.

لمرة واحدة فى الاسبوع، كان جمال يسمح لنفسه بالذهاب الى صديقه القديم عبدالحميد كاظم، كانت معرفة جمال به تعود إلى أيام اقامته مع عمه خليل فى القاهرة، وقد جمعتهم الظروف مرة ثانية حيث تقابلا بعد ان تسلم جمال عمله كمدرس فى الكلية الحربية، وكان عبدالحميد كاظم يسكن فى منشية البكرى ويمتلك ورشة متواضعة لصناعة البسط والسجاجيد، حيث يقوم فيها بتجديد السجاجيد العجمى المشهورة والسجاجيد المصرية ذات النقوش والزخارف الفاطمية، والسجاجيد الأخرى ذات الانسجة المشجرة الواردة من اسبانيا.

سنوات عديدة مرت على معرفة عبدالناصر بصديقه عبدالحميد كاظم، وقد مرت السنوات، واصبح صديقة عبدالحميد أرمل وزوج كبرى بناته، أما الأخرى «تحية» فكان جمال يعرفها ولكنه لم يرها منذ كانت فتاة صغيرة، ولكنها الآن قد شبت وتحولت إلى فتاة جميلة ناضجة سوداء العينين، وكانت تحية قد تلقت قدرا من التعليم الكافى بالقياس إلى عامة الفتيات فى مصر آنذاك، مع ذلك فقد كانت تربية تحية قائمة على بعض الاسس القديمة، فلم تكن تجرؤ ـ شأنها فى ذلك شأن جميع النساء اللاتى يمشن حولها ـ ان تحضر مجالس الرجال أو مناقشاتهم ولكنها تستطيع فقد ان تحضر للحظة

امام الضيوف.. ولهذا فان كاظم لم يأخذ فى اعتباره بأن ناصر صديق له حينما قدم اليه «تحية» ثم أمرها على الفور بأن تغادر الحجرة.

وكثيرا ما كان عبدالناصر يصطحب معه عبدالحكيم أثناء زيارته لعبد الحميد كاظم وكان يقضيان وقتهما فى النقاش حول ماضى مصر وحاضرها ومستقبلها. وفى هذه الأثناء كان كاظم ينادى ابنته ساعة احتدام النقاش لكى تعد لهم الشاى، وكانت تحية تدخل حينئذ خافضة عينيها لكى تقدم الشاى للضيوف.

فى احدى المرات، كانت تحية تقدم الشاى، وحدث ان لمست يدها عفوا يد جمال الذى نظر اليها فلاحظ عليها الارتباك الكامل والارتعاد الذى بدأ فى عينيها، فى هذه اللحظة تذكر جمال ولسبب لايدريه.. امه.

مرت عدة أسابيع ولم يذهب جمال لزيارة عبدالحميد كاظم.. وفى احد الايام طرق باب صديقه، وادخل إلى الحجرة المعهودة حيث كان يجلس عبدالحميد كاظم وشخص غريبا يجلس فى رداء ضابط وقد خلع سترته ورضعها على مسند الكرسى الذى اتكأ عليه وفى يده كوب من الشاى.

طلب كاظم من جمال ان يستمر فى جلسته، وكان جمال قد بدأ يتململ إلا أن كاظم لم يلحظ أى شىء.. ولم يلبث ان دخل إلى المطبخ حيث حضر ومعه الشاى.

ـ هنا سأله جمال: اين تحية اليوم؟

ـ فأجابه كاظم: لقد ذهبت لزيارة اختها، واستمر فى التحدث إلى ضيفه الضابط ولم يبد جمال أى ميل للمشاركة أو لمقاطعته فى الحديث.

مضى اسبوع. واتى جمال إلى زيارة كاظم، وفى هذه المرة ـ وكالعادة ـ احضرت تحية الشاى.

عندئذ قرر جمال الا يذهب مرة أخرى إلى بيت كاظم، ولكن عينى تحية الجميلتين كانتا تطارد انه دائما خاصة حينما يخلو إلى نفسه، وتلح عليه ذكرى امه.

ماهى الا ثلاثة أسابيع حتى ذهب جمال ليشرب الشاى مع صديقه القديم كاظم، ولكن هذه المرة كان مصمما على شىء جديد، فلم يسمح لنفسه أو للآخرين بأن يأخذوا

رشفة شاى الا وقد فاتح كاظم فى خطبة ابنته تحية له. ورحب كاظم على الفور.

إلا أن جمال قد طلب ان يؤخذ رأى تحية - فقد لايعجبها الضابط، وقد لاتريده هو شخصيا؟.

وقد كانت العادة آنذاك لا تسمح للشباب أن يفاتحوا بعضهم بعضا فى امور زواجهم، كما كان الزواج عن حب من الاشياء النادرة جدا فى تلك الأيام، وغالبا ما كان الابوان يقومان باختيار العروس لابنتهما.

ولهذا قال كاظم: تحية ليس لها رأى فى مثل هذه الامور.

ولكن جمال تمسك بهذا المبدأ وقال:

- اسألها ولن يكون الأمر الا كما تريد هى.

وسألها والدها، وأجابت تحية وهى خافضة الرأى غير قادرة على النطق بكلمة نعم.. فقط اشارة من رأسها تفيد الايجاب بالموافقة.

تم إعلان الخطبة، واصبح الخطيبان قادرين على الجلوس معا، وخلال شهرين من إعلان الخطبة كان عرسهما، وكانت أول هدية قدمها جمال لتحية بعد زواجهما هى شراؤه «جرامافون» لانها كانت تحب الموسيقى، وكان جمال يصحبها لشراء الاسطوانات التى يسمعانها سويا فى المساء.

وقال لها جمال: ولا يهمك.. حينما تتوافر لدينا النقود سوف اشترى لك بيانو.

وهكذا.. ولأول مرة لمس جمال منذ وفاة والدته انه قد اصبح يملك بيتا، فكان بمجرد انتهاء عمله يسرع إلى زوجته حيث كانا قد أخذا شقة منفردة تحتوى على أربع غرف وتقع فى حى منشية البكرى، وكانت تحية تنزل بنفسها وبسعادة واضحة لشراء حاجيات منزلها وتقوم باعداد احب الاطباق لجمال.

واحيانا ما كان يأتى أقاربه لزيارته فى منزله فتقابلهم تحية بالترحاب وتبدى لهم كامل اهتمامها، ولهذا كان هؤلاء الأقارب يكثرون من زياراتهم لبيت جمال.. وكان عبدالحكيم عامر قد تزوج هو الاخر، وقام جمال بشراء سيارة صغيرة سوداء اللون ماركة «اوستن» وكانوا جميعا يذهبون للتجوال بالعربة بالمدينة فى المساء.

وسرعان ما توفى عبدالحميد كاظم وهو على يقين بأن ابنته تحية فى رفاء وسعادة مع هذا الضباط الشاب الدمث الاخلاق «جمال عبدالناصر».

وبعد ثلاثة اشهر من زواج جمال وتحية، اكتشفت تحية ان ثمة أشياء غير مفهومة تجرى حولها بالبيت وتدعو إلى الشك ومع ذلك لم توجه بشأنها اى سؤال، وظلت تؤدى مهامها كربة بيت مشغولة بيتها وزوجها إلى أن جاء الاطفال فتعاونت هى وجمال على تربيتهم.

ففى سنة ١٩٤٥ انجبت أولى أولادهما هدى، ثم جاءت منى، بعد ذلك هنأوا جمال بمولد نجله خالد، ثم عبدالحميد إلى أن جاء أصغر أولادهم عبدالحكيم الذى ولد بعد قيام الثورة فى عام ١٩٥٥.

بعد ذلك توقفا عن الانجاب رغم ان تحية لم تكن تعمل ولم يكن لها إلا بيتها وزوجها واولادها، ولكنها كانت دائمة الحرص على ان توفر الهدوءوالسكينة لبيتها من أجل زوجها، وهذا ما كان يحتاجه جمال بالضبط، فلكم كان منظره يوحى بالتعب وهو يعود إلى منزله قرب الفجر أحيانا.

●●●

فى مايو ١٩٤٨ ترقى عبدالناصر إلى رتبة «صاغ» وتقدم إلى كلية الاركان لنيل صفة اركان الحرب، وفى ذلك الوقت اخذت عصابات اليهود تصعد من استفزازاتها ضد عرب فلسطين وضد الدول العربية المحيطة بفلسطين.. إلى أن أعلن قيام دولة إسرائيل فى منتصف مايو ١٩٤٨.. وكانت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى.

دخلت مصر المعركة وهى غير مستعدة حيث ارسلت جيشا يتكون من عشرة آلاف جندى، كان امداده بالذخائر والمأكولات غير منضبط وكانت وسائل اتصاله غير فعالة وتضاربت اوامر قيادته ورغم ذلك استطاع الجيش المصرى أن يسيطر فى البداية على غزة ثم على بير سبع واخذ يزحف إلى أن التحم بفيلق شرق الاردن.

ولكن ذلك لم يدم طويلا، فقد علمت القيادة الإسرائيلية بمساعدة الجنرال جلوب بالخطط العربية وسرعان ما بدأ الجيش الإسرائيلى فى تنفيذ هجوم معاكس انتزع بواسطته الجزء الاكبر من الارض الفلسطينية.

فى هذا الوقت تلقى عبدالناصر امرا بالتوجه إلى الجبهة وفى احد الامسيات ظهر جمال فى صالة محطة السكة الحديد ليستقل القطار المتجه إلى العريش وهو يحمل فى يده حقيبة صغيرة رتبت اشياءها زوجته تحية التى بكت عند رحيله، شأنها فى ذلك شأن كل السيدات اللاتى يودعن أزواجهن حينما يتجهون الى ساحة القتال.

وفى عربة القطار تقابل عبدالناصر مع كل من عبدالحكيم عامر وزكريا محيى الدين، فهما الآخران متوجهان إلى الجبهة، ولكن إلى قطاع آخر أو وحدة أخرى، وجلس الضباط الثلاثة وامامهم خريطة، ولكن حتى تلك المعلومات الضرورية لكى يحددوا بها اماكن كتائبهم لم تكن كافية. وفعلا فشلوا فى تحقيق ذلك على ضوء ما تسلموه من أوامر ومعلومات.

فى مطلع النهار وصل القطار إلى محطة العريش، وخرج الركاب شبه نيام، ومن بينهم كثير من الضباط والجنود ونزلوا على الرصيف الرملى. لم يكن هناك أى شخص فى استقبال جمال أو عبدالحكيم عامر أو زكريا محيى الدين - واخيرا ظهرت عربة جيب قديمة ومترية.

- هنا أنا قد جئت بناء على أوامر لاستقبال سيادتكم!

قالها الملازم لجمال وهو يرفع يده بالتحية حيث أردف: ان كتيبتنا موجودة فى الفالوجا.

وسلم جمال على اصدقائه مودعا.. ثم دخل العربة وما هى إلا لحظات حتى اخذت السيارة تنهب الطريق وسط تلال صفراء.

ولاحظ جمال أن الضابط الذى جاء لاستقباله لم يحلق ذقنه أو شعره لمدة طويلة، وان ملابسه غير نظيفة وغير مطابقة للأصول العسكرية فى مثل هذا المجال. فلفت نظره لذلك.

اجاب الملازم:

- نحن نعيش فى أكثر الظروف صعبة ياسيدى:

واستطرد قائلا: المياه لاتكفى، والهجمات الإسرائيلية مستمرة والمراسلات البريدية مع

ذوينا منقطعة، والكثير منا لاينام بعض الليالى.

لذا أتيت لاستقبال سيادتك على هذا الحال، فنحن نسير طوال الليل فى طريق متعرج وموحش.

وسألة عبدالناصر:

- هل تناولت فطورك اذن؟

وأجاب الضابط:

- لا..

وكانت لدى جمال فى حقيبته مجموعة من السندويتشات التى أعدتها له تحية فأخرجها وأكلا سويا.

كان الوضع فى الفالوجا أسوأ مما حدثه الضابط عنه، فالجنود مرهقون فى المعارك المتواصلة والفالوجا تقع تحت حصار قاس.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

شظية قاتلة

شظية قاتلة فى معدة عبد الناصر.. كادت تقتله فى فلسطين..

طلبوا من عبد الناصر الاستسلام وعندما رفض.. طلبوا اتاحة الفرصة لهم حتى يتم اخلاء المصابين والقتلى من قواتهم

كتب فى يومياته عن حرب فلسطين.

قادتنا المنافقون يصدرون بلاغات كاذبة وللآن لم يتفهموا صفات العدو الذى نقاتله.. لا يحتفظ بالعهد.. كل همه هو تكبيدنا أى خسائر ممكنة

ارتبط تفكير عبدالناصر فى مصير مصر باحداث حرب فلسطين فكان دائم الرجوع إلى تجربة تلك الحرب وخير شاهد على ذلك ان كثيراً من صفحات كتابه «فلسفة الثورة» تنبض بتلك الحقيقة.

إن عبدالناصر ورفاقه فى الثورة لم ينسوا ابدا الكلمات التى قالها أحد ابطال هذه الحرب. وهو الفقيد أحمد عبدالعزيز الذى أكد لهم قبل استشهاده فى اغسطس سنة ١٩٤٨ «تذكروا جيدا أن هذه الحرب كان أولى أن نخوضها فى مصر ذاتها» وكان يقصد بذلك افلاس نظام الحكم الملكى وافلاسه ووجود الاستعمار البريطانى فى مصر.

وفى يوليو ١٩٤٨ أصيب عبدالناصر بشظية فى معدته. ونزف كثيرا من دمائه، واستمر فى حالة سيئة لمدة طويلة، ولكن بفضل بنيته القوية تغلب على هذه الصعوبات وسرعان ما استرد صحته وشفى نهائيا. وبعد اجازة قصير عاد مرة أخرى إلى جبهة القتال فى فلسطين.

وفى أكتوبر فى نفس العام. سقط ما يقرب من ثلث الجيش المصرى فى مصيدة بين الفالوجا وعراق المنشية، واصبح الموقف غير مبشر بالأمل.

وأعطت الحكومة المصرية أوامرها للقيادة العسكرية بضرورة ايقاف القتال وتسليم الفالوجا، ولكن هذه الاوامر اثارت عبدالناصر وبقية الضباط.

كان عبدالناصر موقنا أن الجنود فى كتيبته على استعداد للاستمرار فى مقاومة العدو، ولهذا قرر الا يطيع تلك الاوامر.

وجاء شهر ديسمبر وظهرت السحب الرمادية المنخفضة فوق الصحراء، وأخذ المطر ينزل رذاذاً خفيفا بدت معه الملابس القطنية خفيفة لاتقاوم البرد. كذلك الحال بالنسبة للمأكولات الموجودة فى مؤخرة الجيش، بدت هى الأخرى غير كافية، وفى هذه الظروف اخذت القوات الإسرائيلية تغير المرة تلو المرة على المواقع القريبة من عراق المنشية. ولكن القوات المصرية رغم ذلك تستسلم، وفى ٢٣ ديسمبر شنت القوات الاسرائيلية هجوما جديدا تمكنت خلاله من الاستيلاء على نصف الفالوجا، وأخذ الإسرائيليون يقتنصون القرىَ الواقعة تحت سيطرة القوات الإسرائيلية قرية وراء الأخرى.

عند ذلك، اتصل عبدالناصر عن طريق جهاز اللاسلكى بكتيبة زكريا محيى الدين وطلب منه تامينه بمعاونة المدفعية لمحاولة فك الحصار المضروب عليهم.

وأوضح له زكريا ان هذا سوف يضعهم تحت الضرب.

وأجابه عبدالناصر بأنه لابد من العمل، ولابد من الخسارة، وخلال بضع دقائق صنعت الطلقات اللامعة قوسا من النيران مر من فوق رؤوس المدافعين عن الفالوجا.

وأعطى عبدالناصر أوامره للكتيبة ببدء الهجوم وتكبد الإسرائيليون خسارة فادحة. وفى الصباح. ظهرت امام الفالوجا عربة إسرائيلية.

كانت العربة ترفع راية بيضاء.

ومن خلال مكبرات الصوت انطلق صوت:

- ضابط إسرائيلى يطلب مقابلة أحد الضباط المصريين.

- اوقفوا الضرب، قالها عبدالناصر وركب هو وضابطان ورقيب العربية الجيب.

- أنا ممثل قيادة هذه المنطقة، ومعى أوامر بأن اوضح لكم انكم محاصرون بصورة كاملة وستؤسرون حتما وعليكم ان تسلموا انفسكم.

نطقها الضابط الإسرائيلى بانجليزية واضحة وهو يرفع من نبرات صوته وبطل برأسه خارج العربة.

وأجابه عبدالناصر بلهجة حاسمة..

- نحن نعرف موقفنا جيداً، ولدينا وفى ايدينا السلاح وسوف نقاتل حتى النهاية.

انتقل الضابط الإسرائيلى إلى التخاطب باللغة العربية، وحينما اصر عبدالناصر على رفض الاستسلام بدأ الضابط الإسراذيلى يطلب فى لهجة هادئة اتاحة الفرصة حتى يتم للقوات الإسرائيلية اخلاء المصابين والقتلى من أرض المعركة إلى المؤخرة.

ولم يرفض عبدالناصر ذلك. وقد تكررت مثل هذه المقابلات فى بعض الحالات.

تأثر عبدالناصر ورفاقه بهزيمة الجيش المصرى فى فلسطين تأثرا بالغا، وادركوا العلاقة بين حصار الفالوجا وحصار الاستعمار والفساد لوطنهم، وبدأ عبدالناصر يحيى بدقة وتحديد ذلك الرباط الموجود بين الاستعمار والصهيونية العالمية.

وبعد عودته من الجبهة، قرأ عبدالناصر أحد أهم أعمال الصهيونى المعروف «فايتسمانش الملقب بأبى إسرائيل تحت عنوان «التجربة والخطأ» لقد أكد هذا الكتاب النتيجة التى وصل اليها جمال عبدالناصر.

حلت الخيبة المريرة بعد الهزيمة.. وأجبرتهم الهزيمة والخيانة على التأمل فى مستقبل الوطن. كانو جلوسهم فى الحفر فى صحراء فلسطين قد جعلهم يبحثون بعناء شديد عن المخرج من هذا المأزق الذى تعيش فيه شعوبهم.

بعد انتهاء حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، انتظر المصريون حدوث أى تغييرات فى البلاد، فقبل الحرب كانوا هناك الكثيرون من يرون ثمة بارقة أمل تتعلق بشخص الملك.

ولكن أصبح الآن الجميع على يقين من أن الملك يقضى الوقت خلف طاولة الروليت، وحينما منى الجيش المصرى بالهزيمة.

تكشفت الحقيقة..

ليس هناك من أمل الا بالقضاء على هذا النظام.

ففى حفر الصحراوات الفلسطينية، وتحت وابل الرصاص الإسرائيلى فهم جمال عبدالناصر ورفاقه ان الشعوب العربية مصيرها واحد. وأنها جميعا تقف إزاء عدو واحد الا وهو الاستعمار.

واستمر عبدالناصر صامدا فى الفالوجا حتى يناير ١٩٤٩.. إلى أن قرر توجيه ضربة مفاجئة للقوات الإسرائيلية بهدف فك الحصار عن قواته.

وكان الهجوم الناجح من الفالوجا.

استقبلت القاهرة المدافعين عن الفالوجا استقبال الابطال وبكت «تحية» من فيض السعادة حينما رأت زوجها القائد ونفضت عنه غبار الحرب. أما الاطفال، أطفال عبدالناصر الذين لاحظ نموهم.. فقد عاملوه على استحياء لبعض الوقت وترددوا ازاءه فى البداية.

لقد جاءت هذه الأيام بالأسى إلى عبدالناصر فبمناسبة انتهاء حرب فلسطين كان من المفروض أن يجرى عرضا عسكريا فى القاهرة تشترك فيه كتيبة الفالوجا التى أدت أعمالا بطولية.. ولكن الملك السابق فاروق منع الكتيبة من السير وهى تحمل السلاح الذى استولت عليه من العدو.

وأدان جنرالات المكاتب فى القاهرة ضباط ١٩٤٨ الشجعان.. اصبحوا مطعونين.. وأحس عبدالناصر ورفاقه بالرغبة فى الثأر.. وانهم اهينوا اهانات عميقة.

وما هى الا فترة قليلة حتى أحس عبدالناصر بأنه موضع اشتباه من قبل السلطة.

كان رئيس الوزراء إبراهيم عبدالهادى يتحسب منذ مدة من وجود علاقة وثيقة بين جماعة الاخوان المسلمين التى اضطلعت بأعمال قتال بطولية فى حرب فلسطين، وبأعمال ارهابية أيضا فى القاهرة ـ وبين منظمة سرية كان مقتنعا بأنها تعمل فى الجيش.

وفعلا.. فى مايو سنة ١٩٤٩، استدعى رئيس الوزراء إبراهيم عبدالهادى الصاغ «الرائد» جمال عبدالناصر إليه، لقد كان يظن ان الصاغ ناصر يعرف بعض افراد من «الضباط الاحرار» أعضاء تلك المنظمة السرية.

واتهم رئيس الوزراء عبدالناصر بالاتصال بأعضاء هذه المنظمة وبأنه على علاقة ببعض أعضائها من الضباط. ولكن عبدالناصر أجاب بأنه خلال الفترة الماضية ولمدة حوالى سنة كان على جبهة القتال فى فلسطين، ولهذا فليس بمقدروه أن يعلم أي شيء عن المنظمات التى تعمل فى القاهرة.

وسأله رئيس الوزراء:

ـ ولكنك كنت على معرفة بمحمود لبيب عضو منظمة الاخوان المسلمين وأجاب عبدالناصر:

ـ طبعا ـ وبدون خوف استطرد قائلا ـ كنا نقاتل سويا فى فلسطين.

وسأله إبراهيم عبدالهادى:

ـ ولكن من الذى عرفكما ببعضكما..؟

كان يظن أنه قد حاصر عبدالناصر بهذا السؤال واحكم عليه الحلقة.

وأجاب عبدالناصر:

ـ أنور السياجى.

ـ أين يسكن؟

ـ ان النقيب أنور السياجى قد استشهد فى الحرب ياسيدى الرئيس.

ولم يمتلك رئيس الوزراء أى وقائع يستطيع بهما أن يدلل على اتهامه لجمال عبدالناصر.

ولم تمض غير فترة وجيزة على تلك المقابلة، وعلى وجه التحديد فى نوفمبر حتى كانت القوات المسلحة تقرأ المنشور رقم واحد الذى كتبه جمال عبدالناصر وقال فيه مايلى:

«إننا نفكر ما هى العبرة التى يجب ان يستخلصها الوطن من حرب فلسطين وما هو الدرس الخطير الذى يجب ان يتلقنه أى شخص مسئول يبسطه امام الجيش وينبه افراده إليه.. الدرس الذى يستفيد من اعداد الشعب وتسليحه.. ان على الجميع واجب الحكومة والشعب عليهم ان يستخلصوا العبرة من تلك التجربة.ولكن ما العمل وليس هناك غيرنا من مصر قادر على ذلك.. السلطات تستمر فى عيشها وسط مظاهر الترف والسعادة تتمتع بالاعياد بل وتخلق المناسبات لها متناسية الشعب الذى يئن تحت وطأة الفقر والجوع والمرض».

وفى نهاية المنشور التوقيع باسم «الضباط الاحرار».. ومنذ ذلك التاريخ ظهرت المنشورات داخل القوات المسلحة واستمرت دون انقطاع.

●●●

فى منتصف الخمسينات.. وكرد فعل للاعتداء الإسرائيلى ضد مدينة غزة فى مساء ٢٨ فبراير ١٩٥٥ أقدم جمال عبدالناصر على نشر يومياته عن حرب فلسطين.. وعن الأيام التى قضاها فى تلك الحرب.. عند قيام الحرب. يقول عبدالناصر: ان مصر كانت تمتلك تسع كتائب عسكرية، دفعت بثلاث منها والحقتها برابعة وتساءل عبدالناصر: لماذا لم يحشد عدد أكبر من الكتائب؟

ولماذا لم يستدع الاحتياطى؟.. ولماذا يصف البلاغ الأول للحكومة المصرية الحرب بأنها حملة لتأديب العصابات الصهيونية؟

وحين يصل عبدالناصر إلى أرض المعركة، يلاحظ بمرارة أنه «لم يكن هناك من يهتم بنا، أو يرشدنا إلى ما يتعين علينا أن نصنعه».

ومنذ المعركة الأولى يسجل عبدالناصر بأسى بالغ «أنه كان بين الضحايا الذين تركتهم الكتيبة عند الدنجور ايمانا بالحرب التى تخوض غمارها»..

فالكتيبة المعنية اصيبت بخسائر فادحة، وفشلت فى احتلال مستعمرة الدنجور، فانسحبت الكتيبة لتسمع بلاغا رسميا يذاع من القاهرة يؤكد بأن عملية تطهير الدنجور تمت بنجاح.

وانتشرت بين الضباط والجنود المصريين فى فلسطين نغمتان الأولى: الافتقاد إلى احتشاد القوات، وغياب الاستعدادات فى الاسلحة والذخائر، واهمال الخطط والاستكشافات والمعلومات وثانى هاتين النغمتين هى: «اساطير من المبالغات كانت تؤلف حول قوة العدو العسكرية.. وسمعت واحدا من زملائنا «خاض معركة الدنجور» يروى كيف ان ابراجا تعمل بالكهرباء كانت تطلع إلى سطح الأرض وتطلق النار فى كل اتجاه ثم تهبط تحت الأرض. بالكهرباء أيضا.

كان عبدالناصر كأركان حرب للكتيبة السادسة، يشعر بالحيرة والضجر الذى تمكن من القيادة العليا للقوات المصرية فى فلسطين.

ويعدد عبدالناصر السلبيات والاخطاء ويرصد الثغرات:

«.. كنت اشعر ان هناك عملية بعثرة لقواتنا، فنحن نتقدم على السهل الساحلى ونترك

المستعمرات المحصنة وراء ظهرنا تهدد جناحنا الشرقى وخطوط مواصلاتنا.. لم يكن لدى الجنود المتقدمين تعيينات طوارىء يعتمدون عليها فى المراكز الامامية، حيث لاتستطيع الوجبات الساخنة ان تصل إليهم.. لقد كان هم قياداتنا ان تحتل أكبر مساحة من الأرض.. وكانت النتيجة أن الكتائب الاربع توزعت على خطوط طويلة، واصبحت قواتنا المبعثرة لا هم لها الا حماية نفسها ومواصلاتها، ولم يعد هناك تحت تصرف القيادة احتياطى متحرك، تستطيع ان توجهه إلى ضرب العدو، واصبح قائد الجيش المحارب.. قائدا بلا جنود، أو هو بالكثير يحكم مجموعة من نقط الحراسة المبعثرة على جبهة واسعة.. فقدنا تماما القدرة على المبادأة، واسلمنا للعدو طائعين مختارين.. وكان لهذا الامر اثره المدمر على الروح المعنوية.. وقواتنا المبعثرة يقل تركيزها قلما اقتربت من الخط الأول لملاقاة العدو.. وكانت النتيجة ان العدو نجح فى تثبيتها فيها، واحتكر لنفسه حق الحركة وحشد القوات والهجوم علينا من حيث يريد».

ـ.. أى معركة هذه.. هذه التى يستهلك فيها جنود المشاه بهذه الطريقة المروعة فى هجمات نهارية مكشوفة، واجساد عارية، لاتحميها قوات مدرعة امام تحصينات قوية، ومدافع ماكينة متخفزة فى ايد مدربة، صحيح ان موجات بشأننا لم تتوقف كانت موجة منهم تسقط امام النار فتجىء موجة بعدها غير هيابة ولا خائفة.. ولكن، هل كنا نسوق جنودنا إلى معركة، أم كنا ندفع بهم فى غير رحمة، إلى مجزرة».

ـ «عاصمتنا التى تتحكم فى امرنا، وتوجهنا إلى حيث تريد وارادتها اليوم حرب ولاحرب.. كان قائدنا فى الميدان يخضع من القاهرة لتوجيهات هى آخرما تقتضيه احتمالات الميدان.. فى نيويورك مجلس الامن، حيث مجموعة من احد عشر رجلا قرروا، فيما بينهم، ان تقف المعركة التى نعيش فيها، وعلينا ان نطيع.. كان حالنا قبل الهدنة حرباً ولا حرب، وبعد ان عقدت الهدنة تطور حالنا إلى سلام بغير سلام.. وظهر التراضى ـ نتيجة لهذا كله على مواقعنا».

ـ «العدو لم يأخذ الهدنة جدا، لقد كانت بالنسبة له فرصة للتعزيز.. ومع ذلك لم يبد فى قيادتنا مايدل على انها وعت المعنى الحقيقى لهذا الذى يجرى امامنا.. كان ابرز ما اهتمت به قيادتنا واسهبت فى وصف تفاصيله، هو كيف اقتحم الجنود مستعمرات العدو

وهم يهتفون بحياة جلالة القائد الأعلى للجيش، وهو ما لم يحدث بالقطع.

- «لم يكن الجنود المصريون يعرفون أنهم يقاتلون عدوا، بل كانوا يجهلون اين هم، وهذا جندى مصرى يؤكد لعبد الناصر ان القوات المصرية فى فلسطين انما تجرى مناورة فى الربيكى «منطقة صحراوية بين القاهرة السويس»!

- «كان اليقين الكامل ينقص كل ما كان يدبر ويرسم من خطط. ومن هنا اختفت روح القتال الحقيقية».

- «بعد انتهاء الهدنة الأولى طلبت القيادة إلى القوات المصرية احتلال مواقع كانت خالية تماما قبل الهدنة واحتلتها القوات الإسرائيلية.. أى أن القيادة المصرية لم تفطن إلى أهمية هذه المواقع الا بعد ان شغلتها القوات الإسرائيلية وحصنتها.

- «قالوا لنا ادخلوا وسط العدو لكى تحاصروه ولكن كيف نحاصره وهو يحيط بنا من كل جانب، لقد حدث ما كان يجب ان يحدث، حينما اصبحنا وسط قوات العدو فاصبحت قواته التى تحاصرنا وليس نحن الذين نحاصر قواته».

- «لم تكن القاهرة عاصمة بلد يحارب فى معركة حياة أو موت كان كل شىء فيها كما تعودت أن اراه.. سلاما هادئا.. يكاد يقضى من النعاس فى بعض الاحيان».

- «كان الدفاع غريبا جدا، فهو أشبه بالنقاط الخارجية، لايوجد احتياط مطلقا، من الفصيلة إلى اللواء.. الجماعات على خط واحد.. مواجهة الكنيسة حوالى ٤ كيلو مترات..»

- «مع كل هذا فإن القيادة المصرية أخذتها العزة بالاثم، وتصرفت مع الضباط والجنود بمنتهى الوقاحة، واتهمتهم بالجبن..»

- «حدث أن مر القائد العام للقوات المصرية فى فلسطين على الخط الدفاعى الذى لم يمر عليه مطلقاً قبل الآن إلا مع الملك، يمر عليه الآن بعد انتهاء القتال. كان فى منتهى السماجة والغرور والجهل، كل ملاحظاته تقريباً غلط.. الرجل نسى نفسه وركبه الغرور. كان بيقول «مبادىء مائة سنة هدمتوها» ويتكلم فى النقط الهايفة، ولم يرتد ثوب القائد

الذى يتكلم جنود بعد معارك أصيبو فيها بخساتر وصمدوا ..».

ـ «اوضاع الصيانة والاسعاف والعلاج كانت متدهورة».

ـ «لذا كان طبيعيا ان تنجح القوات فى تقطيع اوصال الجيش المصرى، وعزله فى جيوب متفرقة، وقطع خطوط مواصلاته، أما قيادتنا فعاجزة كل العجز.. لايوجد عسكرى واحد احتياط ليستعيدوا به الموقف، ففكروا فى شىء واحد، وهو الهرب والنجاة بأنفسهم.. قادتنا المنافقون يصدرون بلاغات كاذبة.. وللآن لم يتفهموا صفات العدو الذى نقاتله، لايحتفظ بالعهد، كل غرضه هو تكبيدنا أى خسائر ممكنة مادام الحكام غير موجودين، اما نحن فلازلنا نمحك فى ايقاف القتال حتى يبدأ اليهود فى السيطرة على الموقف.

وبعد .. فيمكننا تعميم هذه السلبيات على كل جيش عربى قاتل فى فلسطين فى العام ١٩٤٨ وهى ـ فى الوقت نفسه ـ دروس مستفادة وخبرات ثمينة اشك فى اننا انتفعنا بالحد الادنى منها، حتى يومنا هذا.

.. أوضح عبدالناصر فى يومياته كيف ان حرب فلسطين هتكت ماتبقى من حقيقة النظام الملكى المصرى فى أعين الشعب المصرى.. وفى عينى عبدالناصر نفسه، كما نجحت حرب فلسطين فى اضفاء المسحة القومية على الفكر الوطنى لعبد الناصر.. واخيرا .. ففى فلسطين عززت بذور ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ..

وهذا هو الانتصار الذى خرج به جمال عبدالناصر والشعب المصرى.. من احشاء الهزيمة.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

من هنا جاء..

بين تلك الجدران السوداء.. بين أعواد الحطب الجاف بين كل هذا الفقر.. كان لابد ان يولد ثائر تخترق أنظاره تلك الحواجز لتصنع التغيير.

عندما قال عبدالناصر:

«آدى عم رئيس الجمهورية»..

الفلاحون، والعمال.. اقرباء جمال عبدالناصر..

ماهى تلك القرية الصغيرة التى تصارع الفقر.. وجاء من صلبها جمال عبدالناصر؟

التاريخ.. يناير ١٩٧١

صعب أن تميز بيتهم عن بقية البيوت لكل مبنى بطين.

قرية صغيرة، ٢٠٠٠٠ فدان، ٥ آلاف نسمة، على مسيرة ٣ كيلو مترات شمال شرق مدينة أسيوط.

البيت متواضع قديم، بناه الجد «حسين» منذ ١٢٠ سنة واعاد الاب «عبدالناصر» تجديده سنة ١٩١٤.صعب أن تعرف اقارب جمال عبدالناصر وسط بقية الفلاحين.. الكل يرتدى «الجلباب الازرق».. الكل اقدامه محملة بتراب القرية..

والطريق إلى البيت «ضيق» مثل كل الطرق فى القرية المصرية .. البيوت متشابهة تميل على بعضها من الارهاق.. والطين هو القاسم المشترك..

أمام واحد من تلك البيوت أشاروا لى بكلمة واحد.. هنا..

البيت من الداخل لايزيد عن مربع صغير تمثل المصطبة الطين نصفه.. ثم حوش بنصف سقف تتدلى منه اعواد الحطب.. فى احد اركانه سرير بأربعة اعمدة سوداء يتدلى من حرفه بطانية يطل القدم من كل قطعة فيها.. فى شمال «الحوش» فتحة هى الطريق إلى الفرن.

الحوش مفروش بالحصر والاكلمة الصوف

أنا الآن حيث كان يعيش جمال عبدالناصر فترة من طفولته.. عندما كان والده موظفا فى مكتب بريد أسيوط.. بين تلك الجدران السوداء.. بين أعواد الحطب الجاف بين كل هذا الفقر كان لابد أن يولد ثائر تخترق انظاره تلك الحواجز لتصنع التغيير..

لكن..

تغيير من أجل من؟

ذلك هو السؤال..

أبدا.. لم يكن من أجل فرد.. وهو أيضا لم يكن من أجل اثراء عائلة.

و...

تلك هى عائلته التى تعيش فى بنى مر، العم.. طه حسين خليل.. مزارع فى ثلاثة أفدنة ملك..

العم الثانى.. الحاج عطية حسين خليل.. مزارع فى فدانين ايجار.

أولاد العم.. (العصب) كما يقولون.

الاقارب والاحباء.. كلهم موظفون لايزيد مرتب الواحد منهم عن العشرين جنيها.

قال عمه (الحاج عطية) هذه الرواية: فى شهر رمضان عام ١٩٦٩.. رحت زرته فى منشية البكرى.. قلت للحرس.. الحاج عبدالناصر موجود؟... طبعا الحرس استغرب.. قلت كارت أهه ؟ دخلونى له ان كان موجود اقابله.. أول ما وصل له الكارت قابلنى وسلم على قوى.. ونده للحرس بتاعه وقاله: (ادى عم رئيس الجمهورية).

الاحزان.. الذكريات.. الاحساس بالعزة والفخر.. كان عودا آخر عندما قابله للمرة الأخيرة.. حسين عطية حسين.. ابن العم مباشرة.. كان طالب بمدرسة ناصر الثانوية فى السنة الثانية.. حسين يجر «الذكريات.. يتألم.. يحكى».

السنة اللى مات فيها.. كان عندى ١٨ سنة.. رحت عيدت عليه مع أبويا.. كنا فى عيد الفطر..

سألنى

- انت عايز تدخل كلية إيه؟

- قلت الحربية

- قال ليه؟

- قلت علشان اكمل الرسالة.

- قال: اجدعن وكافح علشان تدخل الكلية بمجهودك مش علشان انك ابن عم رئيس الجمهورية.

- قلت لابن عمى.

- أنا بذاكر على لمبة جاز

- قال: أنا ذاكرت على لمبة جاز

- قلت : انا باروح المدرسة ماشى من بنى مر لأسيوط.

- وقال: أنا رحت المدرسة ماشى.. كافح.. واتجدعن.

فى القرية.. تروى عنه الحكايات الكثيرة.. والذكريات الكثيرة لأبناء القرية عنه.

فى القرية.. يذكرون تلك النبوءة التى تحققت.. ففى صيف ١٩٣٧ كان الحاج حسين سلطان جد الزعيم جالسا على الترعة التى مازالت باقية حتى الآن مع عمدة القرية وهو يفاخر بحفيدة الضابط المتخرج حديثا وهو يقول (تصور ياعمدة أن ولد ابنى جمال سوف يكون حاجة كبيرة).

فرد عليه العمدة متهكما: «يعنى ياحج حايستوزر - يصبح وزيراً - ولا يعنى حيقعد مكان فاروق».

.. وتحققت نبوءة الرجل الطيب المؤمن الملهم بعد خمسة عشر عاما ..!!

●●●

مقاهى القرية عبارة عن بوص ومصاطب متناثرة يجلس عليها الفلاحون.. وسكان القرية تتراوح ملكيتهم بين فدان وثلاثة افدنة ماعدا شخصين يملك كل منهما خمسين فدانا وستة آخرون ملكيتهم عشرون فداناً لكل واحد منهم..

والخدمات فى القرية.. امتداد طبيعى لمدينة أسيوط.. ومستوى الخدمات التى تقدم لبنى مر مثل سائر الخدمات التى تقدم لألاف القرى المصرية بلاتمييز.

احساس عبدالناصر بما تعانيه الاسر الفقيرة.. احساسه - بالملايين من العمال والفلاحين من شعب مصر لم يجعله يميز قريته عن باقى قرى مصر.. بدليل رفضه لمشروع القرية النموذجية التى وضع حجر الاساس لها فى عام ١٩٦١.. وعلل رفضه بأن هناك قرى احق من بنى مر.

يحكون.. فى عام ٩٦٤.. اراد محافظ أسيوط أن يجامل قرية جمال عبدالناصر.. فأدخل بها الكهرباء.. وبلغ ذلك علم عبدالناصر فنهره قائلا: هل الكهرباء وصلت ابنوب.. فهى أحق.

وأبنوب هذه هى المركز الذى تتبع له قرية بنى مر.

وقد جمع عبدالناصر فى شخصيته كل عناصر الشخصية المصرية التى لم تشارك فى تكوينها أى فكرة عنصرية كما يقول (جورج فوشيه) فى مولفه (عبدالناصر وصحبه)..

ويرى فوشيه أن عبدالناصر فيه من العربية كما فيه من الفرعونية.. بحيث كان تعبيرا عن مصر كلها.. كما كان تعبيرا عن امته العربية.

فقد نزحت إلى بنى مر مجموعات قبلية أثناء الفتح العربى لمصر.. وتقول الروايات التاريخية أن اصل القرية يرجع إلى قبيلتى (لحم وخذام).. وابلغ مافى هذه القرية عملية الانصهار البشرى التى تمت بين العرب المسلمين والاقباط سكان القرية الاصليين وتزاوجهم فى هذه الوحدة الوطنية التى تعد تجسيداً للمجتمع المصرى كله فى تجانسه ووحدته.

القرية بسيطة.. صغيرة.. يعرفون فيها الغرباء بسهولة.. ويبدون له أيدى الترحاب بسهولة أيضاً.. أدقق النظر فى الناس.. وأنظر فى كل شىء.. واتشمم رائحته.. واتلذذ بسماع الروايات والحكايات عن الابن العظيم للقرية الصغيرة.. قرية تبحث عنها عبثاً ودون جدوى على أطلس مصر.. ولاتجدها.. وعرفها العالم كله بابنها العظيم.. جمال عبد الناصر.

عبدالمجيد مصطفى كان ناظرا للمدرسة الابتدائية فى القرية يقول: لنا ذكريات معه وهو ضابط صغير بمنقباد... كان موضع فخر لنا.. فقد كان الضباط فى هذا الوقت بين

الاسر الكبيرة فقط.. ونحن نفخر بأن عبدالناصر من بنى مر.. رغم أن الخدمات لم تصل للقرية إلا بعد القرى الأخرى.. ويضيفه أن هناك تغيير نفسياً واجتماعياً حدث فى القرية وشمل الناس بالاضافة إلى احساسنا بأن جمال الذى عرفته الدنيا كلها من هنا..

وانحياز عبدالناصر للفقراء جعله كما يقول محود عثمان المدرس والتى تربطه بعبد الناصر قرابة ـ وهو ابن خالة جده الحاج حسين ـ قد أسدى معروفا للطبقة الفقيرة التى لم تستطع التعليم.. فمطالب التعليم كانت غالية والمصاريف على أيامنا كانت ٤٥ جنيها للابتدائى ولولا جمال عبدالناصر لكان من الصعب تعليم أولادنا.. وادراك عبدالناصر لهذا تجلى فى دخوله الكلية الحربية.

فقد كان عمه خليل حسين.. (باشكاتب) فى الاوقاف وله صله بكبراء الناس فى مصر، وادخرها خليل لدخول ابن أخيه الحربية واستطاع القدر ومعارف خليل عم عبدالناصر وبشجاعة الشاب الصغير وطموحه أن يكسروا حدة الخمسين فدانا التى كانت شرطا لدخول الكلية الحربية وعندما سألوه فى الكلية أنت ابن مين؟.. قال لهم أبن عبدالناصر حسين.. وعندكم كام فدان؟ قال أبى وكيل بوسته.. فقيل له هى الكلية فضيت لدخول أولاد وكلاء البوستة؟

ويحكى محمود عثمان عن جمال عبدالناصر.. عن عزلة وتفكير الصغير جمال.. عن الضابط الصغير أبو دبورة واحدة.

فى سنة ١٩٣٨ ـ يحكى محمود ـ دخلت بيت ابن خالتى الحاج حسين سلطان، فوجدت ضابطا بدبورةواحدة يجلس على حرام مفرود على الأرض وقد كان جده رجلا مؤمنا ملهماً.. كان يحكى دائما ويتنبأ بأن جمال حيبقى حاجة كبيرة.

ويروى (محمود عن الحلم الذى رواه له جد جمال عبدالناصر وهو جالس على كرسى عالٍ والناس حوله.. وطلب الرجل الطيب تفسير للحلم.. فقيل له.. ان الانسان عندما يكون متشبعا بشخص وصاحبا له يراه كثيرا.. وكانت رؤية الرجل حقيقية وصادقة.

عبدالناصر الذى آمن بالفلاحين والعمال، والذى قال فى زيارة له لأسيوط عام ١٩٦٤ (أنا جمال عبدالناصر أفخر بأن عائلتى لاتزال فى بنى مر مثلكم.. تعمل وتزرع وقلع من

أجل عزة هذا الوطن وحريته.. انى افخر دائما بأنى واحد من أهالى بنى مر وأنا اقول هذا لأقول أن جمال عبدالناصر نشأ من عائلة فقيرة واعادهكم أن جمال عبدالناصر سيستمر حتى يموت فقيرا فى هذا الوطن..

ابن عمه حسن محمد خليل يعمل فراشا بالمدرسة الابتدائية.. خرج من المدرسة عام ١٩٥٩ وهو تلميذ فى السادسة الابتدائية.. يقول إن حالته الاجتماعية لم تسمح له بمواصلة التعليم فليس عندنا أرض.. ولم يستغل عبدالناصر موقفه كرئيس دولة.. ولم يكن يفضل واحدا على الاخر لم اكتب له رسائل.. وكلنا مدينون له بأشياء كثيرة.. فالكل لايمكن أن يفصل الآن.. وهى حماية وأمان لكل فرد فى الدولة..

ويؤكد (الشيخ ثابت) مقرىء القرية.. ان عبدالناصر لم يكن رجلا عاديا.. بل فيه نور من نور الاسلام والخوف من الله جعله يضع كل شىء فى حدوده.. وتأكيد عبدالناصر على أن الكرسى الذى يجلس عليه ليس ملكه وانما ملك مصر كلها.

(يا أهل بنى مر. ليكن معلوما لكم.. أن جمال عبدالناصر ابن الرجل الفقير هو بعينه لم يتغير).

قالها فى زيارة له لبنى مر عام ١٩٥٤..

بنى مر القرية..

لاتزيد مساحتها عن ألفى فدان..

بنى مر القرية كأية قرية فى ريف مصر.. لم يدخلها النور إلا بعدأن دخل مركز أبنوب كله.. فيها مدرستان ابتدائيتان إحداهما مشتركة.. والبنات لم يكن يعرفن باب المدرسة منذ السنة السادسة الابتدائية.. عندما مات عبدالناصر.. فتاة واحدة من بنى مر كلها كانت استطاعت أن تواصل تعليمها حتى المرحلة الثانوية ومعروفة بالاسم وهى سميرة عبدالمجيد مصطفى وكانت تذهب يوميا إلى أسيوط.. وخمس بنات أخريات كن فى مدرسة بنى مر الاعدادية.. والمدرسة الاعدادية فى بنى مر كانت لمائتى طالب وطالبة لاتخدم بنى مر وحدها ولكن لأربع قرى أخرى.

مصطفى على عبدالعال خليل.. ابن عم جمال عبدالناصر.. يعمل تمرجيا بالوحدة الصحية بالقرية.. يقول:

اتعلمت لغاية سنة خامسة ونظرا للظروف الاجتماعية فلم أكمل تعليمى والرئيس كان ينظر للكل على أنهم واحد. كنت احبه لأنه وماشى بالحق أرسلت له من أجل أن اشتغل فى وظيفة كويسة.. فلم يرد.. وكنت أنا اللى غلطان طبعا.

كنت أشعر بفرحة كلما اسمع صوته.. كان جسمى بيروق وابقى فرحان.

فى المدرسة الابتدائية فى القرية.. فى الصف الثالث أسأل التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والثامنة من عبدالناصر.. عبدالناصر الذى لم يعرفوا الا حكايات يسمر بها.. ويتعزى بها.. الأباء والجدود والأخوة والكبار.. هؤلاء الذين لم يروه ولم يعرفون إلا صور فى الصحف والمجلات القديمة.. وفى براويز تزدان بها جدران المنازل والجدران البوص.. فى بنى مر الفقيرة..

أسألهم عن عبدالناصر.. يقولون نعرفه لانه من بلدنا.. أسألهم مين بيحبه.. فيجيب الجميع بصوت واحد.. كلنا بنحبه.. فأطلب منه أن يتحدثوا بنظام فيقوم سيف عبدالستار ابن فلاح فقير له فدان بالايجار وينادونه ناصر فأقول له: هل تفضل اسم سيف أم اسم ناصر؟

فيقول ابن الثمانى سنوات.. أفضل اسم ناصر.. لانه حرر بنى مر وطلع الانجليز وبنى الوحدة المجمعة والمدرسة.. واحبه لأنه من بلدنا.

كلهم يحبونه.. لانه بنى مر.. مثل كل مصر.. مزروع فى وجدانها وقلبها حب عبدالناصر..

●●●

الناس فى بنى مر انصاف متعلمين.. الموظفون كلهم بشهادات متوسطة - أصحاب الشهادات العالية لاتزيد نسبتهم عن ٢ أو ٣ فى الالف.

يوم السوق فى بنى مر هو يوم الاثنين، لكن الناس هناك لايرون اللحوم الا يوم واحد فقط فى الأسبوع.. يوم الخميس.

بنى مر القرية كانت تصارع الفقر.. وعندما أصبح ابنها رئيسا للجمهورية طالبت بالامتيازات.. لكن جاءها الرد صريحا..

الامتيازات للريف كله.. وبنى مر جزء من هذا الريف.. وليس لها امتيازات خاصة على غيرها.

قالوا له: السياح والصحفيون يزورون القرية والبيت لابد من تغييره؟ وجاء الرد مرة أخرى..

العظمة أن يرونى كما أنا.. سأبقى ماحييت ابن بنى مر.. ابن الصعيد.

بنى مر الاسم ينتمى فى الاصل إلى قبيلة عربية جاءت واستوطنت فكانت إحدى قرى مصر التى ولدت زعيما عربيا.

فى المندرة.. مندرة البيت.. اربع كنبات.. وعلى الحوائط صور لعبد الناصر.. بعضها له وهو فى بنى مر عندما زارها فى أول زيارة رسمية بعد الثورة.

وبجوارها صورة أخرى وهو ضابط يشرب من قلة فخار.. وأخرى صورة حديثة.. وكل هذه الصورة مجللة بالسواد.. لازالت مجللة بالسواد.

الحزن يشتت الأفكار.. يشتت الذكريات.. فتأتى وكأنها شيء منفصل بعضه عن بعض وان كانت حقيقته غير ذلك..

كان عبدالناصر فى منقباد، ارسل والده خطابا إلى جده قال له: سأسافر واسأل عليه؟ وسافر الجد إلى هناك وقابله وبعد كده كان بييجى كل يوم جمعة مع أصحابه.

وفى مرة كان عبدالناصر ماشى وكان جده نظرا لكبر سنه يمشى ببطء فتنبه عبدالناصر إلى انه يسير أمام جده.. فتوقف وانتظر حتى تقدم الجد وسار خلفه.

عندما كان عبدالناصر شابا.. كان يقرأ (عودة الروح) يومها كانت تقفز عيونه فوق السطور وهو لايدرى أنه ذلك الرجل ذو الجلباب الازرق الذى يبنى هرما رابعا..

●●●

الحزن فى بنى مر له طعم خاص له لو خاص.. إنه علاقة خاصة لقرية تشعر أنها تحملت الكثير حتى تقدم ابنها لمصر كلها.. بل للعالم كله.

وعندما مات.. كانت بكائيات بنى مر على فلذة كبدها.. وكبد مصر

ياللى عليك الشرق يبكى

يالى عليك الغرب ناح

ياللى عليك الشعب يبكى

من العيشة للصباح

كل الامارة روحت

واحنا ماجاش اميرنا

كل القناديل نورت

واحنا انطفا قنديلنا

فوق قصر القبة طير بريش أخضر

تزعق تقول خللى ملك الملوك يحضر

اسم الله عليك.. اسم الله عليك

الشعب كله حزين عليك.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

أول من علمه حرفا !!..

تأكل ايه ياجمال..؟

وكانت الاجاب واحدة تقريبا.. «مخ الشيخ»..

كان جمال طفلا صغيرا.. لكنه ليس ككل الأطفال..

استاذكم السابق.. يطلب المقابلة للمصافحة..

ـ أنا بابى مفتوح لك فى أى وقت وكل شىء..

بينه وبين كلٍ منا شىء خاص.. له مذاق خاص.. وطعم خاص.. شىء غير تلك العموميات التى تشترك فيها جميعا.. هكذا نحن الذين عرفنا. بعد ان صار زعيما.

فكيف كان الشىء الخاص بين جمال عبدالناصر وبين ذلك الرجل الذى كان أول من علمه حروف الهجاء.

الأستاذ محمد عبدالمنعم جامع.. مدرس مدرسة الخطاطبة الأولية كان فى مدرسة القرية أول من علم الطفل جمال عبدالناصر حسين حروف الهجاء.

فى القاهرة.. كان محمد عبدالمنعم جامع. مدرسا للتلميذ جمال عبدالناصر تلميذ مدرسة النحايش الابتدائية.. ثم تلميذ مدرسة النهضة الثانوية.. واحد سكان حى الحسين.. وظل مدرسا له حتى انتهاء مرحلة البكالوريا.. «كنت بأديله ثلاثة دروس خصوصية فى الأسبوع»..

فى حديث بين الأصدقاء.. يسمع المدرس ربما لأول مرة عن «الفالوجا».. والحصار وقصص البطولة التى قام بها المصريون هناك ويفاجأ بأن تلميذه جمال عبدالناصر ـ أحد ابطالها.. ده تلميذى.. جمال ده كان تلميذى».

التلميذ يصبح معلم الجيل.. ليس جيله فقط.. لكنه يحاول أن يرسم الطريق من سبقوه.. يرسل جمال عبدالناصر لأستاذه خطابا يرسم له نقطا على الطريق..

«حمدا لله على كريم رعايته وشكرا لكم على نبيل شعوركم وأوصيكم بالمزيد من

الرعاية لابنائنا الطلبة وبث روح الفضيلة والوطنية فى نفوسهم لينشئوا نشأة طيبة فينتفع بيهم الوطن ويكونوا عدته ومستقبله الزاهر».

«الله اكبر والعزة لمصر»

بكباشى اركان الحرب

«جمال عبدالناصر»

رئيس مجلس الوزراء

●●●

محمد عبدالمنعم جامع ـ لم يكن يختلف كثيرا فى مظهره عن «الشيخ سيد» الذى تعود أن يدخل بيوتنا فى طفولتنا ليعلمنا «الصرف والنحو»..

الاستاذ محمد جامع، تعلم فى الازهر.. وحفظ القرآن ثم تخرج من مدرسة المعلمين وكان ترتيبه الثانى على القطر كله، فكانت الاسكندرية نصيبه «فى أول التعيين» وظل مدرسا فى مدرسة جابر الزيتون بالقبارى لمدة ثلاث سنوات ثم نقل بعدها إلى مدرسة الخطاطبة وهى تابعة لمصلحة السكة الحديد ولاتعلم إلا موظفى المصلحة.. وهناك.. التقى «بعبد الناصر أفندى حسين».. «كنت مدرسا لفصلين.. أولى وثانية أولية.. كان التعليم الأولى حاجة ثانية.. كان التلميذ فيه يقدر يكتب الجواب..»

أستاذى الكريم.

أحييكم أطيب تحية وأدعو لكم بالصحة والتوفيق وبعد..

وصلنى خطابكم الكريم واسعدنى جدا أن أتلقى من أستاذى العظيم بعد هذه الفترة الطويلة خطابا يحوى ذكرى من أعز الذكريات وفترة من الزمن هى أحلى أيام العمر.

اننى يا أستاذى لم أفعل سوى ما يحتمه على واجب كجندى مخلص من جنود هذا الوطن،وأننى أرجو أن يطول بى وبكم العمر حتى نرى مصر مرفوعة الرأس عالية القدر وأن نرى المصرى يعتز بمصريته ويفخر بقوميته.

«جمال عبدالناصر»

●●●

كـان ذلك بعد الثورة.. ولم يكن مجند جـامع يتـصور أن قـائدها مـازال يتذكـر أيام الخطاطبة.. لا.. ليست الخطاطبة فقط.. ولكن أيام القاهرة أيضا..

«كنت منقـولاً من الإسكندرية.. ولم يكن عندى عـفش. ولابيت ولا أى شىء.. لكن عبدالناصـر أفندى حسين عزمنى فى بيته.. عشت معه شهرا كاملا.. وكنت فردا من العائلة.. كان أيامها جمال صغيـر.. ست سنين تقريبا أو خمسة وكان كل ما نيجى نأكل يسأله والده.. تأكل أيه ياجمال..؟ وكانت الاجابة واحدة تقريبا «مخ الشيخ»..

زادت العـلاقـة بيننا بعـد أن أحـضـرت زوجـتى ولـم تكن تذهب لزياة أحـد إلا بيت «عبدالناصر أفندى».

كان جمال عبدالناصر صغيرا.. لكنه كان ككل الأطفال.

فى أحد الأيام زارنا أحد مفتشى وزارة المعارف.. ووجه سؤالا إلى الأطفال.. وأعلن عن مكافأة لمن يعرف الاجابة قدرها عشرون قرشا.. كان سؤال المفتش عبارة عن حدوتة.

لو تهنا فى الصحـراء.. وكان مع أحـدهم بوصلة.. وطلب منا عشـرين قـرشـا عن كل جبهة أصلية نرشده إليها.. فكم نعطيه ثمنا لمعرفة الجهات الأربع..؟

لكن جمال عبدالناصر قال:عطية عشرين قرشا فقط.. وعندما سأل لماذا...؟

قـال: لانى لو عـرفت جـهـة واحدة لاستطعت أن أعرف بنفسى بقـيـة الجـهـات دون مساعدته.. فلماذا أدفع ثمانين قرشا..!!؟

كان الطفل يتعرف بذكاء.. وينضج.. كان له تصرفات الكبار.

لكن هذه الرجولة المبكرة واجهت أولى الصدمات بوفاة أمه.. وكـان الحـزن على الأم أكبر دافع له لمعرفة المجهول..

بعد وفاة الأم، حاول الأب أن يسرى عن طفله، فاشترى له بندقية صيد.. وحـاول ان يشغله بتعلم الصيد.. فكان يصطاد الطيور على الطاير.. وكان يحكم النشان..

أنا كنت مـدرس أولى.. لكن كـشكول.. دفـعنى فى ذلك تعليمى الأزهرى.. كنت فى العربى متين جدا.. وفى يوم وصلنى خطاب من عبدالناصر أفندى قال لى فيه أن جمال

جاى مصر عند عمه خليل حسين فى سيدنا الحسين وطلب منى أزوره.. وأعطى لى دروسا خصوصية ثلاثة أيام فى الأسبوع.. وفعلا نفذت هذا الطلب وكنت اذاكر له العربى والحساب حتى البكالوريا..!

وتخرج الطالب جمال عبدالناصر حسين. وانقطعت أخباره فترة إلى أن سمع المدرس عنه من خلال ما كان يروى عن الفالوجا.. إلى أن كان يوما عندما قابل المدرس أحد الضباط.. الذى فاجأة بقوله:

تلميذ حيبقى رئيس جمهورية.. ولم يكن محمد جامع يومها يدرى ما حقيقة هذا الكلام.. إلى أن عرف بالثورة.. وكان أول لقاء بينهما فى عام ١٩٥٣..

كنت سكرتير هيئة التحرير فى المنيل ودعيت لاجتماع لكل سكرتيرى هيئة التحرير مع السيد جمال عبدالناصر.. وكان الاجتماع فى عابدين.. وقبل انعقاد الاجتماع حاولت مقابلته وطبعا الحرس حاول يمنعنى.. فكتبت له ورقة قلت فيها:

«استاذكم السابق محمد جامع.. يطلب المقابلة للمصافحة»

الرئيس ضحك قوى لما قرى الورقة.. وقابلنى وقام اخذنى بالحضن وقال لى.. «أنا بابى مفتوح لك فى أى وقت ولكل شىء».

وفعلا كان بابه دائما مفتوحا لى..

«عندما ماتت ابنة عمى وكان ذلك فى عام ١٩٥٦.. حضر الرئيس بنفسه العزاء.. وظل معنا ساعتين».

عندما مرضت بنزيف فى المخ.. قال الاطباء «مافيش أمل» أصابنى شلل مفاجىء وعشت فى غيبوبة فترة.. قال الاطباء وقتها:

«انتظروا الوفاة بين لحظة وأخرى».

وفى إحدى لحظات التشبث بالحياة خطر للابن الأكبر كامل محمد عبدالمنعم جامع، موظف مصلحة الضرائب.. ان يرسل خطابا يستنجد بالزعيم.

بعد ذلك بيومين حضر الدكتور صلاح عبدالنبى والدكتور يحيى طاهروالدكتور شكرى

شعيب استاذ الامراض الباطنية فى طب عين شمس الذى تولى العلاج والذى انتظم فى حضوره إلى بيتنا أربع مرات يوميا لمدة ستة شهور.

وكان العلاج كله على نفقة جمال عبدالناصر.

●●●

عندما توفى جمالى عبدالناصر.. كان محمد عبدالمنعم جامع مازال موجودا.. أبا لخمسة ابناء ومازال يتحدث عن ذكرياته.. وأيام الخطاطبة.. والقاهرة وتلميذه الصغير.. النجيب.. جمال بن عبد الناصر أفندى حسين.

أرسل خطابا إلى أبناء الزعيم الخالد يقول فيه..

«أنا اثر من آثار والدكم العظيم فى إحدى مراحل حياته الدراسية فكنت أول مدرس علمه حرفا.. وتدرجت معه فى مراحل التعليم مدرسا خصوصيا بتوصية من جدكم المغفور له عبدالناصر حسين رفيقى ومضيفى ببلدة الخطاطبة.

يا ابنائى.. كم يحز فى نفس اننى لم استطيع لكبر سنى أن اقف حانيا رأسى مترحماً امام ضريحه الطاهر.. كم يحز فى نفس يا ابنائى أننى لم استطع لضعف صحتى أن أذهب اليكم معزيا ومواسيا.. لم استطع أن ألقاكم لأضمكم إلى صدرى كما كنت اضم ابنى والدكم الراحل العظيم.. انها يا ابنائى رغبة ملحة وافية مرجوة وياليتها تتحقق قبل رحيلى عن الدنيا.. ياليتها تتحقق».

●●●

وكرم جمال عبدالناصر العلم والعلماء وجعل للعلم عيدا بدأ الاحتفالات به فى عام ١٩٥٥ سلم عبدالناصر للفائزين جوائزها قيمتها ٢٦ ألف جنيه.. واستمر الاحتفال سنويا.. وصلت قيمة الجوائز إلى مليونى جنيه.

ومن كلمته فى أعياد عيد العلم:

ـ يقينى بأن العلم هو الوعاء السليم الذى يستطيع أن يضم الاحلام والخطط والنضال وأن يحفظها وأن يصل بها إلى حيث تريد الارادة الوطنية لها ان تصل».

ـ ان الاديان كلها كانت رسالة علم إلهى تلقاها الانبياء بالالهام القدس.. ولم يحتكر واحد منهم ما تلقاه ولا استفاد به لنفسه.. انما اشاعوا العلم رسالة فى الناس وجعلوا منه قوة تغيير اجتماعى.

ـ ان الثورة.. كل ثورة.. لاتستحق اسمها إلا إذا اعتمدت الاسلوب العلمى فكرا وعملا.. طريقا لها على الاوضاع القديمة التى تستبد بمجتمعهم وتعرقل حركته وتحول دون انطلاقه.. انما الثورة هى علم التغيير الاجتماعى الشامل والعميق لصنع حياة جديدة تعنى بمطالب الثوار وآمالهم..

ـ ان أى عملية حساب بسيطة كفيلة بأن تظهر الثمن القادح الذى تدفعه الجماهير لكى تصل بواحد من ابنائها إلى العلم المتقدم.. فاذا بلغ مكانه وتصور ان وصوله اليه يعطيه الامتياز ولايفرض عليه الالتزام. فلقد وقع فى الخطأ والخطيئة. خطأ الحساب ثم خطيئة الجهل الاجتماعى.

ـ ان النجاح أمر صعب والاحتفاظ به امر اصعب وعمل العالم أو المفكر أو الفنان ليس ضربة حظ تسبح به وسط أضواء الاعجاب أو الشهرة وانما الخلق المبدع عناء وعذاب.. يومى.

منذ اليوم الأول لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فإن الثورة بشكل أو بآخر عبرت عن اهتمامها بالعلم.

كانت تدرك أنه بدونه يصبح أى عمل مجرد ظاهرة نمفصلة معلقة أمرها بالمصادفات. فالعلم وحده يصنع من الأعمال تيارا متدفقاً للتقدم.

كذلك فإن العلم كان فى ثورة ٢٣ يوليو املا حقيقيا فى تعويض التخلف الذى فرض على الشعب المصرى، رغم انفه وضد ارادته.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

عبدالناصر.. شهادة أمريكية..

لم يكن هناك ابعد عن الحقيقة من الصورة التى رسمها له الغرب وصدقها..

كان عبدالناصر ظاهرة أكبر من قدرة الغرب على الفهم..

كان فى رأى إسرائيل، كل شىء يمكن مواجهته إلا عبدالناصر.

كان الحلم الكبير لعبد الناصر أن يخلق المجتمع الذى يرد للمصرى العربى انسانيته ويجد فيه عزته وكبرياءه.

لم يحاول كثيرون فهم ظاهرة عبدالناصر.. وماذا يعنى لملايين المصريين والعرب.

كان الصحفى والكاتب الأمريكى «ويلتون وين» مراسلا فى مصر قبل الثورة.. ثم شهد الثورة وواصل العمل لمدة سنوات أخرى التقى خلالها بجمال عبدالناصر وعرفه عن قرب ثم ألف كتابا مشهورا عنه بعنوان (ناصر.. البحث عن الكرامة) وكان من أوائل الكتب التى صدرت عنه فى الغرب وقد شرحت ثورة ٢٣ يوليو بعطف واعجاب كبيرين..

وبعد رحيل عبدالناصر عاد «ويلتون وين» مرة أخرى إلى القاهرة ليعمل مديرا لمكتب مجلة «تايم» الأمريكية فى الشرق الأوسط، وليستأنف (تغطية) الموقف العربى الذى لم يغب عنه لحظة، وهذا حديث له عن جمال عبدالناصر.. وثورته.. بعدما تجاوزت ربع قرن بأربع سنوات.. وبعد أحد عشر عاما من رحيله..

«لعل أغرب ما يصادفنى دائما فى مصر أو فى انحاء كثيرة من العالم هؤلاء الذين يسارعون إلى سؤالى.. مارأيك الآن وكيف ترى صديقك عبدالناصر؟»..

وقبل أن اجيب اجد انهم قد اقترحوا اننى غيرت رأيى، وتحولت، ولهذا فاننى انتهز هذه الفرصة لأعلن اننى لم أغير رأيى ولن أغيره فى عبدالناصر..

وكل الأمريكيين، الذين اعجبوا به وتعاطفوا معه كانت لهم تحفظات على بعض سياساته ولم نوافق على كل شىء قام به، ولكن احدا منا لم يشك لحظة ولازلنا نثق ان عبدالناصر أحد القادة العظام فى التاريخ المعاصر وسيظل مكانه محفوظا وقائما.

وقد عاصر عبدالناصر قادة كثيرين فى آسيا وافريقيا مثل سوكارنو، نكروما، نهرو، وغيرهم وهم قاموا بأدوار هامة وعظيمة ولكن عبدالناصر قام بالدور الأعظم وكان فى قمة ومكانة وحده ولقد حسم عبدالناصر عصرا طويلا كاملا من التاريخ وجسد هذا

وأصبح رمزا له، وكما لم يفعل قائد آخر مثله ولهذا يظل واحدا من أعظم الذين صنعوا تاريخ وتراث القرن العشرين.

وقد دخل عبدالناصر التاريخ واحتل مكانه لانه قاد وانتصر فى المواجهة الحاسمة للحرية ضد الاستعمار وأصبح المثل والرمز الخالد ولايمكن لزعيم أو قائد آخر أن يدعى انجازا على هذا المدى.

كانت حرب السويس نهاية حقبة طويلة غير مجيدة من التاريخ.

وبعد السويس لم يعد احد يشك ان على كل الامبراطوريات ان تتنازل وتذهب، وتتابعت الاحداث، انتهت بريطانيا فى مصر وفرنسا فى الجزائر وبلجيكا فى الكونغو.. وعاندت البرتغال ولكن لم تكن نهايتها سوى قضية وقت.

وقد رد عبدالناصر بانتصار السويس. كل الثقة والكرامة لشعوب مقهورة.. مغلوبة ولعدة قرون، ولم يردها للشعب المصرى أو للعرب فقط.. ولكن لكل آسيا وافريقيا. ولم يعد الآسيوى والأفريقى هو نفسه قبل السويس، وليس هناك انجاز أعظم يمكن أن يحققه زعيم فى التاريخ.

هذا الاحساس بالعزة والكبرياء والفخر بالانتماء إلى تاريخ وحضارات ذات ماض وذات مستقبل.

وأنا اذكر المجتمع المصرى القديم حيث كان كل مثقف يعانى مركب نقص عميقاً ويعيش حائرا متناقضا بين ذاته وبين ثقافته وطريقة حياة بريطانية أو فرنسية أو آمريكية.

كانت الطبقات العليا متشبثة بعالمها الأوروبى المصطنع والمتحذلق وكان المثقفون والطبقات الأخرى يعانون محنة الفقر والضياع. ولم يكن الحال مختلفا فى العالم العربى أو فى العالم الثالث، وشق عبدالناصر لهم طريق الخلاص.

ولهذا يعيش وسيبقى بطلا تاريخيا اسطوريا كما لم يوجد قبله أو بعده هنا.

وقد طفت كثيرا فى العالم.. خاصة فى الشرق ووجدت عبدالناصر وثورته مصدر الهام ووحى أو المثل والنموذج لكل ثورة قامت بعده.

وقد ذرعت العالم العربى.. ربما كل شهر فيه.. وكنت أجد عبدالناصر حيثما اذهب وبنفس الهالة.

وأحيانا فى آخر مكان اتوقفه وفى قصور الأمراء أو أكواخ المعدمين الفقراء.. كانت شعبيته تتجاوز كل الملامح، ولا أظن زعيما فى آسيا أو افريقيا تمتع قط بمثل شعبية عبدالناصر.

لم يكن عبدالناصر مجرد عسكرى استولى على السلطة ولكنه ولد سياسيا ورجل دولة بالفطرة، كان لديه احساس داخلى بدوره، وبالمهمة التى تقع على عاتقه وهو قد أعد نفسه لها قبل توليه السلطة بكل جد وجلد وهو لم ينقطع عن الاجتهاد والتحصيل والاستعداد كل يوم وطوال حكمه ولكى يحقق رسالته.

كان عبدالناصر ذا احساس دائم وعميق بالمسئولية وكان رجلا صادقا وعاقلا وحكيما، ولم يكن هناك أبعد عن الحقيقة من الصورة التى رسمها له الغرب وصدقها وهى المتطرف العدوانى الغوغائى.

وللأسف.. فشل الغرب فى أن يفهم عبدالناصر.. أو أن يقيم علاقة تفاهم معه.

كان عبدالناصر ظاهر أكبر من قدرته، وكان التفسير الأمريكى له أنه «رجل السوفيت» فى المنطقة، تفييرا ساذجا.

وقام هذا الوهم منذ صفقة الاسلحة سنة ١٩٥٥.. ولم يتغير ولم يشأ احد أن يواجه الحقيقة وأن يتذكر أن عبدالناصر اراد فى البداية أن يصل إلى اتفاق مع الغرب وأن يجد حلولا عادلة لكل المشاكل الاساسية.. السودان.. السويس.. فلسطين.. ألخ..

ولكن لم يقدم له الغرب أى معونة ولم يوفر أى فرصة ولم يبد أى رغبة صادقة، ولهذا لم يتمكن عبدالناصر من تحقيق أى هدف ولم يكن هناك بد أمامه من أن يتجه إلى السوفيت وان يتفق معهم.

وقد قام اصدقاء الغرب والولايات المتحدة من الحكام العرب بالدور الأول فى تعميق الهوة بين عبدالناصر والغرب، وكانوا يستميتون فى مقاومة أى محاولة للتقارب أو

للتفاهم معه، ويعدونها تخليا عنهم تنكراً لدورهم؟.. وبالطبع كانت إسرائيل تقف حائلا اساسيا، وشد ما ادهشنى خلال الخلاف الحاد بين عبدالناصر وعبدالكريم قاسم فى العراق أن إسرائيل كانت منحازة تماما إلى قاسم وكانت تلح بشدة على الولايات المتحدة أن تناصر قاسم «الشيوعى» فى ذلك الحين ضد ناصر «الوطنى» لأن فى رأيها كل شىء يمكن مواجهته الا عبدالناصر.

واذكر أيضا أنه فى عام ١٩٥٥ اراد إيدن رئيس وزراء بريطانيا ان يتوسط بين العرب وإسرائيل، واقترح تنازلات متبادلة، وقبل عبدالناصر، ولكن رفض الإسرائيليون وبتعنت شديد، وكان عبدالناصر يذكرنى دائما بهذه الواقعة كلما اشتدت حمله الغرب عليه.

ولم يكن عبدالناصر قط عدوانيا يخلق المتاعب ويثيرها، بل كان ايجابيا يريد السلام والبناء والتنمية.

وخذ مثلا حرب اليمن التى يشهرون به من أجلها ويعيرون حكمه بها، لم يكن هو الذى فرضها ولم يكن يستطيع أن يتنصل منها.

وهى أيضا لم تكن حربا خاسرة، أو هزيمة له، وعلى العكس تماما كسب عبدالناصر الحرب فى اليمن بدليل ان الجمهوريين لازالو فى السلطة وان الجمهورية قائمة.. واما أن الثمن كان غاليا بالنسبة لمصر فهذه مسألة أخرى تناقش.

وأنا لا أعتقد قط أن عبدالناصر هو الذى شن حرب سنة ١٩٦٧ أو كان يعد لها أو يريدها ولكن لم يكن يستطيع أن يقف ساكنا ازاء تهديد سوريا. ومالبث ان تورط فى الفخ الذى نصبه الإسرائيليون.

كان الحلم الكبير لعبدالناصر أن يخلق المجتمع الذى يرد للمصرى العربى انسانيته ويجد فيه عزته وكبرياءه، وقد قام هذا العالم فيما اعتقد ونما فيه جيل جديد هو الذى سيغير خريطة الشرق الأوسط.

وأنا عشت المجتمع المصرى قبل الثورة، مجتمع الملك والباشوات وكان ذلك المجتمع بالنسبة لأى أجنبى فردوسا أرضيا وكانت مصر جنة للاجانب وذلك إذا ما تجردوا من أى ضمير أو وازع خلقى لانها كانت جنة تقوم على جحيم واستغلال فظيع للاغلبية..

كانت الجاليات الاجنبية تملك وتسود مصر ولاتقدم أى شىء وكان الفقر والشقاء لايصدق.

وأنا لست اشتراكيا وربما ابعد ما أكون ولكننى أيدت كل التأييد اشتراكية عبدالناصر وأرى انها كانت الطريق الوحيد أمامه والذى لم يكن هناك طريق غيره.

والاشتراكية التى ايدتها هى تمصير ثروات البلاد وتأميمها أى ردها لاصحابها.

إن الاجانب لم يكن لتعنيهم قيمة الموارد أو سد الحاجات ولم يكن بين المصريين الطبقة المخاطرة المبتكرة التى يعتمد عليها القطاع الخاص والتى اعتمد عليها الاقتصاد الصناعى فى أوروبا وأمريكا ولهذا لم يكن هناك بد ان تقوم الدولة بالتنمية.

فلم يكن من الممكن للاقتصاد الفردى والقطاع الخاص أن يبنى السد العالى أو صناعات حلوان أو مدينة الالمونيوم ولم يكن ممكنا أن يسترد أو يدير قناة السويس أو ان ينتج ٨٠٠ ألف برميل من البترول.

كان لابد من التمصير والتأميم لتحقيق التنمية.. كان عبدالناصر يتصرف باسم جماهير الناس وكان هذا يمنحه قوة روحية كبرى.

كان عبدالناصر يؤمن بالتنمية التى تبدأ من مصر وقام بها مهندسون ومديرون وعمال مصريون استعانوا بالخبرة أو بالمعونات والقروض الأجنبية، وكان هذا هو أعظم ما تم.

وللاسف لم يحاول الكثيرون فهم ظاهرة عبدالناصر وماذا يعنى لملايين المصريين والعرب.

وكانت المفاجأة فى الغرب يوم ٦ أكتوبر مذهلة وقد تلقى كل مراسل فى الشرق الاوسط البرقيات المحمومة تطلب شرح ما حدث. ولم يكن ممكنا لهم ان يفهموا إذا لم يبدأوا من البداية.. من عبدالناصر.

وبالطبع، فإن حساب عبدالناصر وان كان ايجابيا إلا أنه لايمكن أن يكون كاملا بغير السلبيات.

وكان لى تحفظ اساسى واحد ودائم وهو القمع والاجراءات الاستثنائية وقيام دولة بوليسة لم تكن هناك ضرورة لقيامها.

وكانت اجراءات الأمن والقمع أكثر مما تستدعى الضرورة. وقد شل هذا الكثير من المبادرات الفردية وعرقل مشاريع الكثير من المستثمرين ورجال الأعمال حسنى النية وجمد أيضاً الكثير من الابداع الفكرى والثقافى.

وأنا ادرك ان عبدالناصر لم يكن ليستطيع أن يقيم ديقمراطية برلمانية ومتعددة الاحزاب، وان كان لابد من فترة وصاية ولكن فى نفس الوقت كانت الاجراءات الاستثنائية اثقل مما كان ضروريا.

لم تكن هناك حاجة لهذا العدد من المعتقلات أو من المخبرين والمرشدين ولهذا القدر من الاحساس بالخوف.

وكان يمكن لعبدالناصر أن يحمى الأمن ويحققه بحركة شعبية منظمة، وبتنظيم سياسى بتغلغل فى الجماهير ويقوم بتعبئتها ولو تم هذا لما كانت هناك ضرورة للاجراءات الاستثنائية.

ولقد كانت هناك تهديدات وتحديات.. وكان تأمين الثورة ضرورة ولكن يبدو وخاصة فى الفترة الأخيرة أنه كان لدى عبدالناصر إحساس مضاعف بالخطر على شخصه وعلى النظام وربما كان هناك من يذكى هذا الاحساس!!

ولكننى مع هذا فى الحساب النهائى.. لعبدالناصر أؤكد اننى لم أغير رأيى حول دوره وشخصيته ولن أفعل».

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

يصل ويسلم إلى جمال عبدالناصر..

رسائل إلى الانسان.. ومواقف للإنسان..

كان الإنسان فى عبدالناصر كبيرا.. كبيرا.. وبلا حدود.. ولعل عبدالناصر نفسه لو خير بين جميع الالقاب والمناصب والاوصاف لاختار من بينها جميعا لقب « الإنسان » البطل التراجيدى الذى كان يحمل على رأسه كل هموم الأرض.. والذى كان فى عنقه مسئولية دولة.. ومستقبل أمة..

موقف فريد.. لعله لم يحدث فى تاريخ الأمم .. أو تاريخ الأبطال من قبل!!

الجموع الغفيرة تلتف حول عبدالناصر وتهتف بحياته، والبطل يفتتح إحدى المؤسسات فى حى شعبى، وفجأة لمح جمال عبدالناصر رجلا وسط الجموع يعرفه.. لقد مضت سنوات طويلة لم يره فيها الرئيس.. خمسة وعشرون عاما، ربما أكثر.. ولكن الرجل لايزال كما هو ـ منتصب القامة، رغم أن الزمن قد ترك بصماته على ملامح وجهه.

أشار عبدالناصر للرجل، ولكن الرجل لم ينتبه لاشارة الرئيس.. لم يكن يتوقع أن عبدالناصر لايزال رغم مرور السنين الطويلة يتذكره، وكرر عبدالناصر اشارته للرجل.. ولكن الرجل كان محشورا وسط الزحام الرهيب فلم يلتفت.. واشار عبدالناصر باهتمام شديد نحو الرجل.. وظن حرس الرئيس أن هناك شيئا غير عادى على وشك أن يحدث فاتجه بعضهم، بسرعة إلى المكان الذى اشار عبدالناصر إليه.. وفوجىء الرجل بعدد من الرجال يحيطون به من كل جانب، ثم رأى عبدالناصر يتجه نحو فارتبك الرجل، وعندما مد عبدالناصر يده ليصافحه كانت المفاجأة أكبر من أن يتحملها الرجل العجوز.. قال عبدالناصر وهو يصافح اليد المرتعشة الممدودة إليه بخوف ووجل:

ـ ازيك ياشيخ مرسى..

وقال الشيخ مرسى: الله يخليك ياريس.

وضحك عبدالناصر وقال وهو يشد على يد الرجل العجوز:

ـ انت مش الشيخ مرسى الحميدى برضه؟

وجاء الرد.. أيوة يا أفندم مضبوط.

وقال عبدالناصر: وياترى فاكرنى؟

وقال الشيخ موسى: ياسلام.. لقدكان شرفا لى أن أكون مدرس عبدالناصر..

وقال عبدالناصر:

- طيب ماجتليش ليه ولا سألتش عنى؟

وقال الشيخ مرسى:

- انت مشغول كان الله فى عونك.

وانتهى الاحتفال بافتتاح المؤسسة. وفى السيارة التى أقلت عبدالناصر إلى منزله، كان الشيخ مرسى الحميدى يركب فى نفس السيارة مع عبدالناصر، وفى حجرة مكتب الرئيس.. راح البطل يستعيد ذكريات أيام كان تلميذاً يتلقى أصول اللغة العربية على يد الشيخ مرسى الحميدى.

وكان الشيخ مرسى رجلاً من رجال القضاء الشرعى، ولكنه استقال واشتغل بالتدريس، وكان شديد القسوة على الطلبة، وكان جادا اشتهر عنه بأنه لايقبل من تلاميذه أقل من الدرجة النهائية فى مادة اللغة العربية.. وكان حريصا كل الحرص على أن يكون نطق الطلبة صحيحا حتى فى احاديثهم العادية، وكان يقدر التلميذ عبدالناصر ويحترمه ويضرب به المثل للتلاميذ فقد كان جادا فى دراسته، وكان حريصا على اداء واجباته..

وبعد أن انتهى اللقاء بين المدرس الذى أصبح شيخا وبين التلميذ الذى أصبح رئيساً للجمهورية.. قام عبدالناصر وودع الشيخ موسى حتى الباب.. ولاحظ عبدالناصر أن الشيخ يبدو عليه الالم أثناء السير فسأله عما به.

فأجاب الرجل:

- ولا حاجة ياريس.. دارجلى بتوجعنى.. يظهر شوية برد.. ثم ودع الشيخ عبدالناصر ومضى.

فى صباح اليوم التالى، كان هناك طبيب فى منزل الشيخ مرسى الحميدى يكشف على ساقه المريضة.. واكتشف الطبيب انه لابد من عمل تحليل كامل للرجل.. وفعلا.. تم

التحليل.. وعولج الرجل حتى شفى..

وبعد عدة اسابيع تلقى عبدالناصر خطابا من الشيخ مرسى يقول له فيه:

«لقد اكرمتنى أكرمك الله........»

●●●

ذات يوم وصل إلى عبدالناصر خطاب من المعتقل.. الخطاب كتبه أحد المعتقلين: «أنا مريض وصحتى فى تدهور، واسرتى فى أشد الحاجة الى ولقد أخطأت حقا، ولكن من منا لايخطىء»؟..

وأعطى الرئيس تأشيرته على الخطاب «يفرج عنه فى الحال».

وبعد أيام، تلقى عبدالناصر خطابا آخر من نفس الرجل«لا أعرف كيف أشكرك، لقد اعدت إلى الثقة فى نفس وهيأتنى لاكون مواطنا صالحا، وها أنذا أبدأ حياتى من جديد، واثقا من النجاح فى المستقبل، رغم اننى لا أملك شيئا أبدأ به».

وإلى هذا لاحد كانت حساسية عبدالناصر، وبهذا القدر كانت انسانيته.. أدرك عبدالناصر أن الرجل يشكو سوء احواله المادية. ولكن بعبارات ذكية، فأمر عبدالناصر بدراسة حالة الرجل وتقديم كل عون له، وفعلا، تم صرف إعانة مالية له، وتسلمت اسرته شقة فى عمارات الاوقاف، ولم تمض سنوات خمس حتى كان الرجل فى أحسن حال، وأصبح تاجرا مرموقا يشار إليه بالبنان، وارسل خطابا لعبدالناصر فى إحدى المناسبات.. لا أعرف ياسيادة الرئيس كيف أشكرك، كم أنا مدين لك، كل ما استطيع ان اقوله لك.. روحى فداك».

أصيب طالبان بطلقات رش فى عيونهما.. وقال الأطباء فى مصر.. لافائدة.. ولكن الطالبين لم يدركهما اليأس.. كتبا خطابا لعبدالناصر يشرحان حالهما.. وقال الطالبان فى خطابهما:

«لو كان الأمل واحد فى المليون فعلينا أن نجرى خلفه ونتشبث بأذياله»

وأمر عبدالناصر بسفر الطالبين إلى اسبانيا للعلاج، وفى اسبانيا ذهب الطالبان إلى الطبيب العالمى باركيرا.. وبعد فحص دقيق وشامل قال الطبيب العالمى.. لافائدة!

وعاد الطالبان إلى مصر والحسرة تأكل قلبيهما.. ولكنهما لم يهدأ.. راحا من جديد يتصلان باطباء العيون فى الخارج، وجاءهما رد من لندن. ان احد الاطباء المشاهير فى انجلترا يقول «هناك أمل ضئيل لعلاج هذه الحالة».. وحدد لهما موعدا لاجراء الفحوص وبدء العلاج، وعندما ذهبا يطلبان السفر إلى لندن، قيل لهما إن القرار الجمهورى كان خاصا بالسفر إلى اسبانيا. وقد سافرا إلى اسبانيا بالفعل.. وعاد من هناك وبقرار قاطع.. لافائدة!.

ولكن الطالبين لم يستسلما، كتبا خطابا لعبد الناصر:

«ان نور أعيننا يتوقف على قرار من الرئيس، ونحن على ثقة من اننا سنرى النور عن طريقك».

وقال عبدالناصر:

«يسافر الطالبان فورا إلى لندن، ان الشكليات يجب الا تعوق الطالبين عن بلوغ املهما».

وسافر الطالبان فى اليوم التالى، واجريت لهما العمليات اللازمة، وعادا بعد عدة أشهر، وعادا وهما يبصران، لقد تحقق الأمل، وعاد النور إلى عيونهما ولو تأخرا قليلا لكتب عليهما ان يعيشا فى الظلام إلى الابد.

●●●

فى ٢ ديسمبر عام ١٩٥٣، صدرت جريدة الجمهورية كان عبدالناصر يتابع خطواتها أول بأول.. وكان يحرص على معرفة كل امورها وبالتفصيل.. وكانت الجمهورية يتم توزيعها عن طريق الطائرات.. سواء إلى الاسكندرية.. أو أسوان.. وسقطت إحدى الطائرات وبها موظف التوزيع.. واهتم عبدالناصر جدا بالأمر.. وسأل مدير الجريدة:

ـ عملتم ايه مع الموظف؟

وكان الرد:

ـ قررنا صرف معاش استثنائى يساوى نصف مرتبه.

وقال عبدالناصر:

ـ كويس..

وبعد لحظة صمت، قال عبدالناصر:

ـ وليه نصف المرتب؟.. مايبقى المرتب كله.. وتم بالفعل.. قررت الجريدة معاشا ثابتا لأسرة الموظف، هو كل مرتبه الذى كان يتقاضاه وهو على قيد الحياة..

●●●

انطفأ النور فى حجرة نوم عبدالناصر، واستعد مساعدوه.. للانصراف بعد يوم عمل شاق طويل.. مرهق.. ولكن فجأة حدث ما جعلهم يتريثون، فقد اضىء النور من جديد، ودق جرس التليفون، وجاء صوت عبدالناصر يسأل فى اهتمام:

ـ المهندس بتاع الاسماعيلية عمل ايه؟

وجاء الرد سريعا:

ـ خلاص يا أفندم، استلم شغله النهاردة.

ولكن، من هو هذا المهندس الذى اهتم عبدالناصر به هذا الاهتمام؟..

هذا المهندس، لم يكن عالما فى الذرة..! ولم يكن مهندسا اجنبيا قادما من وراء البحار..!

كان شابا مصريا حديث التخرج من كلية الهندسة، وجاء تعيينه فى شركة حديثة الانشاء مقرها مدينة الاسماعيلية وبعد شهور من التعيين حدث خلاف بين المهندس الشاب وبين ادارة الشركة، واستطاعت الادارة بما لها من خبرة أن تجر الشاب إلى معركة خاسرة، فقد هدد بالاستقالة، ثم استقال بالفعل، وكان رد الادارة قبول الاستقالة فى الحال.. ومضت أيام.. واكتشف المهندس الشاب انه كان ضحية مقلب دبرته له الادارة.. فكتب خطابا يشرح فيه ماحدث له بالتفصيل.. ووضع على الخطاب طابع بريد بقرش صاغ، وكتب على المظروف:

«إلى جمال عبدالناصر!!».

ومضت عدة أيام.. وربما نسى المهندس الشاب أمر الخطاب وربما نسى الموضوع كله.

ولكنه فوجىء بخطاب من جمال عبدالناصر يطلب إليه التوجه فورا لمقابلة وزير الدولة.

وشرح المهندس الشاب القصة بالتفصيل للوزير.. وتشكلت لجنة على الفور لبحث الموضوع وقالت اللجنة بعد تحقيق سريع: المهندس على حق..

وقال عبدالناصر: اذن يعود المهندس فورا إلى عمله.. وقال مدير الشركة ان الوظيفة قد شغلها مهندس آخر وليس فى الشركة درجة واحدة خالية لتعيين المهندس المستقيل عليها، لكن.. نزولا على أمر جمال عبدالناصر - هكذا قال مدير الشركة - سيلحق المهندس بعمل فى الشركة بمكافأة حتى يتم تعيينه فى بداية السنة المالية الجديدة.

وتسلم المهندس الجديد عمله فى الشركة وبمكافأة، ومضت ثلاثة أشهر، وجاءت السنة المالية الجديدة، وفوجىء الموظف بخطاب من الشركة، ليس خطاب تعيين كما تصور.. ولكن خطاب فصل!!

ومرة أخرى عاد المهندس الشاب إلى الشارع، ومرة أخرى كتب خطابا إلى جمال عبدالناصر شرح فيه التطورات الاخيرة، ووضع على الخطاب طابع بريد بقرش صاغ، وكتب على الظرف:

«إلى الرئيس جمال عبدالناصر»

وفى داخل الخطاب كان هناك ثلاثة سطور لاغير.

«لقد أمرت سيادتك بأن يعود الحق إلى نصابه، ووعدوا بتنفيذ الأمر، وها أنذا اكتب لك مرة أخرى من الشارع»!

وبعد ثلاثة أيام بالضبط، كان الشاب يقف مرة أخرى أمام وزير الدولة يحكى له قصته بالتفصيل، ورفع الامر بسرعة إلى جمال عبدالناصر.

وقال عبدالناصر: ان بعض الناس لايريدون أن يفهموا أن هذه الثورة قامت واستمرت وستظل من أجل اقرار حقوق المواطن البسيط، كان النظام الملكى لابناء الأسر الكبيرة، لمن

يملكون الوساطة، ولمن على صلة بالكبراء، ولقد جاء هذا النظام ليؤكد أن المواطن العادى البسيط يستطيع ان ينال حقه رغم كل العراقيل التى يحاول البعض ان يعضها امام اصحاب الحق.

وكتب جمال عبدالناصر على خطاب المواطن.. «يعود المهندس إلى وظيفته الاصلية خلال ٢٤ ساعة».

ومر اليوم التالى فى عمل مستمر، فقد كان يوما من أيام سنة ١٩٦٤ المشحونة.

وبعد منتصف الليل بساعتين، دخل عبدالناصر حجرة نومه، واطفأ النور، واستعد للنوم.. ولكن النور اضاء الحجرة فجأة.. ودق جرس التليفون فى المكتب المجاور.. وجاء صوت عبدالناصر يسأل فى اهتمام..

- المهندس بتاع الاسماعيلية عمل ايه؟

وجاء الرد سريعا:

- استلم عمله النهاردة يا أفندم.

وأطفأ عبدالناصر نور الحجرة.. ونام!!

●●●

فى يوم ٤ فبراير عام ١٩٧٠، جاءت إلى مكتب وزير الدولة طالبة سودانية فى السنة الأولى بكلية الطب، وقالت الطالبة ان حامضا اصاب إحدى عينيها أثناء وقوفها فى المعمل، وأن الأطباء قرروا انها فى حاجة إلى ترقيع القرنية..

ولما كانت العملية تحتاج إلى نوع من العناية الفائقة فقد قرر الأطباء اجراء العملية فى مستشفى المعادى..

ولكن الطالبة لاتستطيع ان تتحمل تكاليف اجراء العملية فى مستشفى المعادى.

وفى نفس اليوم كانت حالة زبيدة امام جمال عبدالناصر، وقبل أن ينام عبدالناصر كان قد اصدر قرارا بادخال زبيدة مستشفى المعادى على حسابه، وفى الصباح كانت زبيدة فى طريقها إلى المستشفى فى سيارة تابعة لرئاسة الجمهورية ومعها مندوب من

الرئاسـة، واجريت العملية بنجـاح، وقضت زبيدة شهرا فى المستشفـى، لم ينقطع مندوب الرئاسة عن زيارتها، حتى خـرجت زبيدة من المستشفى إلى الرئاسة لتقدم شكرها العميق إلى الوالد البار الكريم جمال عبدالناصر.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

جمال عبد الناصر
أب للوطن وولد للجميع

كان إذا أرهقه العمل، طلب الراحة فى القناطر الخيرية ولم تكن استراحة القناطر الخيرية أكثر من غرفتين ولكن.. كان جمال عبدالناصر يفضل أن يستجم عدة أيام فى القناطر الخيرية لاسباب انها قريبة من القاهرة، وأيضا لأن الاستراحة كانت محاطة بمئات الافدنة من الحدائق.. وكانت تطل على نهر مصر العظيم.. نهر النيل. كان ينساب هادئا وقويا بجوار استراحة الرئيس صانعا لنا مصر.. وصانعا الخير والنماء لمصر..

وعندما يعلم سكان المناطق المجاورة للقناطر حيث العزب والنجوع بوجود عبدالناصر فى القناطر. يتسرب إليهم الخبر عن وجوده فى الاستراحة كان الكثير منهم يهرعون إلى مكانه. بعضهم للزيارة.. وبعضهم للتحية.والبعض الآخرمنهم يريد أن يحمل وجهة نظرة فى بعض المشاكل لعبد الناصر.

وتحولت فترة الاستجمام إلى فترة عمل وحل لمشاكل الجماهير.

ورأت سلطات الأمن أن تمنع الجماهير من الوصول إلى الاستراحة ولاحظ عبدالناصر انقطاع وفود الفلاحين فسأل عن السبب.

وجاءه الجواب

لقد منع رجال الأمن جماهير الفلاحين من الوصول إلى الاستراحة لكى ينعم الرئيس بالراحة.

وقال عبدالناصر: وأى راحة فى الانعزال عن الجماهير؟

اتركوا الناس تحضر الينا لنتعرف على مشاكلهم.

●●●

وصل علم مأذون ضرير أن عبدالناصر باستراحة القناطر.. وكان للمأذون مشكلة.. وحاول أن يقابل عبدالناصر.. وفشل.. كرر المحاولة أكثر من مرة وبأكثر من حيلة وكان الفشل من نصيبه فى كل المرات.. وضاعت جميع محاولاته عبثا.. وفكر المأذون الضرير فى طريقة مبتكرة للوصول إلى مكان عبدالناصر.. استقل فى الليل مركبا شراعيا من الضفة المقابلة للاستراحة.. وعبر النيل حتى أصبحت المركب تحت الاستراحة مباشرة ووقف المأذون الضرير وهتف صارخا..

ياريس.. ياريس.. أنا عاوز اشوفك ياريس وقبل أن يصل رجال الأمن إلى الرجل الضرير. كان عبدالناصر بنفسه يقف فى شرفة الاستراحة المطلة على النيل.

وقال عبدالناصر.. تعالى.. اطلع هنا فوق أنا عاوزك.. وصعد الرجل الضرير من المركب إلى الاستراحة وأجلس عبدالناصر الرجل الضرير على مقعد فى مواجهته بيستمع إليه.. قال المأذون: لقد كنت موظفا واحلت على المعاش.

وقبل ذلك وقعت فى ضائقة مالية فاضطررت إلى استبدال عدة جنيهات من معاشى والآن.. وبعد استقطاع هذه الجنيهات من معاشى اجد نفسى لا استطيع مواجهة تكاليف الحياة وفكرت ماذا أفعل وعندما ضاقت بى السبل وجدت نفسى اراك فى المنام أشكو لك حالى ثم رأيتك تأخذ من يدى إلى مكان جميل وعندما استيقظت من نومى واستعدت ما رأيته فى الليل قلت لابد انه فرج الله آت عن قريب.

وبعد ساعة كاملة من اللقاء. خرج الضرير ومن نفس الطريق الذى جاء منه ولكنه لم يخرج كما جاء خرج ومعه قرار جمهورى بمعاش استثنائى له ولاولاده من بعده.

●●●

كانت رسالة قصيرة.. ولكنها بليغة، رشيقه العبارة.. مركزة الالفاظ.. الرسالة من الطالب صبحى «أ» س بالسنة الخامسة كلية الطب ـ جامعة القاهرة.

قال الطالب: سيدى الرئيس، توفى والدى الرقيب فى الشرطة والذى خدم لمدة ثلاثة عشر عاما وتركنا نواجه الحياة فى غرفة واحدة ومعاش لايكاد يكفى حتى مطالب الحياة الضرورية ولقد حاولنا بشتى الطرق أن نصنع المستحيل، لكى نواصل الحياة بعد والدى

دون جدوى حاولت أمى أن تعمل خياطة ولكنها فقدت عينها بالتدريج وحاول أن أعمل أنا فى الليل واذهب إلى الكلية بالنهار، ولكنى صحتى تدهورت بشدة اننى الجأ إليك الآن ياسيادة الرئيس لكى تجد حلا لهذه المشكلة التى تهدد أسرة رجل خدم الامن فترة طويلة من الزمان.

وعرض الخطاب على عبدالناصر فى نفس الليل وأمر بصرف اعانة شهرية للأسرة تكفى لمواجهة الحياة بكرامة.

وقال عبدالناصر:

«ابحثو لهم عن مسكن يليق بهم وأثثوا المنزل على حسابى من جيبى الخاص واشتروا له الكتب وجهاز الضغط والسماعة».

وقد يكون هذا التصرف عاديا بالنسبة لجمال عبدالناصر والذى كان انسانا قبل أن يكون حاكما وزعيما ولكن الشىء الذى يثير حقا هو أن عبدالناصر ظل يسأل فترة عن أسرة الرقيب المتوفى وكان خلال العام الدراسى يسأل دائما عن موقف الطالب من الدراسة.

وذات مساء التفت عبدالناصر فجأة إلى وزير الدولة لشئون الرئاسة الجمهورية وقال:

ـ صبحى عامل ايه؟

وصمت الوزير لحظة واستأنف عبدالناصر الانسان حديثه على الفور:

ـ صبحى طالب الطب ـ ابن الرقيب.

وقال الوزير: آه.. الحمد لله.. نجح السنة دى يافندم.. وبتفوق

●●●

عبدالفتاح أحمد.. كان مقاولا من الباطن يقوم بالعمل فى منطقة المعمورة بالاسكندرية وأثناء قيام العمال بالعمل انقطعت اسلاك كابلات التليفون الموصلة لاستراحة عبدالناصر وتعطلت جميع تليفونات الاستراحة وذهب رجال الشرطة إلى المعمورة وتم القاء القبض على العمال وحجزهم فى قسم شرطة المنشية وفى تحقيق

الشرطة قال العمال إن الخلل الذى حدث فى الكابلات تم بطريق الخطأ ومن غير قصد. وانهم لم يكونوا على علم بوجود كابلات فى هذا المكان ولما علم المقاول بالامر توجه إلى - المعمورة وظل هناك حتى لمح عربية عبدالناصر تخرج من المعمورة فى اتجاه المنتزه واشار المقاول للسيارة فتوقفت.

واستدعى عبدالناصر المقاول واستمع إلى شكواه قال المقاول لقد اتلف العمال الكابلات دون قصد. خصوصا وأن واحدا لم يخطر المقاول ولا العمال بأن هناك كابلات فى المنطقة وكان أول سؤال لعبدالناصر: وفين العمال دلوقتى؟

وقال المقاول:

- فى قسم الشرطة

وانطلقت سيارة عبدالناصر وبعد ساعة كان العمال يستأنفون العمل من جديد فى المعمورة.

●●●

لجأ المواطن سعد الهاكع إلى عبدالناصر يطلب علاج ابنه فى الخارج على نفقة الدولة وعندما لجأ إلى عبدالناصر كان قد داخ السبع دوخات هنا فى مصر من أجل علاج ولده الصغير فقد شاءت الاقدار أن يولد الطفل بدون فك واحتار الاطباء فى هذه الحالة الفريدة ثم اشاروا على الرجل بعلاج الطفل فى لندن وقتها كان سعد الهاكع قد باع كل ما عنده واستدان حتى لم يعد هناك باب لم يدق بيده عليه.. ووافق عبدالناصر على علاج الطفل فى لندن وصدر القرار الجمهورى بعلاج الطفل على نفقة الدولة فى لندن.. وبدون مرافق.. ولكن كيف يسافر طفل عمره ١٨ شهرا إلى لندن بدون مرافق؟.. هكذا سأل الوالد ولكنه لم يتلق جوابا على سؤاله لأن القرار الجمهورى صريح يسافر الطفل إلى لندن للعلاج ولم ينص القرار على سفر مرافق وكتب الرجل خطابا لعبد الناصر يشرح فيه الموقف.. إن الطفل عمره ١٨ شهرا وهو لايستطيع السفر بمفرده والمرافق لايستطيع السفر مع الطفل لان القرار الجمهوري لم ينص على سفر المرافق وكتب الرئيس على الخطاب:

«لاينبغى أن تقف عقبة فى سبيل علاج الطفل»

وفى اليوم التالى كان الطفل فى الطائرة فى طريقه إلى لندن تحمله أمه كمرافق.

●●●

ذات صباح جاء إلى رئاسة الجمهورية شاب فى الثالثة والعشرين وطلب مقابلة احد المسئولين وقابله وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية وفتح له قلبه، وقال الطالب ح.م إبراهيم. أنه طالب فى السنة النهائية بكلية طب القصر العينى يسكن مع اسرته حجرة فى حى بين السرايات الفقير المجاورة لجامعة القاهرة، الحجرة بلا ماء ولانور ووالده يعمل بائع طرشى يشترى كل صباح صفيحة طرشى من السيدة زينب ويحملها على ظهره إلى بين السرايات وحول الصفيحة تجتمع الاسرة كلها حتى الصباح وقبل أن يبدأ النهار تكون الأسرة قد قامت بتعبئة الطرشى فى أكياس ويخرج الطالب إلى الكلية فى نفس الوقت الذى يخرج فيه الوالد ليقوم بتوزيع الاكياس على البقالين وعند عودة الطالب من الكلية يكون الواد قد عاد هو الآخر بصفيحة أخرى ويربح من صفيحة الأمس مبلغ خمسة عشر قرشا لاتزيد وقال الطالب أنه رغم انه فى السنة النهائية إلا أنه يفكر فى ترك الدراسة فهو لا يطليق رؤية والده يتعذب، إلى هذا الحد وقال إنه لم يجد سوى عبدالناصر ليطرق بابه وقال إنه واثق من أن الرئيس سيمد يده إليه.

ورفع أمر الطالب فى نفس اليوم إلى عبدالناصر. وفى نفس اليوم أيضا أمر عبدالناصر بصرف إعانة عاجلة للشاب، وقرر له إعانه شهرية حتى ينتهى من دراسته ليس هذا فقط.. فقد أمر بشراء كل الكتب وجهاز ضغط، وسماعة للكشف. ومن جيبه الخاص، وكتب عبدالناصر على المذكرة «أرجو له مستقبلا باهرا، وليكن علمه فى خدمة الفقراء».

●●●

كانت النيابة العامة قد قررت احالة عدد من طلبة جامعة الاسكندرية إلى محكمة أمن الدولة العليا وكانت التهم خطيرة والعقوبة المطلوبة هى أقصى عقوبة وكان فى هذا ضياع لمستقبل عدد من شباب مصر.

وذات صباح استقل عبدالناصر القطار فى طريقه إلى الاسكندرية وفى استراحة الرئيس كان يجلس معه أنور السادات وعميد كلية طب الاسكندرية وقتئذ الدكتورأحمد السيد درويش. وفجأة.. فتح الدكتور درويش موضوع الطلبة مع الرئيس.

قال العميد: أنا كنت عاوز اتكلم مع سيادتك فى موضوع الطلبة، وأنا وكل أولياء الأمور نطمع فى كرمك، لقد أخطأ الطلبة ولكنهم أبناؤك. وهؤلاء الطلبة جميعا ولدوا وعاشوا فى عصر الثورة وفى ظل زعامة جمال عبدالناصر البطولية. وإذا كان الطلبة قد أخطأوا فنحن الاساتذة نتحمل جزءاً كبيراً من هذا الخطأ.

وسكت عبدالناصر لحظة. ثم قال

أنا باعتبر كل طلبة الجامعات والمعاهد أبنائى.

لافرق بين أى واحد واحد منهم وبين ابنى خالد. وأنا لا أتصور أن تكون هناك مشاكل بين عبدالناصروأبنائه، وأنا دائم التفكير فى مستقبل هؤلاء الطلبة وأنا أضع نفس دائما موضع أولياء امورهم، وعندما اتصور حال اولياء الامور لا أنام الليل.

ثم قال عبدالناصر:

لا أريد أن يبقى واحد فيهم محجوز، افرجوا عنهم، افرجوا عنهم جميعا أنا باعتبر كل الطلبة أبنائى، كلهم زى خالد، افرجوا عنهم واعيدوهم إلى كلياتهم.

وفى نفس اليوم.. تم الافراج عن جميع الطلبة ابناء جمال عبدالناصر وعادوا جميعا إلى كلياتهم، بفضل الزعيم، الذى كان أبا للوطن ووالدا للجميع.

●●●

المكان مطار القاهرة ـ عبدالناصر يقف فى المطار فى انتظار زعيم عربى يزور مصر.

يلمح عبدالناصر وجيه أباظة محافظ القاهرة يقف إلى جانبه.

قال عبدالناصر للمحافظ باهتمام:

ايه اللى انت عاملة ده ياوجيه، إيه حكاية الباعة المتجولين؟ انت صحيح عاوز ترحلهم من القاهرة؟

وقال وجيه أباظة للرئيس:

- لقد بحثنا الموضوع من جميع جوانبه واستقر الرأى على ابعاد بعض هؤلاء البائعين الذين يزيدون عن حاجة العاصمة.

وقال عبدالناصر:

- كلام ايه ده، انت فاكر دول جايين بيتفسحوا فى مصر، دول جايين ياكلوا عيش ودول استقروا هنا ولهم عيال، بعضهم بيتعلم فى المدارس وبعضهم بيتعلم صنعة، ثم دول هم الناس اللى الثورة لازم تحميهم يعلموا ايه دول لما يرجعوا بلدهم يشتغلوا فى الغيطان تانى ولايقعدوا عاطلين فى البلد.

اسمع ياوجيه - هكذا قال عبدالناصر - ماحدش من الناس يمسه ضرر لازم تشوفوا حل تانى، مفيش حد يترحل بلده الا إذا ارتكب جريمة أو خرج على القانون مفيش حاجة اسمها ترحيل الا للمجرمين لكن مفيش ترحيل للمواطن الصالح نفذوا قوانين البلاد ولاتخترعوا قوانين من عندكم.

وهكذا.. وسط هموم عبدالناصر.. ومشاكله ومشاغله، كان الذى يشغل باله لحظة وقوفه فى مطار القاهرة، مشكلة فئة من المواطنين هم الباعة المتجولون.

وكان الحل الذى حدده عبدالناصر فى عبارة قصيرة حاسمة «نفذوا قوانين البلاد لاتخترعوا قوانين من عندكم».

●●●

فى بداية الثورة رفض جمال عبدالناصر أن يترك المنزل الذى كان يسكن فيه وهو ضابط بالجيش. كان معروضا عليه اقتراحات بأن ينتقل إلى قصر القبة ولكنه رفض. ولما فشلت جميع الجهود التى بذلت لكى ينتقل إلى سكنى احد القصور التى تليق برئيس الدولة ولما أيقن الجميع أن عبدالناصر يصر على البقاء فى بيته القديم عندئذ كان لابد من اعادة النظر فى المنطقة التى حول منزل عبدالناصر ولم يكن هناك شىء على الاطلاق سوى كشك لبيع السجائر والمرطبات يقع على بعد امتار من منزل بيت

عبدالناصر ولما كان البيت سيصبح بالطبع مقصدا لرؤساء الدول وزعماء العالم فإن وجود مثل هذا الكشك وتجمع عددا من الزبائن ليلا ونهارا لا يتفق مع ماينبغى ان يتوفر من الهدوء حول منزل رئيس الدولة.

لذلك رات سلطات الأمن إزالة الكشك من مكانه ونقله إلى مكان بعيد آخر ولكن صاحب الكشك اعترض بشدة وقال لقد بنيت حياتى على وجود الكشك فى هذا المكان وأى تغيير لموقفه سيكون فيه ضرر كبير بالنسبة لى.

وسمع عبدالناصر بقصة الكشك وصاحبه فاستدعى الرجل وسأله عن احواله واستفسر منه عن ارباحه فى الشهر وعن عدد أولاده ثم أمر بتعيينه فى احدى الوظائف برئاسة الجمهورية ولايزال الرجل صاحب الكشك موجودا فى رئاسة الجمهورية حتى الآن.

●●●

انه عبدالناصر الانسان.. كان اعمق الجميع انسانية وارق الجميع قلبا واشد الجميع حساسية وأكثرهم ودا.

اتسع قلبه لحب الجميع حتى اعدائه، حتى الذين تآمروا ضده، ويوم يكشف الغطاء عن تاريخ عبدالناصر كله بتفاصيله وبحذافيره.. سيعلم الجميع أى أياد بيضاء كانت لعبد الناصر على افراد دخلوا السجون بتهمة التآمر على حياته وكانت كلمته المأثورة التى يردها دائما «وماذنب الاولاد».

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

أين أولادى وزوجتى؟!

- عبدالناصر يقف فى مكتبه خمس دقائق.. مضربا..!!

- هل تفهم معنى أن اسأل اين أولادى وزوجتى؟!

- عندما فقد عبدالناصر الأمل فى بقاء أفراد اسرته احياء..

فى ٢ سبتمر سنة ١٩٥٢ قرر مجلس الوزراء برئاسة على ماهر تأليف هيئة الوصاية المؤقتة للعرش من: الأمير محمد عبدالمنعم بهى الدين بركات محمد رشاد مهنا.

كان الملك فاروق قد تنازل عن العرش لولى عهده الأمير أحمد فؤاد فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢.

وكان أحمد فؤاد فى الشهر السادس من عمره.. فكان لابد من تعيين مجلس للوصاية على العرش.

ونحكى عن أحد الاطراف الثلاثة الاوصياء على عرش مصر الأمير عبدالمنعم وحكايته مع عبدالناصر.

فقد استمر الأمير عبدالمنعم وصيا على العرش حتى نحى من منصبه بعد إعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو عام ١٩٥٣.

كان الأمير لايعترض على ما يطلب منه، وبعد تنحيته اعتكف راضيا فى قصره بمرتب قدره ١٥٠ جنيها مصريا.

وفى سبتمبر سنة ١٩٥٨ اتصل الأمير عبدالمنعم بديوان رئاسة الجمهورية طالبا ابلاغ عبدالناصر أنه يريد السفر إلى الخارج وانه طلب تأشيرة الخروج من زكريا محيى الدين وزير الداخلية.. فرفض.

وسأل عبدالناصر كبير الامناء عن سبب سفر الأمير، فأخبره بأنه سوف يسافر إلى سويسرا لزيارة أولاده الذين غادروا مصر منذ ثلاث سنوات.

وقبل أن يستطرد كبير الامناء فى الكلام، طلب منه عبدالناصر احضار مجلة «المصور» فأحضرها.. كان فى المجلة صورة لوداع الملك فاروق على الباخرة «المحروسة» كملك للبلاد بعد تنحيته عن العرش فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٣ وصورة أخرى فى الجهة المقابلة لما حدث بعد ثورة العراق من قتل لأفراد الاسرة المالكة العراقية الهاشمية.

وقال عبدالناصر لكبير امنائه:

- شوف الفرق بين المعاملة، فبعد قيام الثورة مباشرة كانت النية متجهة من احد افراد مجلس الثورة لمحاكمة الملك وأعضاء الأسرة المالكة، ولكنى رفضت بشدة وهددت بالاستقالة لو نفذ ذلك..

وفكر عبدالناصر.

ماذا لو سافر الأمير عبدالمنعم ولم يعد..؟!

ستستفيد الدولة بقصره ويوفر لخزانتها ١٥٠ جنيها شهريا.

واصدر أمره بسفر الأمير السابق.. عبدالمنعم. وغادر الامير مصر، ولم يعد حتى اليوم.

وأصبح قصره الآن مقرا للضيافة باسم «قصر الضيافة».

وعندما ذهب إليه كبير الامناء لابلاغه بالموافقة على سفره.. بكى الأمير كثيرا وقال:

- إن هذا الموقف بذكره بما حدث عندما أبلغه اللواء محمد نجيب بإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣.. فقد بكى حينذاك وهو يسمع القرار الأخير فى حكم أسرته التى ظلت تحكم مصر زهاء ١٤٨ عاما (١٨٠٥ - ١٩٥٣).

●●●

بعد تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦، انعقد مؤتمر لندن فى أغسطس ١٩٥٦.

وبرغم انعقاده للنظر فى مسألة تأمين قناة السويس إلا أن مصر لم تستشر، بل ولم تدع إلى المؤتمر من جانب بريطانيا الا بعد مشاورة فرنسا وأمريكا، ولم يدع لحضوره سوى الدول التى رأت بريطانيا دعوتها.

وكان المفروض أن تدعى الدول الموقعة على اتفاقية الاستانة سنة ١٨٨٨ بشأن حياد قناة السويس، ولكن كثيرا من الدول لم تتلق الدعوة لحضور المؤتمر، بالرغم من انها كانت من الدول الموقعة على الاتفاقية المشار اليها.

وعلاوة على ذلك فقد دعيت للمؤتمر بعض الدول كأندونيسيا وسيلان (سيرى لانكا) والهند وباكستان وايران وأثيوليا وهى دول لم توقع على معاهدة سنة ١٨٨٨.

وقد تعمدت بريطانيا عدم دعوة الصين والمملكة العربية السعودية وباقى الدول العربية.

فقد عمدت بريطانيا ان يكون المؤتمر مقصورا على دول حلف الاطلنطى ودول «الكومنولث» واخيرا .. مصر..

كان مؤتمر للتحدى والتحكيم، وكان وسيلة للضغط على مصر وتهديدها باستعمال القوة المسلحة.

واجتمع مجلس الوزراء برئاسة عبدالناصر فى ١١ أغسطس ١٩٥٦وعرض عبدالناصر الموقف على المجلس وقرر عدم الاشتراك فى المؤتمر كما امتنعت اليونان عن الحضور.

وفى الجلسة الافتتاحية قدم جون فوستر دالاس - وزيرخارجية أمريكا - مشروعا بتدويل القناة، وقد قبل المشروع بأغلبية ثمانى عشرة دولة - كان المؤتمر يمثل اثنتين وعشرين دولة - ورفضه الاتحاد السوفيتى والهند واندونيسيا وسيلان.

ورفض عبدالناصر الاقتراح

وكانت الدول المحبة للسلام قد قررت الاضراب يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٦ بمناسبة عقد المؤتمر فى الساعة الثانية عشر ظهرا ولمدة خمس دقائق.

وتم الاضراب

وتوقفت وسائل الحياة فى مصر وغيرها من الدول.

وقد أضرب عبدالناصر أيضا.

فقد وقف فى مكتبه خمس دقائق مشاركة فى الاضراب.

●●●

حرب السويس عام ١٩٥٦ ... الطائرات الانجليزية تقصف المطارات المحيطة بالقاهرة.. والانباء تتردد بأن منزل عبدالناصر فى منشية البكرى سوف يكون هدفا للطائرات المغيرة.

الغارات شديدة.. القاهرة فى ظلام دامس.

عبدالناصر يطلب اعداد فيللا سمو الأميرة عين الحياة بالزمالك لاقامة أسرته طوال مدة الحرب.

كان المطلوب اعداد الفيللا لاقامة أسرة عبدالناصر فى فترة وجيزة لاتتجاوز يوما واحدا.

وبذلت قصاوى الجهود فى اعداد الفيللا.. وفضلت محاولة إعدادها فى الموعد المحدد، فالفيللا ظلت مهجورة طوال سنوات أربع وأصبحت فى حالة لاتسمح بالنزول فيها.

كان منزل كبير الامناء فى شارع يقع إلى جانب الشارع الذى فيه الفيللا بالزمالك، فحضرت أسرة عبدالناصر إلى منزله للبقاء فيه ريثما ينتهى اعداد الفيللا.

وبهمة لاتعرف الكلل، انتهى العمل فى الفيللا حتى أصبحت فى حالة تسمح بأن تعيش فيها أسرة عبدالناصر.

وانتقلت الأسرة للاقامة فيها. وكانت السيدة حرم عبدالناصر مسرورة بالفيللا.

وكان لابد من ابلاغ عبدالناصر باستقرار اسرته وبمحل اقامتها الجديد.

فكلف أحد سكرتيرى عبدالناصر بابلاغه بما حل بأسرته.. وفى مشاغل المعركة، بيدو أن السكرتير قد نسى لسبب أو لاخر ان يخبر عبدالناصر أين نزلت أسرته.

وفى صباح اليوم التالى قابل كبير الامناء عبدالناصر وهو على يقين من ان عبدالناصر سوف يكون عالما بما حدث، بل أنه سوف يشكره أيضا.

وبدلا من ذلك. كان عبدالناصر غاضبا وناقما وصاح فى وجه كبير امنائه:

ـ انت أب لبنتين فيما أعلم؟

ـ فقال كبير الياوران مندهشا:

ـ أجل ياسيادة الرئيس، ولكن لماذا؟

فاستمر عبدالناصر هادرا..

ـ كيف تكون أبا وتعرف طعم الأبوة، ولاتخبرنى أين أولادى. وزوجتى؟.. اين ذهب الجميع؟ هل هذه رجولة..؟.. يا ناس حرام عليكم.

كان عبدالناصر الاب هو الذى يتكلم قبل مشاعر رب الأسرة الذى يبحث عن فلذة أكباد.

وأجابه كبير الامناء:

ـ لست أفهم ماذا تقصد ياسيادة الرئيس؟

فقال عبدالناصر محتدا:

ـ بل أنت تفهم.. هل تفهم ما معنى أن اسأل أين أولادى، وزوجتى؟ اننى لم أرهم منذ الأمس ولا أعرف عنهم شيئا.. هل هذا الكلام مفهوم؟

وأخبره كبير الياوران أنه قد أخبر «فلانا» سكرتير سيادته بعد دقائق من نزول الأسرة الفيلا وان زوجته واولاده ظلوا مع الأسرة إلى ما بعد منتصف الليل.

وانفرجت أسارير عبدالناصر عن ابتسامة هادئة.. مطمئنة.

●●●

أثناء رحلة عبدالناصر الأولى إلى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٨، زار «كييف» عاصمة إحدى الجمهوريات حيث قام رئيس هذه الجمهورية بالقاء كلمة ترحيب بقدوم الرئيس المصرى والوفد المرافق له.

وكان لابد أن يرد عبدالناصر على كلمة الترحيب. ولكنه فاجأ المجتمعين على المأدبة التى اقيمت على شرفة بأن أناب عنه المرحوم فكرى أباظة لالقاء كلمة الجمهورية العربية المتحدة.

وأجفل فكرى أباظة للمفاجأة ولكنه مالبث أن سيطر على الموقف وعاد إليه ثباته حيث بدأ خطابا يتميز بخفة الروح والدعابة التى امتازت بها أحاديثه وقال بصوت جهورى وكأنه يخطب فى جمهور النادى الأهلى:

«أيها السادة ـ إننا نشكر لكم جميل لقائكم وأشهد اننى عندما كنت فى لندن وكنت احتسى الويسكى، كان الويسكى ممزوجا فى فمى بدم الشعوب المستعمرة، وعندما ذهبت إلى باريس وشربت خمور باريس المعتقة سواء من الكونياك أو النبيذ احسست بالمتعة والترف والبذخ ومعاصر العنب فى الجزائر ودماء الشهداء فى جميع أنحاء المغرب العربى، ولكنى عندما هبطت إلى دياركم وتجرعت الفودكا، كان طعم الفودكا فى فمى شهيا لانه طعم الصداقة والمحبة التى تربط بين قلوب شعبينا.

وانتهت كلمة فكرى أباظة بين التصفيق..

وكان موفقا فى التخلص من هذا المأزق الذى أراد أن يوقعه فيه عبدالناصر.

●●●

عبدالناصر فى بريونى..

وكان محددا لرجوعه والوفد الموافق يوم ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨، وهو اليوم الذى أطاح فيه الجيش بالحكم الملكى فى العراق..

وقد وصلت أخبار الانقلاب اثناء مادبة الغذاء التى اقامها عبدالناصر على الباخرة «الحرية» تكريما للرئيس اليوغسلافى الراحل جوزيف بروز تيتور والسيدة قرينته.

وقد رجا الرئيس تيتو بحرارة عبدالناصر البقاء فى بريونى حتى تتكشف أبعاد الموقف الملتهب فى الشرق الأوسط اثر أحداث العراق ونزول جنود الأسطول الأمريكى فى لبنان واحتلال القوات البريطانية لجزء من الاردن.

ودام اجتماع عبدالناصر بتيتو أكثر من ساعتين فى صالون «الحرية» وكان تيتو يحذر عبدالناصر من السفر بسبب أخبار قد وصلته عن طريق المخابرات اليوغسلافية بأن مؤامرة تدبرها بعض الدول لضرب «الحرية» التى تقل «عبدالناصر» واغراقها ومن عليها، وكان فى لهجة تيتو الخوف والتحذير، ولكن عبدالناصر لم يعبأ بالمخاطر وصمم على مغادرة يوغوسلافيا وطمأن تيتو ان «الحرية» تحرسها طرادتان هما: الناصر والقاهرة لرد أى اعتداء كما أمر تيتو باعداد بارجتين يوغوسلافيتين لحراسة الباخرة المصرية.

وأبحرت «الحرية» فى رعاية الله.

ومضت فى طريقها إلى الاسكندرية بعد ان صدرت الاوامر باطفاء الانوار وإعلان حالة الطوارىء عليها.

وكانت الباخرة تضم افراداً عسكريين ماعدا ثلاثة مدنيين هم: الدكتور محمود فوزى وكان وزيراً للخارجية ومحمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وكبير الامناء.

واطلقت صفارة الانذار على سبيل التجربة لكى يأخذ كل منهم مكانه فى قارب الانذار بما فيهم عبدالناصر وأسرته عند وقوع أى غارة على الباخرة.

ومرت ليلة دون أن يذوق ركاب «الحرية» للنوم طعما.

وفى الصباح الباكر وصلت برقية من يوغوسلافيا إلى الطراد اليوغوسلافى مضمونها أن الاتحاد السوفيتى يطلب ذهاب عبدالناصر إلى موسكو وانه قد أعدت طائرة خاصة سوفيتية تقل عبدالناصر إلى العاصمة الروسية.

وقرر عبدالناصر أن يعود إلى بريونى على طراد يوغوسلافى بسرعة لكى يستقل الطائرة إلى موسكو.

وودع عبدالناصر رفاقه بتأثر شديد وأوصاهم خيرا بأسرته وأولاده.

وسافر وبصحبته الدكتور فوزى وحسن صبرى الخولى.

وتوالت البرقيات بأن «الحرية» فى طريقها إلى الاسكندرية دون أن تغير مسارها وعليها عبدالناصر والوفد... بينما كانوا فى طريقهم إلى بريونى.

وتوقفت «الحرية» خارج المياه الاقليمية حتى لايراها أحد وعاد الطراد فى الحال إلى المياه الاقليمية خفية.

ووصلت «الحرية» إلى بريونى ونزل الوفد فى لنشات سرا فى فيللا «بريونكا» دون أن يرى أعضائه أحد لدرجة ان الرئيس تيتو كان يتوجه يوميا إلى الفيللا وسيارته محملة بالطعام لطهيه فى الفيلا وحظر عليهم فتح النوافذ أو النزول إلى الحديقة أو خروج أحد الخدم حتى لاتنتشر الأخبار فى الجزيرة بعودتهم اليها.

وقضوا فى هذا السجن أربعة أيام..

وفى خلال فترة الاعتقال هذه - كان عبدالناصر قد وصل إلى موسكو ومنها إلى دمشق حيث أعلن عن وصوله إلى الأرض السورية سالما.

وافرج عن أعضاء الوفد.. وخرجوا إلى الجزيرة بين دهشة سكانها لوجود غرباء لايعرفون واقعة اعتقالهم.

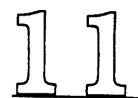
واتصل بالوفد من دمشق حسن صبرى الخولى وطالبهم بالعودة فى اليوم التالى إلى القاهرة بطائرة خاصة.. وطلب تكتم الخبر.

وتحركت الطائرة حسبما اراد حسن صبرى الخولى ووصلت إلى مطار أبو صوير - بالقرب من الاسماعيلية - فى يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٨ بعد ان فقد عبدالناصر كل أمله فى بقائهم على قيد الحياة لانه كان قد اصدر تعليمات بوصول الطائرة الساعة الثالثة.

واضطر عبدالناصر أن يبرح منزله لالقاء خطاب بمناسبة أعياد ثورة يوليو وقد فقد الأمل فى بقاء أفراد أسرته أحياء.. فقد كانوا بصحبة الوفد المتخلف فى بريونى والعائد بالطائرة. وابلغ عبدالناصر باللاسلكى أمام مسرح الجمهورية بعودتهم سالمين.

وتنفس عبدالناصر الصعداء.. وألقى خطابه.. وعاد إلى منزله.. وإلى أسرته.

■ ■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

رجل صعيدى !!

ـ لا اتصور شيئا يمكن أن يحرم الإنسان من اغنيته..
وضحكه..

ـ أنا رجل صعيدى.. رجعى فى البيت.. لا أطيق أن أرى
زوجتى تضع يدها فى ذراع اخر ولو كان ملكا.

ـ ندهولى علشان أطفى الشمع.. قلت أنا عمرى
ماطفيت شمع فى حياتى..

فى الذكرى العاشرة للثورة الصينية، سافر وفد مصرى ـ مدعو للمشاركة فى احتفالات الثورة..

وعاد الوفد.. وسألهم عبدالناصر عما رأوا هناك فقالوا له فى شىء من الاعجاب:ـ

ـ إنهم غيروا وجه المجتمع هناك بطريقة حاسمة وقضوا نهائيا على سيئات نتمنى نحن لو استطعنا القضاء عليها.. وحققوا أشياء فى مدة قصيرة مازلنا نحن نحلم بتحقيقها.. لقد حققوا النظام والنظافة.. وقضوا على الفوضى والتكاسل والاهمال والذباب.. وبات كل انسان يعمل ما يجب أن يعمله..

وسأل عبدالناصر..؟

ـ وكيف يبدو المجتمع..؟

واستعاد أحدهم فى ذهنه صورة المجتمع الصينى وقال له:

ـ يبدو الناس بثيابهم الموحدة وحركتهم السريعة ـ ووجوهم الصارمة.. كأنهم معسكر مستجدين للجيش.. كل يؤدى الواجب المطلوب منه فى غير تلكؤ فى الخطى دون لحظة واحدة يضيعها فى غير العمل.

وشرد عبدالناصر ببصره.. ثم هز رأسه قليلا:

ـ الحياة شىء أكبر من هذا .. والانسان فى نظرى أقيم من هذا.

ـ عندما اذكر، وصمت برهة ثم اردف وهو ينظر إلى بعيد:

عندما أذكر عامل البناء وهو يضع القصعة على كتفه ويصعد السقالة وينشد أغنية

فى مرح.. أحس ان لاشىء يستحق أن يسكت اغنيته أو يضيع بسمته.. لست من أنصار تضحية جيل من أجل جيل.. يجب أن يأخذ كل جيل حقه فى الحياة.. ونحن شعب.. نضحك ونعمل.. ونغنى ونعمل.. ولا أتصور شيئا هناك يمكن أن يحرم الانسان من أغنيته.. وضحكته.

فقد كان عبدالناصر انسانا.. يحس الانسان ويحب الانسان..

ورغم مثاليته فى حياته.. فما حاول قط أن يؤخذ الانسان بهذه المثالية.. أو يحاسبه على أساسها.

فقد كان يعرف أن الانسان انسان.. بكل صفاته وسيئاته.. بكل قدراته ونزواته.. ولم يحاول أن يحجر على حرية الانسان كانسان.. كان يعرف علام يحاسبه.. وعلام يترك لله أن يحاسبه.

ومن أجل هذا لم يحرم عبدالناصر.. الناس.. ضحكتهم.. ولا أغنيتهم.. فانطلقوا.. يعملون.. ويغنون.. ويضحكون ولأجل هذا أحبه الناس..

●●●

فى عام ١٩٦٠ قام عبدالناصر بزيارة رسمية لليونان وبصحبته السيدة الجليلة قرينته.. وكانت القواعد التى تصفها المراسم تقضى بأن تضع حرم عبدالناصر يدها فى ذراع جلالة الملك المضيف وأن تضع جلالة الملكة يدها فى ذراع عبدالناصر فى أثناء نزولهم إلى قاعة العشاء.. وأن يمروا بين المدعوين فى طريقهم إلى المائدة.

ولكن عبدالناصر رفض الإذعان لقواعد المراسم وأصر على الرفض اصرارا كبيرا جعل كبير أمناء عبدالناصر يلجأ إلى مدير المراسم الملكية يخبره بقرار عبدالناصر.

ويبدوا أن مدير المراسم الملكى لم يجد متسعا من الوقت لابلاغ رغبة عبدالناصر إلى ملك اليونان.

وحدث أن صعد الملك والملكة لكى يصطحبا عبدالناصر وحرمه إلى المأدبة حسبما تقتضى قواعد المراسم.

ونزل الجميع، وكان الأمر مربكا بشكل كبير إذ كلما أراد ـ الملك أن يجعل حرم

عبدالناصر تضع يدها فى ذراعه يرى حرم الرئيس تزور عنده، كذلك عندما كانت تريد الملكة أن تضع يدها فى ذراع - عبدالناصر يجعل الرئيس ويرتبك ويحاول أن يتملص..

وانتهت الليلة على خير.. وكان تعليق عبدالناصر بعد ذلك:

- أنا رجل صعيدى رجعى فى بيتى.. لا أطيق لن أرى زوجتى تضع يدها فى ذراع آخر ولو كان ملكا..

●●●

لم يحاول عبدالناصر قط أن يجعل من الفن وهو زاد الناس الروحى فى الحياة.. أداة فى يد الحكم.. بل كان يقاوم هذا بكل ما يملك من سلطان.

منح الفنانين الاصلاء.. التقدير المطلق.. لانهم فنانون اجلاء.. فلم يشعر أحد منهم.. انه يحتاج لكى يحصل على التقدير والتكريم.. إلا أن يكون فنانا أصيلا.. وأن يحبه الناس.

وأكثر من هذا.. لم يمنح التقدير لشىء وضع عن عمد لمجرد المدح أو النفاق.. حتى لايجعله بابا للتسابق أو أسلوبا لنيل التقدير.. وكان يعرف أن أقيم ما يمكن أن يمنحه للفنان هو حريته..

فى أول مؤتمر للادباء العرب عقد فى القاهرة فى عام ١٩٥٨ ذهب الأدباء إلى قصر القبة ليستقبلهم عبدالناصر بعد نهاية المؤتمر.. وقبل أن يدخل الأدباء سأل.

- العقاد موجود؟

- قالوا له:

- أجل

وابتسم قائلا

- أول مرة أراه فيها..

ثم استطرد يقول:

- كنت دائما معجبا بالعقاد.. ولاسيما فى الفترة التى خرج فيها على الوفد.. وكان يكتب فى روز اليوسف اليومية.. وصمت برهة.. ثم قال ضاحكا..

- خلال الحرب العالمية كان يكتب مؤيدا للحلفاء.. واتهمه البعض أنه عميل لهم.. أنا لا أكره أن يكتب الكاتب فى أى اتجاه.. بشرط أن يكون معبرا عن رأيه.. وليس عميلا لاحد..

●●●

قام جمال عبدالناصر برحلة إلى جده فى ابريل عام ١٩٥٦ لمقابلة المغفور له الامام أحمد - إمام اليمن - والمغفور له الملك سعود - ملك المملكة العربية السعودية.

ولكن الوفد المصرى برئاسة عبدالناصر نزل فى جناح بقصر الضيافة الكبير بجدة وإلى جانبه فى جناح آخر نزل الوفد اليمنى.

وأراد عبدالناصر أن يبادر بزيارة الامام احمد فى جناحه الخاص لأسباب منها أن الامام كان مصابا بالشلل وانه كان يكبر عبدالناصر فى العمر..

وقد ابلغ الامام برغبة عبدالناصر فى زيارته وحدد لهذه الزيارة صباح الاحد ٢٢ أبريل سنة ١٩٥٦.

وفى الصالون الرئيسى الملحق بجناح الامام أحمد جلس عبدالناصر إلى يمين الامام وبعد برهة وجيزة حدث شيء طريف.. لايمكن للانسان أن يتصوره بأى خيال.. اذ تسلل من تحت المقاعد حوالى أربعين طفلا لاتزيد أعمار كل منهم على عشر سنوات وساد الهرج والمرج وصياح الاطفال من حول عبدالناصر مهللين يلعبون وكان الأمر لايعنيهم فى كثير أو قليل..

وعقدت الدهشة الالسنة وألجمتها.. و افتر ثغر عبدالناصر عن ابتسامة صغيرة اراد أن يدارى بها دهشته فى حضرة الامام.

قال الامام لعبدالناصر

- هؤلاء أحباب الله..!!

●●●

كان الامام أحمد يزمع السفر إلى ايطاليا للعلاج وطلب عبدالناصر أن تقله الباخرة «الحرية» فى هذه الزيارة، فوافق عبدالناصر: وغادرت.. «الحرية» السويس إلى اليمن..

ولكن لم يسمح لها بالدخول إلى ميناء تعز وبقيت خارج الميناء ونفدت المياه العذبة والطعام والسولار...

وعلم أن الامام أحمد لاينتوى الذهاب «بالحرية» خشية أن يقتل بالسم أو يدبر له مؤامرة تؤدى بحياته وهو على «الحرية»

ويسافر الامام إلى ايطاليا، وعادت الحرية إلى مصر بأمر من عبدالناصر بعد أن ساءت حالة البحارة وطاقم السفينة.

واتصل بعد ذلك سفير المملكة اليمنية المتوكلية وطلب ابلاغ عبدالناصر رغبة الامام فى أن يعود بالحرية من ايطاليا بعد مداواته.

ووافق عبدالناصر بشرط أن يعود الامام بالفعل عليها واعطاء مصر تأكيدا مسبقا بهذا الالتزام..

وتعددت البرقيات والمكالمات.. ولكن لم تستطع مصر الحصول على تأكيد بأن الامام أحمد سوف يعود على الباخرة.

وعلم أن الامام فى القاهرة استقل الباخرة «سدنى» وانه سوف يمر عبر المياه المصرية عن طريق قناة السويس فى طريقه إلى اليمن واستعد عبدالناصر لاستقباله فى بورسعيد وعندما قابله على ظهر الباخرة فى الصالون الملحق بها وجد على الباب حراسا مدججين بالسلاح وشاهرى المدافع الرشاشة.

ودخل عبدالناصر.. وحيا الامام وجلس إلى جواره.. ودخل الحراس أيضا إلى الصالون.. حاملين السلاح.

ومن الملاحظ أن هذه كانت المرة الأولى فى تاريخ العالم التى يتقابل فيها رئيسا دولتين صديقتين فى ظل المدافع الرشاشة.

●●●

كان احد الوزراء قد طلبت احالة احد وكلاء وزارته على المعاش بمجرد أن تولى الوزارة..

وقال عبدالناصر وهو يروى الحادث..

ـ قلت لاجدال فى أن لك حرية اختيار ومعاونيك ـ ولكن ـ أليس من الافضل الا تصدر عليه حكما مسبقا.. وان تترك له فرصة العمل معك حتى تثبت عدم صلاحيته ثم تستغنى عنه.

وعرض الوزير استقالته..

وأصر عبدالناصر على أن يبقى الوكيل قائلا..

أنا لم ألق هذا الوكيل ولا أعرفه.. ولكنى أقول لنفسى إذا كنت مسئولا عن أن اوفر له الرزق.. وارفع عن الظلم .. افلا أوفر لهذا الوكيل ما أوفره للفرد العادى.. وبقى الوكيل.. ولم يستقل الوزير..

زار جمال عبدالناصر مدينة كوم أمبو.. وكان مما لفت نظره مايلى:

ـ رأيت العمال فى فترة الغداء كل عامل يأكل رغيف عيش شمسى وبصلاً.. رأيتهم يأكلون بهذا الشكل.. هل هذه حياة نرضى بها وهل هذه حياة يقبل أحد أن يعيش فيها.

●●●

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء ـ ويوسف السباعى ـ رحمه الله ـ فى طريقه إلى بيت عبدالناصر بمنشية البكرى، كان البيت يقع على مسيرة خطوات من بيت يوسف السباعى.

أرسل يوسف السباعى بطاقة إلى عبدالناصر طالبا لقاءه ليدعوه لمشاهدة فيلمه «انى راحلة» وليتحدث إليه فى بعض شئون نادى القصة.

ودعى يوسف السباعى ليلقاه فى إحدى حجرات البيت المنخفض المتواضع الخشن الذى كان يقطنه من قبل ناظر المدرسة الثانوية العسكرية.. اقبل عليه عبدالناصر بقامته الطويلة مرتديا صديرياً من الصوف فوق القميص والبنطلون وشد عليه بيديه باسما مرحبا كما صافح جمال سالم وعلى صبرى.

جلسا يتحدثان حول الادب والقصة، أنبأه عبدالناصر أنه طلب من عبداللطيف

البغدادى بصفته رئيسا لمجلس الخدمات بأن يعد لنادى القصة له مكانا لائقا به.. كان يتحدثو عن «رد قلب» رواية يوسف السباعى ـ فقال له عبدالناصر أنه كان يؤجل قراءتها فى مجلة التحرير حتى تجمع فى كتاب ـ ولكنه يجد أن قراءتها الآن فى كتاب بعد أن بلغت ألف صفحة أضحت مشكلة عسيرة..

وسأله عبدالناصر أن يشرب شايا أو قهوة فاعتذر.. وبعد برهة دخل الخادم بثلاث صحاف باحداها بتى فور وفى الأخرى بضعة ساندويتشات وفى الثالثة تورتة صغيرة بيضاء. وتناول يوسف السباعى احد الساندويتشات وبضعة قطع البتيفور واخذ يرقب التورتة الصغيرة وبنفسه شيء من الدهشة حاول ان ـ ان يخفيها واخذ يسأل عن سر البتى فور والتورتة والساندويتشات هل هى إحدى المظاهر المحترمة للكرم ولكنه تذكر انه زار عبدالناصر من قبل فلم يقدم له سوى فنجان قهوة كأى مضيف عادى.

وعندما انتهى يوسف السباعى من زيارته وخرج.. التقى عند الباب الخارجى بعلى صبرى ـ كان وقتها مديرا لمكتب عبدالناصر ـ فصافحه متسائلا فى دهشة..

ـ ايه حكاية التورتة دى؟

وضحك على صبرى وأجاب:

ـ عشان عيد ميلاد الرئيس

كانت التورتة صغيرة جدا.. اصغر من التى احتفل بها فى عيد ميلاد اسماعيل ابنى ـ يقول يوسف السباعى لنفسه مستطردا ـ والبتى فور .. والساندوتشات «مع عدم المؤاخذة» كان صغيرا.. والمدعوون كانوا ثلاثة.. لم تجمعهم سوى المصادفة..

وجد يوسف السباعى ان التورتة قد غررت به.. واحس انه مقصر فى تهنئة عبدالناصر وان ما تناول من الساندويتش والبتى فور كان يوجب عليه أن يقول له ولو «كل سنة وأنت طيب»:

وقال لعلى صبرى:

ـ طيب يا أخى مش كنت تفهمنى عشان أقول للراجل كل سنة وأنت طيب.. وعاد ادراجه مرة أخرى.. وطرق الباب الزجاجى المطل على الشرفة ونهض عبدالناصر وفتح

له ومد له يوسف السباعى يده مصافحة وهو يتمتم ضاحكا فى شىء من الخجل.

ـ لامؤاخذة ياريس.. أنا ماكنتش أعرف.. كل سنة وأنت طيب.

وضحك عبدالناصر قائلا.

ـ أنا كما ماكنتش عارف.. الجيار ـ سكرتير عبدالناصر ـ هو اللى عملها فى.. ولما الولاد جم يندهولى عشان اطفى الشمع قلت أنا عمرى ماطفيت شمع فى حياتى.

وصمت عبدالناصر برهة ثم اردف وعلى شفتيه باتسامة عريضة:

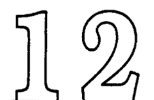
ـ أنا النهاردة كمان جبت ولد.. سميته عبدالحكيم.. على اسم عبدالحكيم عامر..

●●●

وإذا كان جمال عبدالناصر لايعرف كيف يطفىء الشموع.. فلاشك أنه كان يعرف كيف يوقدها..

فكم من الشموع أوقدها عبدالناصر فى وطننا.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

لماذا نأكل اللحم؟!

- ورث عن ابيه عناد فلاح الوجه القبلى وعزته وعن أمه الحساسية وسرعة الخاطر والأهتمام بكل ما هو جديد..

- سأل أباه: لماذا نأكل نحن اللحم؟.. والفلاحون الذين يرعون الماشية لا يأكلونها؟..

فى عام ١٨٨٨ كان ميلاد عبدالناصر حسين والد جمال عبدالناصر.

كان الميلاد فى قرية بنى على بعد ٤ كيلو مترات إلى شمال شرق أسيوط.. وكانت الحياة فيها منذ ٩٠ عاما مختلفة عما عليه الآن.. لذا لم يكن فى القرية مدرسة رسمية أو خاصة ولم يكن مدير مديرية أسيوط أو مأمور مركز ابنوب الذى تقع قرية بنى مر فى زمامه يذكر القرية إلا عند جباية العوايد.. ولم يكن التجنيد يأخذ من ابنائها إلا القليلين ذلك أنه أثر ثورة عرابى والاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ كان الجيش المصرى قد حل ثم اعيد تكوينه على نطاق ضيق تحت أمرة الضباط الإنجليز.

بحسب إحصاء ١٨٩٧ كان تعداد القرية ٢٠١٧ نسمة وكان الافتقار إلى الأراضى أقل حدة مما هو عليه الآن فلم يكن تعداد مصر. الذى يبلغ الآن ٤٣ مليون. يتعدى ٧ أو ٨ ملايين نسمة.

ولما كانت مساحة الأراضى التى تحيط ببنى مر تقرب من الفى فدان فهذا يعنى أنه كان هناك فدان من الأراضى الزراعية لكل ساكن.

كانت الأرض تكفى لإطعام سكان بنى مر.. وكانت زراعات. القطن وقصب السكر تسمح بدفع الضرائب السنوية وبشراء بعض الأقمشة من نساجى بلدة أخميم القريبة من قريتهم.

لم تكن الأرض فى بنى مر مملوكة لأهالى القرية إلا جزئيا فقد كان عدد كبير من الملاك يقيمون فى أسيوط أو فى أبنوب أو فى جهات أخرى.. وكانت الإيجارات التى يدفعها المزارعون تبتلع جزءا كبيرا من الدخل الزراعى.. وكانت زيادة السكان تثير كل عام مشكلة اطعامهم.

فى عام ١٩٠٠ أى بعد مضى اثنتى عشرة سنة من مولد عبدالناصر حسين ـ والد جمال عبدالناصر.. قرر أرباب الأسر الرئيسية فى القرية التعاون فى بناء غرفة صغيرة فوق سطح المسجد يقوم فيها الشيخ أحمد قرامة بتعليم أبنائهم.. فكان يعلمهم القراءة والكتابة وبعض سور القرآن عن ظهر قلب.

حسين خليل سلطان والد عبدالناصر حسين وجد جمال عبدالناصر كان أحد أرباب الأسر فى القرية وكان ابنه الصغير «عبدالناصر» أول من التحق بكتاب الشيخ أحمد قرامة.

أسرة «سلطان» وهى الأسرة التى ينتمى إليها جمال عبدالناصر كانت تقيم فى الحى الشمالى لقرية بنى مر ويدعى «ركن أسرة سلطان» وقد كانت الأسرة معروفة بشجاعتها وبكرمها وبذكائها وتعيش عيشة متواضعة من فلاحة الأرض.. فقد كانوا من صغار الملاك.

عندما تعلم عبدالناصر حسين القراءة والكتابة فى كتاب بنى مر لم يتمكن من الذهاب إلى المدرسة الابتدائية فى أسيوط لسيبب بسيط هو أنه لم تكن هناك مدرسة ابتدائية فى تلك المدينة البالغ مقدارها فى تلك السنوات ٣٩٠٠٠ نسمة وهذا يعطينا فكرة عن كيف كانت مصر فى تلك السنوات الذى كان المفتشون الإنجليز يديرون فيه التعليم فى وادى النيل.

ولكن كان فى أسيوط مدرسة ابتدائية أقامتها الطائفة القبطية ولم تكن المدرسة مخصصة لصغار المسيحيين وحدهم إذ كانت تقبل التلاميذ المسلمين كذلك.

بعدما تبين الفلاح حسين خليل سلطان حسن استعداد ابنه عبدالناصر، فقد سعى فى إدخاله مدرسة أسيوط القبطية الواقعة على بعد ٤ كيلو مترات من قرية بنى مر، والتحق بها منذ عام ١٩٠٤ وحصل فيها عبدالناصر حسين على شهادة الدراسة الابتدائية عام ١٩١٣.. وأتاحت له هذه الشهادة الالتحاق بمكتب البريد وكان من أول من شغل منصبا حكوميا من أبناء قريته.

وأرسلته إدارة البريد إلى الاسكندرية فى بداية الحرب العالمية الأولى واقترن فيها ١٩١٧ بكريمة المقاول محمد حماد الذى كان يقطن الاسكندرية ولكنه مثله فى الوجه القبلى، من ملوى بمديرية المنيا.

كان محمد حماد جد عبدالناصر لأمه تاجرا للفحم.. وكان على صلة بأحد أخوة عبدالناصر حسين واسمه سلطان كان كذلك يتاجر بالفحم قبل أن يتولى شئون الجمعية التعاونية للبترول فى المنيا.

كان عبدالناصر حسين فى الاسكندرية موظفا فى البريد فى ١٥ يناير عام ١٩١٨ عندما رزق بابنه البكر فأطلق عليه اسم جمال.. وفى عام ١٩٢١ ارسلته مصلحة البريد إلى مصلحة البريد فى أسيوط، فقد جرت العادة فى المصالح الحكومية فى مصر أن ترسل موظفيها إلى كل ركن من أركان مصر كانت تحتاج فيه إلى موظف وفى عام ١٩٢٣ أرسل إلى «خيل العرين» بالقرب من السويس.. ثم نقل إلى الخطاطبة وهى قرية صغيرة نائية عن حافة الصحراء الغربية على بعد ٤٠ كيلو مترا من شمال غرب القاهرة.. ثم أرسل إلى دمنهور.. ثم إلى الاسكندرية إلى أن عين أخيرا فى القاهرة فى مكتب فى حى من أحياء العاصمة.

أينما كان يحل عبدالناصر كان يصطحب أسرته وإذا لم تكن هناك مدرسة فإنه كان يترك لأقارية أولاده الذين كانوا يتابعون دراستهم الابتدائية أو الثانوية وكانت حياته حياة الموظف الصغير الشاقة الذى يتقاضى مرتبا متواضعا والذى انتزع من بلدته دون ملك أو رأسمال وتشغل أفكاره مشكلة موازنة ميزانية الأسرة.

هناك عنصران ساعدا عبدالناصر حسين على أن يعطى ابنه جمال صورة للعالم وروحا متفتحة تختلف عن الروح التى يتحلى بها ابن الفلاح ذلك أن عبدالناصر حسين بالتحاقه بكتاب بنى مر ثم المدرسة الابتدائية القبطية بأسيوط وتنقلاته فى أنحاء مصر وبزواجه عن ابنه تاجر متيسر الحال فى الإسكندرية كلها عوامل قد ساعدته على الخروج من البيئة المغلقة التى يعيش فيها الفلاح المصرى.

هذه العوامل مثلت قفزة عظيمة من وجهة النظر الاجتماعية بالقياس للجيل السابق لا تقل فى قيمتها عن القفزة التى حدثت فى الجيل التالى وجعلت من التلميذ الصغير جمال عبدالناصر طالبا وطنيا وضابط ثوريا ثم زعيما قوميا وزعيما للأمة العربية.

إوذا افق الفتى جمال عبدالناصر فى هذا الجيل الثانى قد اتسع كل هذا الاتساع

فذلك كما يذكر جورج فوشهة فى كتابة عبدالناصر وصحبه ورث عن أمه هبات الحساسية وسرعة الخاطر والاهتمام بكل ما هو جديد.

وهى هبات تكمل وتصحح الميول الإرادية العديدة للمحافظة للصعيدى، فلاح الوجه القبلى.

فقد ورث جمال عبدالناصر عن أبيه عناد فلاح الوجه القبلى وعزته كما ورث عن أمه الميول الاسكندرانية من طبعه.. روح البحر المتوسط المتسعة الأفق الماهرة، المجدة فى الاهتمام بكل ما يتعدى الأفق اليومى وبالتالى بكل ما هو جديد.. روحا ثورية.

كانت الإسكندرية دائمة مدينة تجارية دائبة الحركة والنشاط لا تهدأ متصلة الأجناس متباينة الأديان مما أثار فيها الكثير من المشاحنات والمناقشات والفتن فالاسكندرانى شخص متعدد المواهب والقدرات جرىء، مطبوع بطابع الجرأة والاقتحام والفردية.

وأسرة فاطمة محمد حماد ام جمال عبدالناصر كأسرة سلطان، أصلها من صعيد مصر من ملوى التابعة لمديرية المنيا - محافظة المنيا - غير أن العمل كمقاول فى الاسكدرية يتطلب غير ما يتطلبه العمل كمزارع أو كموظف بمكتب البريد فقد كان صعبا أن تجد تفسيرا لروح جمال عبدالناصر الثورية المتوثبة وروحه المتسعة الأفق لو كان أبوه قد اقترن بفتاة قروية وديعة من قريته الصغيرة من بنى مر ولو كان نقله إلى الاسكندرية والتحاقه بمصلحة البريد لم يتخذ رفيقة لحياته فتاة صعيدية تشبعت بجو الاسكدرية الرحيب.

استقر المقام بموظف البريد الشاب عبدالناصر حسين فى الاسكندرية حتى دعا إليه أخاه «خليل حسين» لمتابعة الابتدائية والثانوية.. كان خليل حسين الثالث بين أفراد الأسرة الذين تحرروا من عبودية الأرض، فقد اتيح له أن يصبح موظفا بوزارة الأوقاف والأخ الأكبر «سلطان» أخذ يرتزق من تجارة الفحم ويعوض بها عدم كفاية الدخل الزراعى، كان عبدالناصر هو الأخ الثانى فى ترتيب أخوته، وبقى ثلاثة آخرون هم.. عبدالباسط حسين وقد توفى عام ١٩١٨، وعطية حسين، وطه حسين فى القرية لزراعة الأفدنة القليلة المملوكة للأسرة والتى يتكون منها ثراؤها.

وفى أوائل عام ١٩١٧، وفى الاسكندرية، تزوج عبدالناصر حسين من كريمة التاجر المقاول محمد حماد، كان عبدالناصر حسين موظفا فى مكتب بريد باكوس، كانت باكوس بضواحى الاسكندرية فى تلك السنوات والآن تقع فى قلبها - وكان يقيم بشارع الدكتور قنواتى فى فيلا صغيرة مشمسة مستقلة بذاتها خالية من جوانبها ومكونة من خمس غرف وملحق بها حديقة صغيرة يحلو فيها استنشاق الهواء العليل.

فى تلك السنوات الخوالى، كانت الإقامة فى ضواحى الاسكندرية تشبه نوعا ما الإقامة فى الريف، لأن المبانى فى تلك السنوات الأولى من القرن العشرين كانت تفصل بينها مسافات كبيرة، وكانت أشجار النخيل والأشجار المختلفة التى تعشش فيها الطيور تنمو بكثرة بين المنازل.

وفى عام ١٩١٨، فى هذا الإطار المتواضع، ولد جمال عبدالناصر، كان إطارا صحياً لا يخيل إلى ناظره أنه فقير، فقد كان فى وسع عبدالناصر حسين أن يستقبل الأقارب والأصدقاء فى صالون منزله الصغير الذى تزينه صور الأسرة والآيات القرآنية.

وكان مرتب عبدالناصر حسين - موظف مكتب بريد باكوس يتراوح بين ٦ و٨ جنيهات، يدفع منهم إيجار هذه الفيلا ويعيل أسرته فى حشمة وستر.

ولكن كيف أمكنه أن يدبر ذلك بهذا المرتب المتواضع وقد كان لا يملك ثروة خاصة.. لابد أن العون كان يجىء عبدالناصر حسين من أسرة زوجته.. كان عبدالناصر حسين يبلغ من العمر ٢٩ عاما عندما أقام مع زوجته الشابة فى فيلا باكوس.. كان مكتبه يتولى شئون بريد مركز تجارى لضاحية باكوس الرائجة، كانت الضاحية تربطها بوسط المدينة مركبات الترام حيث النشاط والبهجة والمرح..

وعندما بلغ جمال عبدالناصر الثالثة من عمره أخذ والده يفكر فى الحاقه بالمدرسة ولقد وجد فى حى محرم بك روضة للأطفال كان يطمع فى إلحاق طفله الصغير بها. ولكن فى نفس العام - ١٩٢١ - انتقل إلى أسيوط حيث وجد نفسه فى مدينة قريبة من قريته.

واستقرت الأسرة الصغيرة فى أسيوط سنتين، من ١٩٢١ إلى ١٩٢٣، وزاد عدد افرادها، ثم نقلت الأسرة الصغيرة من جديد إلى قرية متواضعة، إلى الخطاطبة حيث

بقى عبدالناصر حسين ثمانى سنوات بها من ١٩٢٣ إلى ١٩٣٠.

الخطاطبة - قرية صغيرة مستكينة، لم يكن يوجد بها مدرسة ابتدائية، بل كانت فيها مدرسة أولية تابعة لمصلحة السكك الحديدية يؤمها أبناء الموظفين أما أبناء الفلاحين فعليهم أن يبحثوا عن مدرسة لأنفسهم.

الكل يعلم فى الخطاطبة أن جمال عبدالناصر قد أقام فى القرية وتردد على مدرستها الأولية عاما بأكمله.

فى القرية، منزل من اللبن المطلى بالجير، أوى عام ١٩٢٣ مكتب البريد وأسرة موظف البريد.. جمال عبدالناصر حسين.

كانت الخطاطبة قرية صغيرة مسكينة مجردة من كل شىء..

فهى على حافة الصحراء، يمر بها خط سكة حديد فرعى يربط القاهرة بدمنهور ويستخدمه سكان غرب النيل.. ومن الخطاطبة كان يمتد خط سكة حديد ضيق تابع لشركة الملح والصودا الإنجليزية ويخترق الصحراء بطول ٦٠ كيلو مترا ليصل إلى واحة وادى النظرون حيث البحيرات المملوءة بالملح وبكربونات الصودا المعروف بالنطرون الذى كان يستعمله القدماء فى تحنيط الجثث وفى تبيض الكتان وصناعة الزجاج ويستخرج منه اليوم حمض الكبريت.

والتحق جمال عبدالناصر بمدرسة الخطاطبة الأولية، وواصل بها عامى ١٩٢٣ و١٩٢٤ فى تعلم القراءة والكتابة، كانت المدرسة تابعة لمصلحة السكة الحديد، بالخطاطبة.. ثم أرسله والده إلى القاهرة حيث عمه خليل حسين موظف الأوقاف الذى الحقه بمدرسة النحاسين الابتدائية.

كان جمال عبدالناصر فى السابعة من عمره عندما أرسله والده إلى القاهرة حيث عمه خليل سلطان ليقيم تحت إشرافه ورعايته.

كان خليل حسين موظفا فى وزارة الأوقاف، له فوق راتبه دخل إضافى من عمله فى التجارة وتأجير الأراضى وغير ذلك من أعمال يقوم بها فى أوقات فراغ من عمله بوزارة الأوقاف..

لم يرزق خليل أولادا.. فاتخذ من جمال عبدالناصر ابن أخيه الصغير ابنا له، يحيطه بحبه ورعايته وحنانه.

مدرسة النحاسين الابتدائية بالصاغة.. حيث ألحق جمال عبدالناصر، تقع فى حى يمتاز من بين أحياء القاهرة بطابعه المحلى الشائق حيث يقع بالقرب من سوق خان الخليلى التجارى، وجامع الأزهر وجامعته الإسلامية الكبرى.

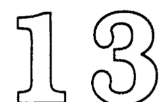
كان جمال عبدالناصر فى السابعة من عمره، طفلا قوى البنية، أطول قامة من رفاقه، وكان رزيناً، يستأنس بالوحدة كثيرا، ويشرد باله أحيانا، حتى أنه كان يميل إلى إهمال مأكله وملبسه ودراسته، وكانت والدته التى يكن لها أعمق الحب يشغلها أمر ابنها الصغير فتسهر على إطعامه وتساعده فى استيعاب دروسه..

كان جمال يثير دهشة والديه بخواطره وإيماءاته القريبة، سأل أباه فجأة من خلال وجبة طعام قائلا: أبى.. لماذا تأكل نحن اللحم، والفلاحون الذى يرعون الماشية اويربونها لا يأكلون؟

وتوقف الوالد عن الأكل وأخذ يتأمل ابنه، إذ لم يثر بؤس الفلاح حتى اليوم اهتمامه كشىء خارق لعادة.. ولم يجب الأب إلا بأن هذا هو حال الدنيا.. غير أن جمال لم يقتنع.. ونمت فيه روح النقد.

فى القاهرة.. عاش جمال عبدالناصر، صبيا صغيرا بين زملائه الطلبة، منطويا على نفسه، عزوفا عن اللهو واللعب معهم.. ويسطر الرسائل إلى أبويه نافضا فيها شيئا من إحساساته ومشاعره نحوهما التى تختلج فى قلبه.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

كارثة زلزلت كيانه!!

- كانت وفاة الأم كارثة زلزلت كيانه..
- كان متألما لجمود مواطنيه.. يبحث لنفسه عن دور.. عن حزب ينضوى تحت لوائه ليعمل على تحرير مصر..
- هل انضم جمال عبدالناصر إلى الحزب الاشتراكى..؟

كتب أنور السادسات فى كتابة «ثورة على النيل» كيف تصرف بجمال عبدالناصر عام ١٩٣٨ فى معسكر منقباد حيث بدأ الضباط الشبان حياتهم العسكرية عقب تخرجهم فى الكلية الحربية:

كنا جميعا من خريجى دفعة واحدة. وكان جمال عبدالناصر يعيش معنا كما نعيش، ولكنه كان دائم التفكير، حزينا متحفظا، ولم نكن نطلق نكتة حتى كان يقاطعنا ويعود بنا إلى عبارات الجد، كان الألم على فقد أمه قبل الأوان متملكا من فؤاده. هذا الألم الذى مازال يشعر به فى أعماق قلبه والذى أشعره بمعنى الآلام البشرية، وقد روض روحه على قبول أحكام القدر فى قوة وشجاعة، وكان قلبه يفيض عطفاً على جميع الذين يتألمون.

فقد كانت وفاة الأم كارثة زلزلت كيان الصبى.. فقد كانت السيدة فاطمة - والدته - تفخر بفتاها جمال عبدالناصر، وقد أدركت أكثر من والده روحه القلقة وعزة نفسه الحذرة، وحينما كان يقضى عطلته الصيفية فى الخطاطبة كانت تحوطه بحنانها وتثير فى نفسه الرغبة فى مكانتها بمكنون فؤاده.

فى القاهرة، وبالرغم من حب عمه، شعر الصبى البالغ من العمر ثمانى سنوات بأنه وحيد فى المدينة الكبيرة ففى بنى مر كان يجد نفسه محاطا بجميع أقاربه من آل سلطان، وفى الاسكندرية كانت أسرة حماد أسرته. إما فى القاهرة، فكان يشعر بعزلته، وكان لا يخرجه من تلك العزلة إلا رسائله إلى أمه ورسائل أمه إليه...

فى أواخر أبريل عام ١٩٢٦، انقطعت رسائل الأم فجأة، ودهش الصبى، وبعث الأب يقول لولده، إن أمه لم تتمكن من الرد على رسائله بسبب انشغالها بأمور البيت وتربية

شقيقيه العرب والليثى ثم اضطرارها إلى السفر إلى الاسكندرية عند والديها..

وتملك الحزن التلميذ الصغير.. ولم يفهم.. وواصل كتابة رسائله.

وحلت نيابة السنة الدراسية، وعاد الفتى إلى الخطاطبة وهناك علم بوفاة أمه..

لقد مرضت الأم فى الخطاطبة.. ونقلت إلى الاسكندرية للعلاج.. وهناك.. قضت نحبها ودفنت بها.. وقد أخفى الأب عن جمال الخبر الأليم لكى لا يتأثر وهو بعيد عن أسرته.

كانت الصدمة أليمة فى نفس جمال.. ولم يكن يتصور أن أمه يمكن لها أن تختفى من الحياة إلى الأبد.

وظل جمال عبدالناصر متألما لفقدان أمه اثنتى عشرة سنة بعد وفاتها. بعدما أصبح ضابطا صغيرا يمارس حياته العسكرية فى معسكر منقباد على بعد كيلو مترات قليلة من قريته بنى مر..

وظل جمال مطبوعاً بالحزن الذى أثاره وفاة أمه فى نفسه وهو صبى، ولم تؤثر فيه التعازى التقليدية وسرعان ما انطبعت حقيقة الموت على نفسه فى قوة لا ترحم.. ولقد استخدم عبدالناصر بعد ذلك فى أثناء نشاطه الثورى كل نفوذه الشخصى لكى يتجنب إصدار حكم الإعدام، ولكن تخلو الثورة المصرية من إراقة الدماء.

فى صيف عام ١٩٣٨، كان جمال قد أتم السنة الثالثة الابتدائية بمدرسة النحاسين، ووالده لازال موظفا بمكتب بريد الخطاطبة وقد تزوج مرة أخرى ورزق بالشقيق الرابع لجمال، وهو شوقى، ثم رزق بعده أولاداً كثيرين بلغوا أحد عشرا ولدا.

وقد أحزن موت الأم، ومجىء زوجة أخرى إلى منزل الأب، طفولة جمال، وقد كان عمه خليل يوليه حبه ورعايته، غير أن طبيعة عمله بالأوقاف كانت تضطره للسفر إلى الأقاليم.. وبعد أن بدأ جمال السنة الرابعة الابتدائية فى القاهرة أرسله أبوه إلى الاسكندرية عند جده لوالدته محمد حماد، حيث أتم السنة الدراسية فى مدرسة العطارين.

فى خريف سنة ١٩٢٩ نقلت مصلحة البريد عبدالناصر حسين إلى بلدة كوم حمادة شمال الخطاطبة.. فالتحق جمال بمدرسة حلوان الثانوية الداخلية جنوب القاهرة.

ولما نقل الأب إلى الاسكندرية أقام جمال من جديد مع أسرته والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية، وحينذاك بدأ اشتغاله بالسياسة، مما كلفه أن يتلقى بضع ضربات من العصى فى إحدى المظاهرات وأن يتخلف عن تأدية امتحانات آخر العام.

ومن مدرسة رأس التين انتقل إلى المدرسة الفريدية حيث واصل دراسته عامين.

وفى عام ١٩٣٣ نقل موظف البريد عبدالناصر حسين إلى القاهرة، فتنقل معه إليها أسرته.. وفى القاهرة واصل جمال دراسته فى مدرسة النهضة الثانوية بحى الظاهر.

فى حى باب الشعرية بالقاهرة كان مقام عبدالناصر حسين الجديد، مع أسرته، وكان مقر عمله أيضا..

وعلى جانب طريق جديد يربط حى العتبة الخضراء بحى العباسية ويمر بحى باب الشعرية القديم، على جانب هذا الجديد يربض مسجد الإمام الشعرانى بواجهته الحجرية المزينة ببعض نقوش الفسيفساء الزرقاء الوضاحة، وترتفع مأذنة المسجد العالية فى السماء لتدعو المؤمنين إلى الصلاة فى منطقة الخرنفش وبين الصورين من الناحية الأخرى لشارع الجيش العريض.

وعلى بعد مائة متر من المسجد توجد حارة خميس العدس حيث كان مكتب بريد الخرنفش والتى كانت تقيم على بعد خطوات منها أسرة عبدالناصر..

ومكتب البريد كان يقع فى منزل متواضع حديث العهد نوعا بين متجر يهودى للمواد الكيماوية ومدخل معهد اليهود القرانين الذى تدل عليه خيمة داود والعبارات العبرية المنقوشة عليه بالحديد المشغول.

عمل عبدالناصر حسين فى هذا المكتب خمس سنوات، وكان جيرانه اليهود يملكون على بعد خطوات منه منزلا حديث البناء من ثلاث طبقات، فاستأجر معاون البريد بأجره بين ٣ و٤ جنيهات فى الشهر، شقة فى الطابق الثانى تتكون من غرفتين تطلان على الشارع لهما غرفة وغرفة داخلية كانت جلوس وغرفة خلفية تطل على المنور.

كانت الغرفة الخلفية هى غرفة الابن الأكبر، الغرفة التى استذكر فيها جمال دروسه وتأمل طوال أربع سنوات من سن شبابه وهى سنتان دراستيان فى مدرسة النهضة الثانية

وسبعة أشهر فى كلية الحقوق ثم سنة ونصف فى الكلية الحربية.

وكان إيجار الشقة يبتلع ثلث مرتب الأب الذى كان يتراوح بين عشرة جنيهات واثنى عشر جنيها ولا نفهم كيف كان عبدالناصر يوازن ميزانية أسرته، ولا شك فى أنه قد مر بأيام عسيرة تفسر لنا رغبة جمال عبدالناصر العنيفة فى رفع مستوى معيشة الطبقة المتوسطة المصرية.

فى عام ١٩٣٤ واظب جمال عبالناصر على حضور السنة الثانية قبل النهائية فى مدرسة النهضة الأهلية.

وفى عام ١٩٣٥ اقتضاه نشاطه السياسى أن يخصص له جانبا كبيرا من وقته فلم يحضر طوال العام الدراسى إلا ٤٥ يوما وقامت صعاب جمة فى وجهه لدخول امتحان البكالوريا..

إلى جانب استذكاره كان الطالب جمال عبالناصر يطالع فى شغف كل ما يجده فى مكتبة المدرسة من كتب وكل ما يعيره إياه أساتذته أحمد حسنين القرنى ومرسى الحميدى ونجيب ريراهيم ولم تكن مطالعة الطالب للكتب العربية والأوروبية سطحية إذا كان يفكر فى فحواها ويستوعب ما تعرضه من أفكار فيفتح ذهنه لنظريات لم تخطر ببال الكثير من أقرانه من الطلاب.

كان جمال عضوا فى لجنة تحرير المجلة المدرسية لمدرسة «النهضة المصرية» كتب فيها بعنوان (فولتير) رجل الحرية واحد، اما ما استرعى نظر الطالب المضطربة نفسه على القلق والثورة فى خلق فولتير هو ثورته على فساد الحكم وعلى الروتين والكنيسة وكتب يقول: كانت مشاغله تنحصر فى المحافظة على استقلاله ككاتب».

لم يطالع جمال روسو وفولتير كطالب يستذكر درسا أو يعد ـ امتحانا، كلا.. إنه شاب يسعى إلى تفهم الحياة يدرس المجتمع ويبحث عن الحلول للمشكلات التى تثيرها الحياة..

كان يتلفت حوله فيجد العمال وعامة الشعب التى كانت الحياة بالنسبة لهم قاسية ويجد الاغنياء من اجانب ومصريين غارقين فى الترف.

لماذا هذا الظلم؟ لماذا هذا الاسراف من جهة وهذا البؤس والذل من جهة أخرى؟

وطالع جمال لدكنز قصة مدينتين التى تقع احداثها بين باريس ولندن عام ١٧٩٣ وخرج منها بأن العنف يثير العنف وان افضل سياسة هى التى تتجنب اراقة الدماء.

وفى مجلس قيادة الثورة.. عندما أعلن بعض أعضاء المجلس عن انهم من انصار استعمال العنف.. اعاد البكباشى جمال عبدالناصر إلى ذاكرتهم قصة ديكنز ونصحهم بقرائتها.

وكان جمال يميل إلى التاريخ اكثر من الادب وتدور منافساته مع زملائه حول السياسية فلا يفوته ابدا درس التاريخ ويبدى انتباها بالغا لشرح المدرس فكان يحدق فيه، ذراعه اليسرى متكئة وقد أعتمد ذقنه. براحة يده وكان يطلبه شرحه وافيا فيذهب إلى السيرة وينظر إلى الخريطة.. حتى إذا حدث وكان مشغولا بتنظيم مظاهرة سياسية كان يترك كل شىء ليحضر درس التاريخ وهى المسادة التى كان يميل اليها أكثر من غيرها.

البحث عن هوية:

نحن الآن فى عام ١٩٣٥.. لم ينس الطالب جمال عبدالناصر المظاهرات التى اشترك فيها منذ خمس سنوات فى الاسكندرية وضربات العصى التى انهالت عليه والدماء التى نزفت منه وهو يهتفه «تحيا مصر» كان جمال متألما لجهود مواطنيه.. كان يبحث لنفسه عن دور.. عن حزب ينضوى تحت لوائه ليعمل على تحرير مصر.

اتصل بالوفديين الذين كافحوا تحت زعامة سعد زغلول ولكنه رأى انهم خيبوا الامال عندما تولوا الحكم.. وان محترفى السياسة عملوا لمصلحتهم الشخصية اكثر مما عملوا لمصلحة الوطن.

وكان يميل أكثر إلى الحزب الوطنى الذى لايسلم بحل وسط مع الانجليز.. وتردد على حزب أحمد حسين الاشتراكى.. «مصر الفتاة» وكان يعادى اليهود والاجانب عداء شديدا ويجذب اليه الشبيبة الوطنية التى خيبت امالها الاحزاب ـ السياسية التقليدية..

نادى برنامج «مصر الفتاة» مستوحيا نداء «مصر للمصريين» بتأميم قناة السويس بتحرير وادى النيل وباقى مصر والسودان.

ولكن هل انضم جمال عبدالناصر إلى الحزب الاشتراكى تضاربت الاراء فى هذا الصدد.. ويبدو ان جمال فى سعيه الحثيث عن هيئة وطنية قد اهتم بصفة خاصة بحزب «مصر الفتاة» غير ان انضمامه للحزب يظل امراً مشكوكا فيه.. ولكن مما لا شك فيه فيه ان جمال كان على اتصال بركيل هذا الحزب الاستاذ فتحى رضوان ـ اطال الله فى عمره ـ الذى تولى فيما بعد وزارة الارشاد القومى فى حكومة الثورة.

كان جمال عبدالناصر يتحدث على مدرسة النهضة الى زملائه فى السياسة وحاول اساتذته ان يهدئوا من روعه فقد ابت الحكومة على الطلبة الاشتغال بغير دروسهم، فالسياسة من شأن الكبار وأبى جمال أن يستمع إلى ذلك النصح. كان منقبض الصدر للحال التى سارت اليها مصر وأبى أن يقف منها موقفا سلبيا فكان يعقد الحلقات السياسية مع طلبة المدرسة ويدعوا زملائه الطلبة إلى بيته فى حارة خميس العدس أو يجتمعون معا فى مسجد سيدى الشعرانى حيث اعتاد ان يستذكر دروسه.

فى الثامنة عشرة من عمره، كان جمال يبدو اكبر سنا كانت شخصيته تتسم بالاتزان والرجولة المبكرة.. حاول ان يجمع من حوله الزملاء الذين يشاطرونه وجهة نظرة السياسية ويحاول الاتصال بالزعماء السياسين والمنظمات الطلابية..

حدث أن قرر جمال وزملاؤه الاتصال بزعم حزب سياسى وحصلوا على موعد لمقابلته ظهر يوم الثلاثاء ١٢ من فبراير سنة ١٩٢٥.. ولما وصلوا فى ميمادهم وجدوا الزعيم السياسى خارجاً من مكتبه.

أسرع جمال إلى مقابلته امام مصعد الوزارة وقال له:

«لقد ألفنا وقداً من التلاميذ ونريد أن نعرف رأيك فى أفضل طريقة لخدمة البلاد».

كان جمال عبدالناصر يتسم بالشجاعة والجرأة فى التحدث دون تردد إلى شخصية كبيرة، وكانت تلك صفة من الصفات التى امتاز بها.

ونصح له الوزير ان يتصل بطلبة الجامعة.. وبعد شهر توجه جمال وزملاؤه لمقابلة شباب الجامعات ووجدوا ـ لدهشتهم.. ان موضوع حديثهم كان عن كيفية ملء وظائف اللجنة التنفيذية للطلبة،، من يكون الرئيس؟.. ومن يكون نائب الرئيس ... ومن يكون السكرتير.

وانتظر جمال بزملائه إلى أن انفض الزملاء الاجتماع آملين ان يبدأوا المناقشة فى المشكلات التى كانت تشغل اذهانهم فى تنظيم الشباب ضد الفساد والرشوة وضد الاستعمار.

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث.

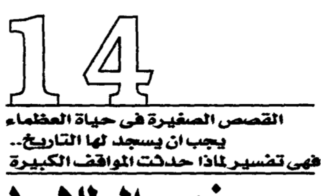
وقرر جمال أن يعملوا وحدهم.. ان يشكلوا لجانا من تلاميذ المدارس الثانوية الحكومية والخاصة.

وعاد جمال واصدقاؤه الى مدرستهم منفعلين ساخطين ولكن عزيمتهم لم تضعف ولان الكبار يلتزمون هذا الموقف السلبى والطلبة مشغولون بالصغائر لكن على تلاميذ المدارس الثانوية ان يتحدوا لاذكاء شعلة الوطنية.

كان العام ١٩٣٥.. كان جمال عبدالناصر تلميذ مدرسة النهضة الثانوية فى السابعة عشرة عن عشرة من عمره ولم يكن قد كون رأيه وبرنامجه السياسى.. كان تائها فى عالم مضطرب من الافكار - والسياسات والاشخاص.. يروح ويغدو.. ويزور مراكز الاحزاب املا منه فى أن يجد من بينها حزبا يستجيب لاهدافه الوطنية.. بدت له شعبية حزب الوفد وتنظيمه العملى عظيمين.. غير انه كان دون مثالياته السياسية.. كان يميل أكثر إلى مبادىء برنامج حزب مصر الفتاة الاشتراكى.

لم يجد جمال حزباً مثالياً يضم جميع العناصر لتحقيق الاهداف الوطنية يستطيع الانضمام إليه.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

زعيم الطلاب!

- قال لأستاذه: أنا لا اوافقك فى هذا الرأى.. لأن ماتدعوه بضبط النفس والقدرة على السيطرة وتراه فضيلة انما هو فى رأيى ضرب من ضروب الجشع، انه رذيلة وليس فضيلة.

- ثار الطلبة من أجله.. وعاد جمال إلى المدرسة عودة المنتصر.

أكتوبر سنة ١٩٣٥ ـ الدراسة بدأت، التلاميذ يجتمعون جماعات فى فناء المدرسة ويتبادلون اطراف الحديث، كل يروى كيف أمضى آخر ليالى العطلة

ـ هرج بعضهم مع زملائهم، وأمضى بعضهم الاخر الوقت فى التسلية ـ وظل جمال صامتا يستمع إلى زملائه ـ كان يبدو أكبر سنا بكثير. وسأله أحدهم: وأنت، كيف امضيت الوقت؟

فاجاب: فى مطالعة كتاب عن النبى محمد ـ واحرج الزميل ولم يجد جوابا.. ماذا؟ أيسلى جمال نفسه بالمطالعة؟... وأى نوع من الكتب؟ كتاب عن النبى محمد ـ.. اما زملاؤه فكانوا ينظرون الى الحياة ببهجة وطيش ـ وكان جمال يشذ عنهم بمشاغله الوطنية.

يروى الاستاذ فكرى ابراهيم مدرس الجغرافيا بمدرسة النهضة حكايتين تدلان على خلق عبدالناصر ـ يقول:

حدث أن دب الخلاف بين زميلين فاتخذا من جمال حكما وعرضا عليه الخلاف.. ودون تردد قال جمال لاحدهما ـ ان الحق فى جانب صديقك.. ويجب ان تعتذر إليه ـ وغضب الاخر وقال لجمال: انك تناصره لانه صعيدى مثلك.. وابتسم جمال وأجاب فى هدوء: وهل فى هذا مايعيب؟ اما انا فخور بذلك.. لان الصعيدى رجل حقا لا ينزل عن شىء من حقوقه.. واعتذر الصديق واعترف بخطئه.

«الصعيدى لاينزل عن شىء من حقوقه » عبارة كان جمال يذكرها دائما.. فقد كان جمال فى مفاوضاته مع انجلترا وفى مسألة السويس وفى موضوع التعويضات عن

الاضرار الناتجة عن عدوان سنة ١٩٥٦ ـ فقد كان المتحدث المتعلق بحقوقه ـ والذى لايمكن انتزاع شىء عنه دون مقابل.

ويذكر فكرى إبراهيم هذه القصة أيضا.

كان مدرس الجغرافيا يلقى دراسا فى تأثير الجو والوسط على خلق السكان قائلا إن سكان المناطق المعتدلة يتميزون بالنشاط وقوة الارادة وضبط النفس ولذلك فهم قادرون على السيطرة على شعوب أخرى ومثال ذلك انجلترا ـ حدج جمال المدرس ببصره وكأنما اراد ان يستفزه ولكنه قال فى ادب: انا لا اوافقك يا استاذى فى هذا الرأى، لان ماتدعوه بضبط النفس والقدرة على السيطرة وتراه فضيلة انما هو فى رأيى ضرب من ضروب الجشع، انه رذيلة وليس فضيلة.

ولم يسع فكرى إبراهيم مدرس الجغرافيا الا موافقة الطالب الشاب على رأيه.

فى صباح ١٣ نوفمبر عام ١٩٣٥.. اجتمع تلاميذ مدرسة النهضة الثانوية فى فناء مدرستهم واخذوا يهتفون «تحيا مصر» ثم حملوا علم المدرسة وخرجوا يتقدمهم جمال عبدالناصر ومضو إلى مدرسة فؤاد الأولى الثانوية فانضم اليهم تلاميذها وساروا فى مظاهرة عظيمة، ومروا بفندق «شبرد» وكان يجلس فى شرفته نفر من الانجليز يحتسون الخمر ـ وهتف جمال عبدالناصر بحياة مصر ثم صرخ بالانجليزية «تسقط انجلترا» ومضى يتقدم المظاهرة مخترقا شوارع العاصمة فى طريقه الى الجامعة لينضم إلى الطلبة القادمين من الجيزة.

كان طلبة جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ـ وطلبة كلية الهندسة الذين اجتمعوا فى حديقة الاورمان المواجهة للجامعة قادمين عن طريق كوبرى الروضة لانهم علموا ان البوليس اغلق كوبرى بولاق.

غير ان كوبرى الروضة به قسم متحرك يفتح فى ساعات معينة من النهار لمرور المراكب الشرعية، وفتحت الشرطة الكوبرى وفصلت بين الطلبة والتلاميذ بثلاثين مترا من الماء.

نزل جمال إلى الشاطىء واستأجر قاريا صغيرا وانضم الى طلبة الهندسة فى جزيرة الروضة على حين استطاع بعض الطلبة اغلاق الكوبرى واندفعوا عليه واطلقت الشرطة

عليهم النار وسقط محمد عبدالمجيد مرسى ومحمد عبدالكريم الجراحى الطالب بكلية الآداب شهدين.

وعاد جمال إلى داره ليعد الطعام لاخوانه المعتقلين ثم انطلق الى بيت الامة حيث كان يقيم سعد زغلول لحضور المؤتمر الوطنى الذى عقد لاحياد ذكرى ثورة ١٩١٩ وللاحتجاج على الاعمال الوحشية للشرطة.

جمال.. وجرح قديم فى جبينه

وهناك.. عند بيت الامة ـ اصطدم الطلبة مرة أخرى بالشرطة ولاحظ الضباط الانجليز ان الفتى طويل القامة الضامر البدن، هو الذى يثير الطلبة ويذكى لبيب الوطنية فى قلوبهم فاطلق عليه رصاصة اصابته فى جبهته وتفجر الدم غزيرا من رأس الفتى الثائر، واسرع به زملاؤه إلى دار جريدة «الجهاد» التى تصادف وقوع الحادث بجوارها.

ضمدت جراح جمال عبدالناصر فى دار الجريدة، ورفض الذهاب إلى المستشفى تجنبا لالقاء القبض عليه.

وكان الجرح لايزال ظاهرا فى جبهة جمال عبدالناصر حتى وفاته.

لقد سبق واصيب جمال عبدالناصر وهو تلميذ فى الثانية عشرة من عمره عندما ضربه الجنود بالعصا على رأسه فى الاسكندرية.. وها هو ذا الآن يصاب برصاصة كادت تطيح برأسه ـ وهذا هو ما انطبع فى نفس جمال عبدالناصر وجعله طيلة حياته يمقت قوات الاحتلال والشرطة الاجنبية.

روت جريدة الجهاد فى عددها الصادر يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ كيف لجأ الطلبة المصابون إلى مكاتبها وذكرت من بينهم اسم جمال عبدالناصر.

وفى المساء.. صدر قرار وزارى بتعطيل الدراسة فى جميع المدارس لمدة شهر.

وفى ١٢ من ديسمبر اصدر الملك فؤاد مرسوما بعودة دستور ١٩٢٣ الذى قامت المظاهرات وسقط الشهداء من اجل عودته.

وبينما الاحزاب جميعا تحتفل بالنصر الذى جنت ثمرته ولم تحرزه .. حاول جمال

عبدالناصر رئيس اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية ان يقنع زملاءه ومنظمات الطلبة بالاستمرار فى الكفاح حتى تحصل مصر على ثمن الدماء التى اسيلت، أى على الاستقلال التام.

فكان جمال ـ وهو الصعيدى الاصل ـ الذى طالب بحقه كاملا ـ يريد ان يواصل الطلبة اضرابهم وان يحافظوا على روح الكفاح.

غير أن الطلب عادوا إلى مدارسهم مرغمين.

يقول جمال عبدالناصر فى كتابه «فلسفة الثورة» وهو يشير إلى تلك الحقبة التاريخية من حياته:

فى تلك الأيام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة، وصرخت من أعاقى بطلب الاستقلال التام.. ولكن صراخنا ضاع هباء، وبددته الرياح اصداء واهنة لاتحرك الجبال.. ولاتحطم الصخور.

فى تلك الاثناء.. فى الوقت الذى كان يفاوض فيه الساسة المصريون انجلترا ويحاولون عقد المعاهدة التى أبرمت بين مصر وانجلترا وعرفت بمعاهدة ١٩٣٦.. كيف كان جمال عبدالناصر؟

تكشف لنا خطاباته التى بعث بها إلى صديقه حسن النشار عن الحالة النفسية التى بدأ فيها جمال عامه الدراسى الثانوى النهائى.

من أكتوبر سنة ١٩٣٥ حتى يناير ١٩٣٦ أوقف جمال نشاطه على النشاط السياسى وطاف بمراكز الاحزاب المختلفة ونظم جمعية طلبة المدارس الثانوية وترأس لجنتها التنفيذية، واخذ والده واساذته يهدفون منه ويحاولون إثناءه عن نشاطه وينصحون له باستذكار دروسه ويترك مهمة الدفاع عن الدستور والكفاح فى سبيل الاستقلال الوطنى للكبار.

جمال عبدالناصر، هذا التلميذ المجتهد المطيع، لم يستمع إلى النصائح، واندفع إلى النشاط السياسى فى شغف. وتحولت الحماسة السياسية التى كانت تتملكه إلى عمل ايجابى بدأ أنه أدى إلى نجاح عظيم بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ولكنه ضاع هباء عندما رفضت الاغلبية مواصلة الكفاح.

واشمأز جمال من سياسة الحل الوسط التى تمارسها الاحزاب السياسية مع الاحتلال البريطانى فى مصر.. فعاد إلى مدرسة النهضة محبطا وحزينا.. ولكنه فوجىء بناظرها «سليمان زكى» يمنعه من الدخول.. وكان جمال مراقباً من البوليس السياسى يضمون عنه التقارير التى تشير إلى نشاطه «الهدام» ويتهمونه بتحريض الطلبة على الثورة ولم تلن عريكة الناظر فعاد جمال.

كان صعبا على عبدالناصر حسين موظف البريد المتواضع وعمه خليل حسين التسليم بأن ابن العائلة الاكبر يطرد من المدرسة؟

ولحسن الحظ تدخل زملاء جمال والتمسوا من سليمان زكى اعادة صديقهم المحبوب، ولما رفض الناظر ثارت المدرسة وهددوا باحراق الادراج بعدها قذفوا بها فى فناء المدرسة واعلنوا الاضراب العام، ولما كانت مدرسة النهضة مدرسة خاصة قد تتأثر ماليتها بثورة أنصار جمال وبالدمار الذى يمكن ان يحدثوه بالمدرسة، فقد اضطر الناظر إلى التسليم وأمر بعودة جمال إلى المدرسة.

ومرة أخرى. رفض زملاؤه أن يعود جمال إلى المدرسة إلا إذا ذهب إليه فى بيته ضابط المدرسة واصطحبه معه فى عربة «حنطور» وجلس إلى يساره.

وفعلا ـ تحقق ما ارادوا.. وعاد جمال عودة المنتصر إلى المدرسة.

ولكن.. عندما جاء دور التقدم للدخول فى امتحان البكالوريا رفض الناظر أن يسمح لجمال بدخول الامتحان بدعوى انه لم يحضر طوال العام الدراسى الا ٤٥ يوما.

وثار الطلبة مرة أخرى..

ورضخ الناظر مرة أخرى.

وانكب جمال على كتبه خلال الاسابيع الاخيرة للعام الدراسى واجتاز امتحان البكالوريا.. وكان فى طليعة الناجحين.. لقد نجح جمال بتفوق..

اتم جمال عبدالناصر دراسته الثانوية فى القسم الادبى وكان عليه ان يختار الطريق الذى يستكمل فيه دراسته العليا.

كان شغوفا بالسياسية ـ يعشق الوطن ـ وكان الساسة يثيرون اشمئزازه.

وكان نفسه مجبولة على عشق البطولة والمجد والفداء.

كل ذلك مـلأ نفس جـمـال يقـينا بأن مـصـر لن تحـصل على استـقـلالها بالخطب والمرافعات.. بل يجب أن تقابل القوة بالقوة والاحتلال العسكرى بجيش وطنى.

ومن هنا قرر جمال الالتحاق بالجيش ـ وتقدم بأوراقه إلى الكلية الحربية.

كان جمال طالب سليم البنية قويا ـ لكنه سقوط فى كشف الهيئة لانه حفيد فلاح بنى مر. ولانه ابن موظف صغير لايملك املاكا ولانه بلا واسطة كما سبق وذكرنا فى حلقة سابقة.

لما رفضت الكلية الحربية قبوله تقدم فى أكتوبر عام ١٩٣٦ إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة.. وظل بها سبعة اشهر على مضض.. اذ حاول فى هذا الوقت نفسه الالتحاق بكلية الشرطة ولكنها رفضت قبوله ـ لقد اشهر التحقيق الذى قام به قسم شرطة الجمالية ان لجمال نشاطا سياسيا فى حزب أحمد حسين «مصر الفتاة» وأنه نظم مظاهرات للطلبة وأنه باختصار لايستوفى الضمانات المطلوبة من رضوخ للنظام وللسياسة القائمة.

غير أن الكلية الحربية أعربت عن حاجتها لدفعة ثانية وتقدم جمال للمرة الثانية واجتاز كشف الهيئة بنجاح بعدما كسب ثقة واعجاب اللواء إبراهيم خيرى كما سبق أيضا وذكرنا فى الحلقة الخاصة بقصة التحاق جمال بالكلية الحربية.

وفى ١٧ مارس سنة ١٩٣٧، دخل جمال عبدالناصر الكلية الحربية طالباً لأول مرة مع الدفعة الثانية للطلاب المستجدين، ومر بما يسمونه فترة الاختبار وهى فترة لاتتجاوز خمسة أشهر ـ يلقن فيها الطلب مبادىء الحياة العسكرية ويراقب سلوكه الاخلاقى والرياضى.

فى نهاية فترة الاختبار هذه اصدر مجلس الكلية قرارا بصلاحية الطالب جمال عبدالناصر للحياة العسكرية وقيد اسمه بالقسم الاعدادى بالكلية ثم بالقسم المتوسط.

وجد جمال نفسه سعيدا بنظام الكلية الحربية فقد كانت مؤهلة لهدف معين يسعى

إليه يصبر ودأب.. أن يصبح ضابطا ذا كفاية وأن يكتسب المعرفة والصفات التى تسمح له بأن يصبح قائدا.

وعلى الرغم من التحاقه بعد ثلاثة أشهر من بدء الدراسة بالكلية الحربية فقد اشهر من الكفاية العسكرية ما أهله لأن ينقل إلى القسم النهائى ولأن يصبح «رئيس فريق» واسندت إليه منذ أوائل سنة ١٩٣٨ مهمة تأهيل الطلبة المستجدين.

ومن بين الطلبة الذين استجدوا عندما كان جمال عبدالناصر رئيس فريق فى الكلية، الطالب محمد عبدالحكيم عامر، وكان جمال مسئولا عن تأهيله عسكريا مع الطلبة المستجدين الذين كان مكلفا بارشادهم إلى طريقة ارتداء الزى العسكرى على الوجه الصحيح وتحية رؤسائهم والقيام بتدريباتهم العسكرية الأولى.

وتوثقت عرى صداقة حميمة بينهما، وكان الاثنان شغوفين بالمطالعة، واطلق على عبدالحكيم عامر اسم «روبنسون» لشغفه بقصص الاسفار والمغامرات الفداء كمغامرات «روبنسون كروزو».

كان عبدالحكيم عامر رئيس فرقته جمال عبدالناصر من الطلبة الممتازين فى الجد والمثابرة وفى احترام اللوائح والنظم العسكرية، وكانت الحياة العسكرية تروق لهما تماما.

يروى اللواد عبدالواحد عجار الذى كان حينذاك يدرس مادة المشاة والقوانين العسكرية أنه لمس فى جمال رجولة مبكرة وأنه قليل الابتسام وكان محبوبا من زملائه ومدرسيه.

وكانت شخصية جمال قد بدت تنجلى للعيان وقد تجلى جلده وقوة احتماله أثناء ممارسة الالعاب الرياضية. ولما لم يوقع عليه جزاء منذ التحاقه بالكلية الحربية رقى إلى رتبة «اومباشى طالب» وهى رتبة كان يندر أن يظفر بها طالب بالكلية الحربية.

واشتهر جمال عبدالناصر فى الكلية باسم «الاومباشى جيمى» وكانت صداقته لروبنسون معروفة، كنت إذا رأيت «جيمى» فسرعان ما ظهر روبنسون والعكس بالعكس، وكانت مكتبة الكلية المكان المفضل للقائهما.

كانت مدة الدراسة فى الكلية الحربية ٣ سنوات بصفة عامة.. ولكن كان الجيش فى حاجة عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ إلى الضباط الشبان لقيادة الدفع المستجدة، فقد سمح لجمال

بدخول الامتحان النهائى وذلك بعد ١٦ شهرا أمضاها فى الكلية، وحصل على نسبة مئوية قدرها ٧١٪ من مجموع درجات النجاح فى جميع المواد وقد سبق وذكرنا تفصيلات درجاته.

نجح جمال عبدالناصر فى امتحان الكلية النهائى فى الأول من يوليه عام ١٩٣٨.. وعين ملازما ثانيا بسلاح المشاة، وأرسل إلى ثكنة منقباد على بعد بضعة كيلو مترات من أسيوط ومن بنى مر.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

فى الكلية الحربية

كان الطلبة إذا ما خرجوا من المدرسة يقولون:

«كنت طالب جمال»

خالد محيى الدين:

كيف التقيت بجمال عبد الناصر..؟

كيف نظم عبد الناصر حركة الثورة فى نطاق لجان خمس..؟

ظل الطالب جمال عبدالناصر فى الكلية الحربية بعيدا عن زملاء دفعته، كان فقيرا أو وقف اصله المتواضع حجر عثرة فى طريقه فانكب على مطالعة المؤلفات التى كشفت له عالما جديدا بالنسبة إليه. عالم العلوم العسكرية والسياسية الدولية ولم يجد زميلا يشاركه حساسيته وعاطفته الوطنية الا عندما أصبح «قائد جماعة» فى الكلية وأصبح مسئولا عن تأهيل الطالب المستجد عبدالحكيم عامر عسكريا..

وفى منقباد اكتسب أنور السادات صداقته ولكنه ظل منطويا على نفسه لايكشف عن شىء يتعلق بصداقاته الأخرى.

لم تطل اقامة الملازم ثان جمال عبدالناصر فى منقباد طلب نقله إلى السودان ونقل إلى الفرقة الثالثة التى كانت على «أهبة السفر» إلى هناك.

وجاء جمال عبدالناصر إلى القاهرة ليتسلم أمر النقل ثم ركب القطار فى طريقه إلى الخرطوم.

وفى القطار التقى بأحد أعضاء مجلس الشيوخ - وكان صاخبا ثرثارا - وقد سجل جمال اللقاء فى رسالة إلى صديقه حسن النشار فى مارس سنة ١٩٣٩ تظهر لنا الملازم ثان جمال عبدالناصر روائيا طريف العبارة يحتقر البرلمانيين الصاخبين.

... لما وصل القطار من القاهرة إلى الجيزة فتح باب الديوان ودخل واحد معاه بندقية.. والخدم من حول يقولون له حاضر يا سعادة الباشا.. طيب سعادة الباشا.

وقال لى صاحبنا السلام عليكم «فرديت عليه السلام ثم جلس بجانبى وحط عفشه على الكرسى المقابل، وبص فىَّ وقال: «بقى أنا بتاع مجلس الشيخ اللى بيقولوا عليه لتات وغلباوى»

قلت له: «تشرفنا»

فقال لى: «بقى أنا كنت لوحدى المعارض فى معاهدة سنة ١٩٣٦».

وقعد يحكى لى تاريخ حياته من سنة ١٩٠٧ إلى سنة مش عارف كام واخذ يتكلم بسرعة وكلما حاولت الرد عليه يقول لى «استنى» ويستمر فى حكايته بصوت عال.

وعندما عرفت اننى لن استطيع النوم. ولن استطيع الاصغاء فضلت باصص للراجل وانا لا افقه حرفا مما يقول، حتى آلمتنى رقبتى وانتهزت وسالته «انت نازل فين، حتى اطمأن على نفسى.. فقال «احمد ربنا اللى لقيت واحد يسليك لغاية بنى سويف».

وفى بنى سويف نزل حوائجه بينما كان ينصحنى بالاحتراس من الزحمة.. ودخل فى حكاية.. خفت بعدها ان يغير رأيه ويمد السفر لمحطة تانية.. ولكن الله سلم ونزل.. ومن ساعتها وأنا عندى صداع.. ومش عارف اتخلص منه.

وفى الخرطوم وجد جمال عبدالناصر نفسه تحت إمرة ضباط - ولم يشعر بالانسجام معهم ولحسن الحظ لحق به صديقه عبدالحكيم عامر إلى هناك.

وفى أول مايو سنة ١٩٤٠ رقى جمال عبدالناصر إلى رتبة الملازم أول. وقد لاحظ زملاؤه انه لايضحك الا نادرا ولكنه يبتسم غالبا ويحب الحيوانات وكان يتولى فى غرفته تربية قرد كبير.

وبعد أن تولى الملازم الأول جمال عبدالناصر قيادة أورطة صغيرة والتحق بالكتيبة الأولى المصرية بالخرطوم.. اخذ يمل الحياة فى هذا البلد.

لقد يأس من الساسة واشمأز منهم واعتقد انه سوف يجد فى الجيش الزملاء الذين يتولى معهم اصلاح البلاد وتحريرها من الاحتلال البريطانى غير أن مستوى هيئة الضباط الادبى خيب ظنه إذا لم يجد بينهم زملاء الكفاح عاقدى العزم على التضحية براحتهم المنحطة وترقيتهم على ذبح المثل الوطنى الأعلى.

وفى نهاية سنة ١٩٤١ عاد الملازم أول جمال عبدالناصر إلى مصر وفى التاسع من سبتمبر سنة ١٩٤٢ رقى جمال إلى رتبة اليوزباشى وفى ٢ فبراير سنة ١٩٤٣ عين مدرسا بالكلية الحربية.

وبدا أن الحركة المعادية للبريطانيين التى ألهبتها احداث ٤ فبراير ١٩٤٢ التى فرضت فيها الدبابات البريطانية وزارة النحاس باشا على الملك فاروق.

وبدا أن تلك الحركة المعادية قد انساقت للخيول.. اذ اشمأز الضباط الوطنيون من موقف الملك فاروق الذى تناسى الهوان الذى ألحقه به لورد «كليرن» وراح يبذل الجهد فى الاشتباك بالنحاس باشا بدل ان يبذ له فى التحرير الوطنى.. كما راح يطلب العون من كبار الضباط الامريكيين وسفارة الولايات المتحدة الأمريكية بدل أن يطلبه من شعبه الذى شعر بابتعاده عنه تدريجيا.

غير ان الحركة الوطنية كانت متأججة.. وفى الكلية الحربية كان اليوزباشى جمال عبدالناصر يدرس مع زملائه ويحلل طابع كل طالب من طلبته ووثق معهم علاقة شخصية واخذ يدون كفاياتهم وطباعهم وينسج فى صبر شبكة الجماعة التى يجب أن تتولى فى ساعة الصفر قيادة مصر إلى استقلالها التام.

ولم ينس اولئك الذين ضحوا بمراكزهم فى الجيش. ففى معتقل المنيا تلقى أنور السادات زيارة اليوزباشى محمد وجيه خليل الذى قدر له أن يموت ميتة الابطال فى حرب فلسطين. جاء الضابط ليطمئنه على مصير الاسرة الصغيرة التى تركها أنور السادات دون معين إذ اشتركت الجماعة لتصرف لها عشرة جنيهات شهريا واتاحت تلك المساعدة الصغيرة المتواضعة لقرينة أنور السادات وأولاده العيش إلى حين الافراج عنه.

وكان اليوزباشى جمال عبدالناصر يؤدى واجبات مهنته فى كفاية وأمانة كان يدرس لكتيبته الأولى ويعطى الطلبة دروسا فى التكتيك والاسلحة الخفيفة وكانت مكانته عالية.

وبينما كان الطلبة يتلقون دروسهم على يد تسعة أو عشرة مدرسين كانوا إذا ما تخرجوا من المدرسة يقولون «كنت طالب جمال» وكان اليوزباشى عبدالناصر وهو يقوم بالقاء محاضراته يعد العدة للالتحاق بمدرسة اركان الحرب. التى لايمكن الالتحاق بها إلا بمسابقة من الصعوبة بمكان.

فى سنة ١٩٤٤ تعرف الضابط الشاب عن طريق عمه خليل حسين بمحمد كاظم وهو تاجر ميسور من رعايا ايران استقر فى حى الأعمال بالغورية وقد أقامت أسرة كاظم

ببغداد قبل أن تحضر إلى مصر.. وهى من بيئة بورجوازية رزينة محبة للتقاليد.. واقترن جمال بإحدى بناتها «تحية» واخذت تساعده فى نشاطه.

كانت هادئة متحفظة وأصبحت له المعاونة المثالية. تحمل فى حقيبة يدها الوثائق التى حررها زوجها فى الفترات التى كانت منظمة الثورة تخشى فيها تفتيش الشرطة السرية.

وبينما لم يعلم عبدالناصر حسين والد جمال يوما بالثورة التى كان ابنه منذ أمد بعيد كانت «تحية كاظم» الصفية المخلصة الحافظة لسر زوجها ولكنها ظلت بعيدة عن مظاهر السياسة فى مصر طوال فترة تولى جمال عبدالناصر الحكم.

كان اليوزباشى جمال عبدالناصر يعمل على رفع الوصاية البريطانية عن مصر بطريقة مميزة يجب قبل دخول المعركة اعداده اداة النصر يجب عن طريق دعاية شخصيته العثور على الرجال الذين هم يتكونهم وباتحادهم فى كتلة واحدة وقوية يتولون زمام الحكم ويحققون البرنامج الوطنى.

يحكى خالد محيى الدين عن الطريقة التى كان اليوزباشى - جمال عبدالناصر - المدرس بالكلية الحربية، ثم فى مدرسة أركان الحرب - يجمع فيها أعضاء منظمته الثورية يقول:

فى أواخر سنة ١٩٤٤ كنت اسير مع زميل لى من ضباط الجيش فى شارع رمسيس، وكنت انا وزميلى نشترك معا فى تنظيم سرى - سياسى، تألف سنة ١٩٤٢ داخل صفوف القوات المسلحة. فوجئت بزميلى يقولى لى: اسمع ياخالد.. أنا عندى ميعاد مع احد اصدقائنا الضباط، وهو شخصية لطيفة جدا.. تعالى معى نقابله.. وأنا واثق انه سيرحب بك.

ومن شارع رمسيس انعطفنا فى شارع الجلالى ودخلنا بيتا، ثم صعدنا إلى مسكن بالطبقة الثانية وطرقنا بابا.. ثم وعندما فتح الباب، رأيت أمامى شابا طويل القامة.. شد على يدى بقوة على حين كان مرافقى يقدمه لى قائلا:

- اليوزباشى جمال عبدالناصر.. المدرس بالكلية الحربية - وارشدنا جمال إلى غرفة المائدة. وجلس امام منضدتها المحملة بعشرات الكتب وجلسنا على مقعدين مقابلين له.

على حين كان يبتسم مشيرا إلى الكتب التى امامه وقول.. انه يستعد لامتحان التقدم لكلية اركان الحرب.

وجلست أتأمل هذا الشاب واسترعى نظرى لأول وهلة انه يشعر الضيف بأنه صاحب البيت، وأنه شديد الملاحظة يفهم بسرعة اتجاه محدثه ولكن صوته هادئا من ذلك النوع الذى يستولى على الانسان فى سهولة تامة.. كان سريع الاجابة.. غير انه خيل إلى أنه يخفى اكثر مما يبدى.. كان يتكلم عن التنظيم السياسى السرى الذى كنا فيه كلام العارف الخبير.

ولاحظت انه يحاول بلباقة ان يشركنى معه فى الحديث ليتعرف إلى رأى فيما يقول.. وعند انصرافنا من عنده قال لى وهو يبتسم نحب تشرفنا باستمرار..

وبعد بضعة أشهر أقيمت مباراة ملاكمة داخل ثكنات قصر النيل بين فريق الجيش المصرى والجيش البريطانى.. وبينما انا فى طريق للخروج فوجئت بمن يضع يده على كتفى.. وكان اليوزباشى جمال عبدالناصر.

فقال: انى احب أن أراك قريبا جدا.. فعندى أمور أريد ان اتحدث اليك فى شأنها..

فالتقينا وتكرر اللقاء وتكشف لى فى شخصيته اعتزازه الشديد بكرامته.. واحترامه الشديد لكرامة الأخرن.

ولنلاحظ الحذر الذى كان ينظم به جمال عبدالناصر خلايا الثورة فى صفوف الجيش فقد كان خالد محيى الدين منذ بعض الوقت عضوا فى الجماعة قبل أن يرافقه زميله ـ بطريق المصادفة كما يقول ـ إلى منزل عبدالناصر ولم يلحظ ان المدرس الشاب يعرف حركة ـ الضباط الاحرار معرفة عميقة الا فى أثناء الحديث، حتى غداة الثورة كان معظم الثورة يجهلون أن جمال عبدالناصر هو الذى دبر ونظم الثورة فى مصر معظم الاحيان عن طريق اشخاص مسخرين.

روى أنور السادات فى كتابه «ثورة على ضفاف النيل» ان جمال عبدالناصر نظم الثورة فى نطاق لجان خمسة: إدارة ـ الشئون الاقتصادية وإدارة فريق الهجوم، ولجنة الامن ولجنة الارهاب وإدارة الدعاية.

ولم تكن إدارة الشئون الاقتصادية هيئة مكلفة بدراسة المشكلات الاقتصادية والمالية التى تتعلق بالامة وتحديد السياسية التى يجب انتهاجها فى هذا الميدان بعد الثورة وانما كانت ابسط من ذلك بكثير كانت عبارة عن خزانة حركة الثورة نفسها كان يجب مواجهة مصروفات المجاهدين الذين يقفون معظم وقتهم للنشاط السياسى فكانت تصرف لهم مساعدات ليتمكنوا من العيش مع أسرهم وكانت الأموال اللازمة لشراء الاسلحة وتغذية الدعاية وقد دفع كل ضابط مبدئيا مرتب شهرين ولما كان معظمهم لايملك نقودا جاهزة فانهم حصلوا على هذا المبلغ من احد البنوك التى اقرضتهم المبلغ مقابل النزول عن جزء من مرتباتهم.

وكتب أنور السادات يقول:

لقد نفذنا جميعا ذلك عن طيب خاطر إلا أنا لاننى كنت متزوجا ورب أسرة ولا أملك موردا غير مرتبى المتواضع كيوزباشى ولم يكن فى وسعى دفع نصيبى فأعفتنى اللجنة بقرار خاص.

وإذا كان على «الإدارة الاقتصادية» واجب الحصول على «عصب الحرب» فإنه كان على الإدارة فوق الهجوم مهمة اختيار المحاربين وتنظم الخلايا فى صفوف الجيش والتشكيلات الشبيهة بالعسكرية بين الطلبة والعمال وكانت كل فرقة من فرق الهجوم تحت رياسة ضابط يكفل الاتصال بينهما وبين إدارة الحركة.

وكان اختيار أعضاء الخلايا العسكرية يجرى بعد امتحان كل مرشح امتحانا عسيرا وكانوا يختارون من مختلف الوحدات وكانت فرقة الهجوم تضم عشرين خلية.

وقد يسر تدريب الفرق الشعبية الشبيبة بالعسكرية اتصال حركة الضباط بمنظمة الشباب الوطنى التى كان يديرها عبدالعزيز على احد أبطال ثورة ١٩١٩.

وكتب أنور السادات يقول:

وأنه وضع تحت تصرفنا جهازه السرى وفرق هجوم جماعته التى ألفها قبل احداث ثورة ١٩١٩ وكانت لمساعدته الايجابية لنا قيمة عظيمة.

وكانت ادارة فرق الهجوم تدون ما يطرأ على عدد قواتها من زيادة أو نقص وكان جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وحدهما اللذين يعرفان عدد هذه القوات تماما وأسماء أعضائها.

أما إدارة الأمن فإنها كانت تراقب المنضمين إلى الحركة وتيقن صدق شعورهم الثائر وتسهر على تطبيق اللوائح تطبيقا دقيقا ولها سلطة قبول الأعضاء وطردهم ولكنها ما اتخذت قرارا هاما فانها ترفعه للجنة الإدارة العليا كما أنها كانت «قلم مخابرات» الحركة تحدد كلمات السر، وتغير أماكن الأجتماع فى فترات دورية.

ويصعب تحديد الدور الذى كانت تقوم به «لجنة الإرهاب» ومع ذلك فإن أنور السادات قد ذكر هذه اللجنة التى أنها إحدى هيئات الجهاز الادارى الذى أنشأه جمال عبدالناصر فإنه يقول من ناحية أخرى أن جماعة الضباط الاحرار كانت تعارض فى استخدام العنف كوسيلة للعمل وذلك أن الاعتداءات والاغتيالات السياسية التى كثيرا ما استخدمتها المنظمات الثورية فى القرن التاسع عشر للتأثير على الجماهير تثير التعصب الدينى.

وقد روى جمال عبدالناصر فى كتاب «فلسفة الثورة» انه لما كان حدثا اشترك فى الاعتداء على شخصية سياسية ثبتت خيانتها وانه لم ينم طوال الليل من تأنيب ضميره وكيف أسعده فى صباح اليوم التالى ـ وهو يفتح إحدى الصحف ـ ان يعلم أن الرجل الذى دبر اغتياله قد كتبت له النجاة. فالشعب المصرى شعب انسانى يكره العنف.

وإذا كان الأمر كذلك فماذا كان اذن دور «لجنة الارهاب فى جماعة الضباط الاحرار؟ وماذا كانت تصنع بالاسلحة والذخائر التى اشترتها أو صنعتها بالاموال التى جمتها اللجنة الاقتصادية.

كتب أنور السادات يقول:

أتاحت لنا الاموال التى جمعناها اقامة مصنع سرى صغير لصناعة المسدسات والقنابل التى تسمى كوكتيل مولوتوف» وكنا فى حاجة الى كمية ضخمة من الزجاجات لصناعة هذه القنابل وحصلنا على عشرات الألاف من تاجر جملة بشارع كلوت بك وما لبث المصنع أن أصبح «ترسانة حقيقية».

والهيئة الخامسة الاخيرة للحركة هى «إدارة الدعاية» ولم يبين لنا أنور السادات تفاصيل كثيرة عن تنظيم هذه الادارة.

كانت الدعاية تجرى فى تنظيم الجيش من ضابط إلى ضابط دون اهتمام كبير على ما يبدو بالجنود فلقد كان مفهوما ان الجنود اذا ما دقت ساعة الصفر - سيطيعون ضباطهم وكان من الخطر استرعاء الانظار بمحاولة القيام بتربيتهم الوطنية.

ثم ان جمال عبدالناصر وأعوانه المقربين كانوا ضباط أركان حرب أساتذة ومدرسين بالكلية الحربية ثم بمدرسة اركان الحرب، وكانوا على اتصال كبير بالجنود.

وقد بذلت الجهود للتأثير على الجماهير واثارة الشعور الشعبى ضد انجلترا، كان الضابط يتحدثون فرادى إلى رجال الشارع ويتبادلون الحديث فى المسائل السياسية فى المساجد والمقاهى والترام وكانوا ينتهزون فرصة الاحداث للاحتجاج على وجود بريطانيا وللمطالبة بالاستقلال التام.

وبعد حرب فلسطين تولى جمال عبدالناصر والصاغ الشاب - خالد محى الدين تحرير منشورات الضباط الاحرار، تلك التعقيبات المستقلة على احداث الساعة السياسية التى هاجموا فيها العدو الخارجى المحتل البريطانى والعدو الداخلى الساسة الانتهازين الذين يستخدمهم الاجنبى والنفعيين الذين يتهمون البلاد

وصف اذن أنور السادات «الجهاز الادارى» للثورة التى نظمها جمال عبدالناصر وصفا إجماليا. ولكن من الواضح أن جميع خيوطه كانت تنتهى عند يد اليوزباشى الشاب جمال.

■■

16

القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

الضابط الثائر

عبد الناصر يوزع منشورات الثورة
كيف نظم جمال الخلايا السرية لحركة الضباط الأحرار
وأدارهما بسرية فائقة؟!
الشعب المصرى ضد التحالف مع الغرب.. وعبد الناصر معه..!!
احتج بعنف عام ١٩٣٦ على إبرام المعاهدة مع إنجلترا
وبعد خمسة عشر عاما ابتهج بالغائها.

عطلت أحداث فلسطين عام ١٩٤٨ العمل إلى حين فى تنظيم حركة الضباط الأحرار.. غير أنها لم تلبث أن دفعت بها دفعا شديدا.

فقد فقدت الحركة الكثيرين من أعضائها الذين سقطوا فى ساحة الحرب الفلسطينية. غير أن التجربة المرة للهزيمة قد أقنعت الضباط الثوار فى الجيش بأنه إذا أريد لمصر أن تصبح قوية يجب تغيير الأوضاع القائمة فيها من أساسها.

فبعد عودة القوات إلى مصر التقى جمال عبدالناصر بالصاغ كمال الدين حسين فى معسكر العريش، وروى له الكلمات الأخيرة التى قام بها صديقهما المشترك أحمد عبدالعزيز فى بيت لحم قبل أن يركب السيارة التى لقى فيها مصرعه على طريق عراق المنشية. إذ قال له: «اسمع يا كمال.. إن ميدان الجهاد الحقيقى ليس هنا.. وإنما هو فى مصر.. فهناك ميدان الجهاد الأكبر.

وفكر جمال عبدالناصر بهذه الكلمات.. وقرر مع أصدقائه إعادة تنظيم صفوف الضباط الأحرار.

كان الجو السياسى مضطربا فى مصر.. والقصر يخفى عن الشعب المصرى خطر هزيمة فلسطين باستعراضه «أبطال الفالوجا».. غير أن قلوب الوطنيين الصادقين كانت مفعمة بالمرارة.

وفى القاهرة.. وفى الثكنات.. التقى الضباط الأحرار الأصليون والضباط الذين استطاعوا استمالتهم فى أثناء الحرب.

وتألفت لجنة تنفيذية من تسعة أعضاء هم:

جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وكمال الدين حسين وعبداللطيف البغدادى وصلاح سالم وخالد معيى الدين وحسن إبراهيم وأنور السادات الذى كان لايزال خارج الجيش عام ١٩٤٩. والذى عاد إليه عام ١٩٥٠، وهى اللجنة التى أصبحت مجلس الثورة فيما بعد.

وكان عبدالمنعم عبدالرؤوف الذى كان «إخوانيا» يدين بالولاء للاخوان بأكثر مما يدين به للضباط الأحرار قد استبعد عام ١٩٥١، ثم انضم إلى اللجنة زكريا محى الدين وحسين الشافعى وعبدالمنعم أمين ويوسف صديق منصور. واستبعد الأخيران فيما بعد لاتهامهما بأنهما شيوعيان.

وكانت خطة الثورة كما وضعها جمال عبدالناصر قبل حرب فلسطين تشمل مرحلتين يجب أن تؤديا إلى تحرير مصر من الاستعمار ومن حليفيه الإقطاع والرأسمالية االلذين كانا يستبعدان معظم المواطنين.. وإنشاء جيش قوى وتحقيق العدالة الاجتماعية وإقامة الديمقراطية السليمة.

وفى أكتوبر عام ١٩٤٩ عقد اجتماع سرى فى بيت عبدالحكيم عامر تقرر فيه توزيع الخطط على خمس سنوات. ولما كانت مكافحة الاستعمار تتصدر الخطة تألفت هيئة خاصة لتنظيم الفدائيين.

وكانت خلايا الضباط الأحرار خماسية يتصل كل عضو بدوره بخمسة أعضاء.. ولا يقبل عضو جديد إلا بعد التحرى عن خلقه وعن سوابقه بدقة. وكان كل عضو يدفع اشتراكاً يوضع فى صندوق توفير.

وكان أول عمل للجماعة بعد ما أعيد تنظيمها على هذا النحو إذاعة منشور على الأمة مكتوب أصله بخط اليد ومطبوع على آلة طباعة. وفى هذا المنشور الذى نشر عام ١٩٤٩ دعا «الضباط الأحرار» جميع المصريين إلى المطالبة بتحرير الوطن من القوات الأجنبية لكى تأتى المحنة التى أصابت البلاد فى حرب فلسطين بشرفها.

فيجب إعادة تنظيم الجيش وتسليحه وتدريبه..

ويجب الا يكون فى أيدى الحكام يشركونه فى الحفلات والاستعراضات.

ويجب على أولى الأمر أن يكفوا عن تبذير ثروات البلاد فى المباهج والفخفخة..

ويجب رفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة التى تموت جوعاً.

ويجب وضع حد للاتجار المعيب بالرتب والنياشين.

وقام جمال عبدالناصر مع كمال الدين حسين وصلاح سالم بتوزيع هذا المنشور على صناديق بريد ضباط أركان حرب الجيش على حين تولى توزيعها باليد فى وحدات المشاة والفرسان والقوات الجوية زكريا محى الدين وعبداللطيف البغدادى وحسين الشافعى وحسن إبراهيم وثروت عكاشة ومجدى حسنين وإبراهيم الطحاوى.

وأطار المنشور صواب قيادة الجيش فأنشأوا ملفا خاصا باسم «الضباط الأحرار» وراحوا يتساءلون عن واضعيه ويطلقون كلابهم الشرطية المسعورة بحثا عن أية رائحة تقودهم إليهم.. بلا جدوى.

وفى القصر.. ثارت ثائرة الملك فاروق.. فأمر «شرطته الخاصة» بالاهتداء بجميع الوسائل إلى أسماء الثائرين الوقحين الحاقدين..

فى ذلك الوقت اتصل اليوزباشى مصطفى كمال صدقى ـ الزوج الرابع للفنانة تحية كاريوكا ـ بجمال عبدالناصر وأعطاه بيانات عن جمعية وطنية سرية كونها فى صفوف الجيش بتأييد سرى من الملك وعرض عليه ضم جماعته إلى جماعة الضباط الأحرار.. وروى أنور السادات:

إن جمالا أظهر دهشته لهذا الكلام وتعب حتى أقنع اليوزباشى بأنه لا يريد أية جماعة سرية.

كان جمال عبدالناصر يتحلى بمقدرة على الكتمان فأفلح فى إدارة حركة الضباط الأحرار بسرية فائقة دون أن يثير شكوك قيادة الجيش و«الشرطة السياسية» ودون أن يعلم المنضمون للجماعة أنفسهم أنه كان المحرك الأول لها..

وفى عام ١٩٥٠ انتخب جمال عبدالناصر رئيسا للجنة التنفيذية واتخذ لنفسه اسما

مستعارا هو «زغلول» للاتصال به تليفونيا حتى لا يشتبه فى أمره «الشرطة السريون».

وفى ذلك الوقت قدم خالد محيى الدين أكثر أعضاء الحركة يسارية فى هيئة الضباط الأحرار. لجمال عبالناصر القاضى أحمد فؤاد الذى كان يقيم فى مواجهة مدرسة أركان الحرب فى المنزل الذى يقيم فيه كمال الدين حسين وكان اشتراكيا عن عقيدة وكان يعير ناصر كتب لاسكى دبيفان ونهرو.

كان الصاغ جمال عبدالناصر فى حياته الخارجية يعيش عيشة جد منتظمة.. وقد نجح بتفوق فى مدرسة أركان الحرب فى ١٢ مايو سنة ١٩٤٨.. وتميز خلال حرب فلسطين وقد منح عام ١٩٤٩ نيشان «النجمة العسكرية».

وفى عام ١٩٥٠، ١٩٥١ عين مدرسا بكلية أركان حرب القوات المسلحة فأظهر من الجدارة ما أظهره عندما كان مدرسا فى الكلية الحربية.. وكانت معركة فلسطين القاسية قد فتحت ذهنه.

وعندما عاد لمطالعة التاريخ العسكرى والاستراتيجية التى كان قد طالعها قبل سنة ١٩٤٨ كان استيعابه لتعاليمها أعظم.

وكان زملاؤه فى التدريس الصاغ زكريا محى الدين الذى يحاضر عن «النقابات» وعن «المخابرات» وكمال الدين حسين مدرس المدفعية.

وفى عام ١٩٤٩ توجه الصاغ عبدالحكيم عامر الذى كان فى فلسطين مساعدا للواء محمد نجيب، توجه يعوده فى المستشفى الذى كان يعالج فيها من الجراح التى أصابته فى فلسطين فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ . ثم قابله فى مدرسة أركان الحرب حيث كان يلقى المحاضرات.

وذات يوم ذهب لزيارته ومعه جمال عبدالناصر. وفى مرة أخرى اصطحب معه الصاغ صلاح سالم.

وبعد أن جس الضباط الأحرار نبض اللواء نجيب فى حذر أحاطوه علما بأهداف وبخطط الضباط الأحرار.. وقبل اللواء نجيب الالتحاق بجماعتهم السرية، غير أنه لم يلعب فيها دورا عاملا.. إذ لم يكن يعرف إلا جزءاً من أعضاء اللجنة التنفيذية.

وكان الضباط الأحرار فى منشوراتهم يقومون بالحملة ذاتها.

وفى أواخر سنة ١٩٥٠ أصبحت منشوراتهم نشرة تدوى بتهديد نظام الحكم» وحملت اسم «صوت الضباط الأحرار».

وخلال عام ١٩٥٠ انطلقت فضيحة الأسلحة الفاسدة فلطخت بعض كبار الضباط والأسرة المالكة نفسها.. وعندما راجع ديوان المحاسبة العمليات المالية التى تمت عامى ١٩٤٨، ١٩٤٩ تبين وجود مخالفات كثيرة، وصرف رشاوى هائلة وشراء أسلحة وذخائر فاسدة.. وبينما كان الضباط والجنود يعانون الأمرين فى فلسطين، كان فى القاهرة رجال لا ضمائر لهم يثرون من وراء أسلحة الجيش.

ففى سنة ١٩٤٩ قفزت ميزانية وزارة الدفاع الوطنى من ٦٣ مليون جنيه إلى ١٩٣ مليون من الجنيهات وانشئت فرقة مصفحة كما أنشئت مصانع حربية، غير أن الضباط الأحرار لم يثقوا فى أولئك الذين يتصرفون فى الاعتمادات. فقد تبين أن اللواء حسين سرى عامر رئيس أركان حرب سلاح الحدود قد اشترك فى صفقة من الذخائر كانت القوات الأجنبية فى الحرب العالمية الثانية قد تركتها فى الصحراء الغربية وبيعت للجيش المصرى بأسعار باهظة. وانتشرت الإشاعة بأن الملك نفسه له يد فى الصفقات السرية الخاصة بالأسلحة الفاسدة.

وتحت ضغط الرأى العام أجرت وزارة الحربية تحقيقا كشف عن قائمة طويلة لأشخاص تناولوا العمولات من تجار الأسلحة.

غير أن النائب العام تلقى أمراً بوقف تحقيقه الذى اتسع فيه نطاق القضية فى الوقت الذى حامت فيه الشبهات حول الملك والمحيطين به.

وإلى جانب فضيحة الأسلحة قامت فى خريف ١٩٥٠ فضيحة البورصة إذ تورط بعض أعضاء حكومة الوفد وقرينة الزعيم مصطفى النحاس الشابة نفسها فى مناورات بورصة القطن بالاسكندرية حيث أثارت عمليات احتكار محصول القطن تضخما خطيرا فى الأسعار واختلت حياة البلاد الاقتصادية من جراء مناورات بعض المضاربين من ذوى الجرأة الذين لا ضمائر لهم.

وبدأ إفراط الرأسماليين وتعسفهم كريها ولا سيما أن الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة تعانيان الأمرين من غلاء المعيشة.

وثارت ثائرة المزارع الصغير الذى كان يضطر إلى بيع محصوله قبل الجنى لافتقاره إلى وسائل العيش.

حقا.. ثارت ثائرة الفلاح المصرى عندما تبين أن ثمن بالة القطن كان يرتفع إلى ثلاثة أضعافه بمجرد أن يصبح المحصول تحت يد المضاربين.

وبالنسبة لجمال عبدالناصر.. الذى يعيش من مرتبه.. والذى كانت قنابل المدافع الإسرائيلية لاتزال تدوى فى آذانه.. والذى لم تغب بعد عن نظره رؤية الفلسطينيين العرب وهم يطردون ومن ديارهم.

بالنسبة إليه كانت فكرة أن الملك وحاشيته قد أثروا من حرب فلسطين بغيضة، كريهة لا تحتملها نفسه..

كما دعم تعسف الرأسماليين وكبار الملاك عقيدته بأنه يجب حماية العامل والفلاح والموظف الصغير والمثقف الشريف من احتكار الرأسمالية والإقطاع.

نحن هنا.. وسنبقى هنا

عاد حزب الوفد مرة أخرى إلى الحكم عقب انتخابات أوائل عام ١٩٥٠، كان الحزب يضم عناصر وطنية صادقة، كما كان يضم كبار الملاك والساسة المحترفين الذين يستغلون وظائفهم للثراء.

وعادت الوزارة الوفدية تتفاوض وانجلترا بشأن الجلاء عن الأراضى المصرية والأراضى السودانية.

وبعد مضى خمسة عشر شهرا من مفاوضات مملة كرر خلالها كل جانب نظريته إلى مالا نهاية دون أن يقنع نفسه، اشتعلت الأمور، فطالب الرأى العام المصرى بالغاء التحالف مع انجلترا وبجلاء القوات البريطانية، وأعاد الساسة والصحفيون إلى الذاكرة أن معاهدة سنة ١٩٣٦ وقعتها مصر فى الوقت الذى كان يلوح فيه المحتل الإنجليزى بخطر

الاحتلال الفاشستى لوادى النيل، وهى تخضع مرغمة للاستعمار البريطانى الذى تعرفه ويشغلها الاستعمار الإيطالى والألمانى الذى يهددها.

وقد اختارت مصر مرغمة الاستعمار الأول.. وهو أقل وبالا ولا قدرة لها على دفعه، غير أن الأيام قد تغيرت وكسبت الديمقراطية المدافعة عن حرية الشعوب الحرب العالمية ولم يعد هناك خطر هتلر أو خطر فاشستى، وأصبحت مصر عضوا من أعضاء الأمم المتحدة التى يقوم دورها على السلام الدولى واحترام حقوق الشعوب الصغيرة.. فهى ليست فى حاجة خاصة إلى انجلترا ولا إلى تحالف خاص يبيح للطرف الأقوى حق احتلال جزء من أرض وطن الطرف الأضعف.

وإلى كل ذلك.. فلم تحترم انجلترا شروط معاهدة ١٩٣٦. ذلك أنه كان مصرحا لها بأن تبقى فى مصر فرقة قوامها ١٠,٠٠٠ رجل و٤٠٠ طيار، فاستغلت هذا التصريح لتشيد على ضفاف قناة السويس قاعدة عسكرية هائلة جعلتها جيشاً يزيد عدده عن ٦٠,٠٠٠ ألف رجل.

وتحويل القناة إلى منطقة عسكرية يخالف أحكام اتفاقية سنة ١٨٨٨ الخاصة بحياد شريان الملاحة البحرية الدولية الكبير.

وواجه المفاوضون الإنجليز الحجج المصرية ببرودهم البريطانى الشهير «أنا هنا وسأبقى هنا» كأن الوضع الحالى لا يمكن إلا أن يظل قائما إذا لم تعقد اتفاقات جديدة.

وتحت ضغط الجماهير المصرية وتحت ضغطر الشبان وشباب الطليعة الوفدية بصفة خاصة. وتحت ضغط الجماعات اليسارية فى مصر. اتخذت الحكومة الوفية قرارا خطيرا، ودعت الحكومة والبرلمان إلى عقد جلسة غير عادية ووافق بالإجماع فى ٦ من أكتوبر سنة ١٩٥١ على إلغاء معاهدة التحالف التى أبرمت فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ واتفاقية السودان التى عقدت فى ١٩ من يوليو سنة ١٨٨٩، وأعلن تنصيب فاروق ملكا لمصر والسودان.

وقامت إنجلترا وفرنسا وتركيا مرة أخرى بمسعى أخير لإبقاء مصر فى نطاق النظام الدفاعى للدول الغربية.. وعرضت على مصر عقد ميثاق رباعى يكفل سلامة الشرق

الأوسط.. فتسبح القوات البريطانية من قاعدة القناة وتحل محلها قوة دولية تتقدمها الدول الأربعة الموقعة على الميثاق.

كان الشعور السائد فى صفوف الشعب المصرى أن مصر يجب أن تظل فى منأى عن خصومات الدول العظمى. وكان الشباب بصفة خاصة - ونفوذهم عظيم فى الحياة السياسية - لا يؤمنون بالخطر الروسى، أما الذين يؤمنون بهذا الخطر فيرون من الأفضل فى عصر القنبلة الذرية أن تقوم فى البلاد قيادة عامة لجيوش الكتلة الغربية وانهم سوف يفصلون كل شىء لإجلاء القوات البريطانية، ولكن حتى إذا بقيت هذه القوات بالقوة على ضفاف القناة فقد بدا من الأفضل لمصر أن تكون قد أظهرت فى وضوح عدم تضامنها مع الكتلة الإنجليزية الأمريكية حتى لا تتحول فى حالة قيام الحرب إلى كوريا أخرى.

ولكن.. كان فى مصر أفراد يعتقدون أن مستقبل البلاد إنما هو فى التحالف الصادق مع إنجلترا.

وهذا رأى «أحمد ماهر» رئيس الوزراء الذى كان يعتقد أنه يجب على مصر أن تلعب ورقة «الحلفاء الغربيون» لتحمى نفسها من الخطر الشيوعى وأن تستفيد من المساعدة المالية الأمريكية.

غير أن أحمد ماهر اغتاله أحد الإخوان غير أن هذا لم يكن يشترك فيه إلا بعض الأفراد وهو رأى يتعارض تماما والشعور بالوطنى المصرى، وشعور البلاد العام.

وكانت تلك الخدع السياسية تثير اشمئزاز الوطنيين ونفور جميع الذين يجاهدون لكى تكافح مصر كفاحا لا رحمة فيه فى سبيل الحصول على الجلاء القوات البريطانية.

وهذا كان شعور جمال عبدالناصر الذى رقى إلى رتبة «البكباشى» فى ٨ مايو سنة ١٩٥١ والذى عين مدرسا بمدرسة أركان الحرب فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٥١.

كان جمال عبالناصر يبين سخطه وحقده ومرارته من جنود الاستعمار الذين كانوا كما يقول لزملائه فى مدرسة أركان الحرب، قبل حرب فلسطين «يلوثون بأنفسهم هواء الحرية فى مصر».

وإذا كان جمال عبدالناصر قد سره أن وزارة مصطفى النحاس باشا قد ألغت معاهدة سنة ١٩٣٦، فذلك لأن شعور جمال عبدالناصر وأصدقائه كان يتفق مع شعور مصر العميق.

كان جمال عبدالناصر الطالب الوطنى قد احتج فى عنف عام ١٩٣٦ على إبرام المعاهدة مع إنجلترا، فما كان فى وسعه بعد مضى خمسة عشر عاما إلا أن يبتهج بالغائها.

لقد انتهى الموقف إذن بالسياسيين إلى الانضمام إلى الموقف العنيد الذى دافع عنه فى يأس منذ خمسة عشر عاما عندما قبل الوطنيون الوفديون والساسة الواقعيون ابتداء من النحاس باشا إلى صدقى باشا - ربط مصر بمصير بريطانيا.

وفى سنوات التحالف الخمسة عشر كافحت مصر بأكبر قسط من النجاح فى سبيل استقلالها التام..

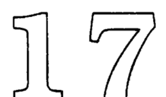
فعلى الصعيد الدولى أصبحت مصر عضوا فى هيئة الأمم المتحدة.. وفى القاهرة كانت الجامعة العربية تعقد جلساتها.

وأكدت مصر شخصيتها السياسية وكان على إنجلترا أن تقيم وزنا لهذا العامل الأدبى.

وارتفع عدد قوات الجيش المصرى عقب المعاهدة من ١١,٠٠٠ إلى ٨٠,٠٠٠ جندى وكان من شأن ذلك أن نمت القيادات فى صفوف الجيش نموا كبيرا. وكانت الكلية تخرج قبل المعاهدة دفعتين من ٣٦ طالبا كل عام.. وبعد المعاهدة كانت تخرج ٣٢ دفعة أى حوالى ١٠٠٠ طالب، وبفضل هذا النمو فى كادر الضباط قبل جمال عبدالناصر فى الكلية الحربية فى مارس سنة ١٩٣٧ بعد أن كان قد رفض فى امتحان القبول.

فقد أتاحت معاهدة سنة ١٩٣٦ أن يلتحق بالجيش أشد العناصر حيوية من الضباط الأحرار.

■ ■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

موقف محرج!!

جمال عبدالناصر يتحدث عن أحرج موقف مر به فى حياته..!!

ماذا كان شعور جمال عبدالناصر ليلة الثورة..؟

كان جمال عبدالناصر يوم ٢١ من يوليو عام ١٩٥٢ جالسا فى هدوء بمكتبه بمدرسة أركان الحرب يصحح أوراق امتحانات الطلبة، بينما كان عبدالحكيم عامر وزكريا محى الدين وكمال الدين حسين يعدون الخطوط النهائية لبرنامج العمل.

وأصدر عبدالناصر التعليمات إلى الضباط الأحرار الذين سيشتركون فى الثورة بأن يظلوا فى مساكنهم يوم ٢٢ يوليو ابتداء من الساعة الثالثة بعد الظهر لتلقى تعليمات جديدة.

وفى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٢١ كان ثمانية من أعضاء الهيئة التنفيذية مجتمعين بممنزل خالد محى الدين فى منشية البكرى، بالقرب من مدرسة أركان الحرب ومن القيادة العامة للجيش.

تلا عليهم عبدالحكيم عامر خطة العمل التى وضعت بتوجيهات جمال عبدالناصر.

كان على عبداللطيف البغدادى وحسن إبراهيم اخضاع قاعدة ألماظة.

وعلى حسين الشافعى وخالد محى الدين الاستيلاء على سلاح الفرسان والمصفحات.

وعلى القائمقام أحمد شوقى الاستيلاء على القيادة العامة بكتيبة المشاة الثالثة عشرة تؤيده الكنيسة الأولى المتحركة بقيادة البكباشى يوسف منصور.

لن تبدأ الحركة الا فى الساعة الواحدة اذ تكون الشوارع فى تلك الحالت خالية والضابط الكبار فى فراشهم فيتسنى جمعهم من منازلهم.

وكانت الخطة التى وضعها جمال عبدالناصر والتى كتب فى ورقة صغيرة تقضى

باحتلال القيادة العامة للجيش والثكنات والاستيلاء على الاذاعة ومركز التليفونات وشبكة المواصلات. بعد ذلك يأتى الاستيلاء على الحكم وعزل الملك.

فى الساعة السادسة افترق الثوار بعد أن اتفقوا على الاجتماع فى منتصف الليل. غير أنه لم تمض ساعة على افتراقهم حتى توجه اليوزباشى سعد توفيق إلى ناصر وأبلغه أن رئيس هيئة أركان الحرب اللواء حسين فريد - قد دعا إلى عقد اجتماع عاجل فى القيادة العامة فى الساعة العاشرة مساء ، ويبدو أنه علم بالمؤامرة. فقرر عبدالناصر حينذاك تقديم موعد العملية ساعة. وذهب بنفسه بسيارته الاوستن الصغيرة يخطر الثوار بتقديم الموعد ساعة.

ويحكى ثروت عكاشة: وحوال الساعة التاسعة والنصف مساء جاءنى شاب طويل بليس قميصا وبنطلونا رياضيا. وكان جمال.. «اخطرنى بأن موعد العملية قد تقدم، وقال لى بالانجليزية «ياثروت لاتدع عواطفك تتكلم.. ولاتتصور انك فى دار سينما.. فلدينا ٩٩٪ من فرص النجاح».

كتب جان وسيمون لاكوبيتر يقولان: «ان جمال عبدالناصر قد أفلح فى اخطار أنور السادات فى الوقت الذى كان فيه هذا الاخير يتأهب للتوجه إلى دار السينما مع أولاده. ولكن أنور السادات نفسه يروى أنه عاد من رفح فى الساعة الرابعة والنصف ولما لم يجد أية رسالة موجهة إليه صاحب أولاده إلى دار سينما مجاورة لمنزله ولما خرج علم أن جمال مر عليه بسيارته الاوستن المشهورة وترك له ورقة كتب عليها هذه الكلمات «العملية تحدد لها الليلة» المقابلة فى بيت عبدالحكيم الساعة الحادية عشرة».

ولما وجد أنور السادات هذه الكلمة عند البواب قفر إلى شقته وارتدى ثيابه العسكرية وانطلق إلى منزل عبدالحكيم عامر ولم يجد أحدا.

كانت العملية قد بدأت. والسبب هو التالى:

فى الساعة الحادية عشر توجه أحد ضباط المخابرات اليوزباشى سعد توفيق وكان من الثوار، وأبلغ اللجنة أن الحكومة قد تنبهت وأن اللواء حسين فريد قد دعا قواد الوحدات إلى اجتماع عاجل فى مبنى القيادة العامة.

ولم يفقد جمال عبدالناصر رباطة جأشه وقال «ان العملية قد بدأت ولاسبيل إلى التراجع سوف نلقى القبض على جميع هؤلاء القواد معا بدل القبض عليهم واحدا واحدا فى منازلهم.

تكشف طابع جمال عبدالناصر كله فى هذه اللحظة، ذلك أن غيره ربما تراجع تراجعا استراتيجيا، اما هو فقد تقدم إلى الامام.

أحرج موقف عاشه عبدالناصر

لما سأل جمال عبدالناصر عن احرج موقف مر به فى حياته قال: لقد مرت بى متاعب كثيرة، غير أن أحرج موقف عرفته هو الموقف الذى وجدت نفسى فيه ليلة الثورة، فى الثانى والعشرين من يوليو.

فى تلك الليلة كانت يجب احتلال القيادة العامة فى الساعة الواحدة والنصف، وكان على جميع القوات أن تجتمع فى القيادة العامة. ولكنى حوالى الساعة الحادية عشرة علمت أن احد الضباط من أعضاء الحركة قد أثار شبهة أخيه. وقد حاول هذا الاخير منعه. ولما لم يفلح اتصل تليفونيا بقصر القبة وأبلغ الضابط «النوبتجى» وأبلغ ضابط قصر القبة بدوره ضابط قصر المنتزه حيث كان الملك السابق.

وفى الحال صدرت التعليمات إلى الفريق حسين فريد رئيس هيئة اركان الحرب للوقوف فى وجه حركتنا والقضاء علينا، وتوجه الفريق حسين فريد إلى القيادة العامة بكوبرى القبة وجمع كل ضباطه ورسم خطة تنفذ فى الحال.

وعلمت بهذا النبأ فى الساعة الحادية عشرة وأنا فى منزلى وكنت قد أعددت كل شىء هو كان جميع الضباط فى منازلهم لتنفيذ الحركة، ولم أر إلا طريقة واحدة للخروج من هذا المأزق، كان يجب القاء القبض على رئيس هيئة.أركان الحرب وعلى جميع الضباط الذين معه قبل أن ينتهوا من اجتماعهم، وينفذوا خطتهم. وتوجهت إلى منزل صديقى عبدالحكيم عامر حيث كان يجب أن نلتقى فى منتصف الليل. وغادرنا المنزل وتوجهنا صوب تكنات قصر النيل، وهناك وجدنا فصيلة قوية من الشرطة الحربيين. ترابط امام الباب ولم تعمل خطتنا حسابا لذلك.

وأدركنا فى الحال أن خصمنا بدأ عمله فتوجهنا صوب سلاح الفرسان. وكان الباب مغلقا بحراسة رجال قد لايكونون من أتباعنا، وفى طريقنا رأينا فوجا كبيرا من السيارات متجهة ناحية القاهرة. وكانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة والنصف. وهذا أيضا لم يكن فى حسابنا اذ أن ـ قواتنا لم تكن لتتحرك لنا لا فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

وبدأنا نفكر ونتساءل.. هل هى سيارات تابعة لنا أو للقيادة العامة؟.. وسرعان ماوثقنا انهم ليسوا من رجال رئيس أركان الحرب لانه لايمكن ان يكون قد بدأ العمل بعد.. واعتقدنا اذن أن احد رجالنا قد دفعته الحماسة فجأة إلى تقديم موعد العمل.. وانتظرنا على حافة الطريق إلى أن وصل الفوج إلينا.

ودهشت حينما تبينت أن بالسيارة الأولى اللواء مكى قائد اللواء الثانى، فى حين كان فى الثانية الأميرالاى عبدالرؤوف عابدين قائده الثانى ـ وخشيت فى هذه اللحظة أن يكونوا قد بدأ والعمل لحساب رئيس الاركان. وفى طرفة عين وجدت نفسى أنا وعبدالحكيم عامر محاطين بخمسة ضباط برتب ملازم أول مسلحين ببنادق «التومى» وأمرونا بأن نرفع أيدينا وبالا نتحرك.

وكانت هذه اللحظة ولاشك أحرج لحظة فى حياتى وأعتقدت أن الخطة التى أعددناها قد أخفقت اخفاقا ذريعا. بيد أنه سرعان ماسمعت البكباشى يوسف منصور ينادينى من السيارة الثالثة ويقول فى لهجة واضحة «لقد أسرنا اللواء وقائده الثانى وأخذت معى كل السيارات التى وجدتها فى طريقى..

ثم نزل من سيارته وتقدم إلى وهو يقول «ان القوات التى معه تتكون من ٨٠ رجلا لأن باقى القوات لازالت فى فلسطين.

وأدركت حينذاك فقط أنه تحرك فى منتصف الليل بدل الساعة الواحدة صباحا ولم يكن أمامنا الا حل واحد «احتلال القيادة العامة بهذه الفصيلة ـ واتجهنا إلى كوبرى القبة وبدأنا نحاصر الموقع فى الساعة الواحدة الا خمس دقائق أى قبل الموعد المقرر بأربعين دقيقة.

وكنا لانعلم فى ذلك الوقت ما كان يجرى بعيدا عنا .. هل كانت القوات الأخرى تنفذ البرامج المرسوم أولا؟.. ووزعنا قواتنا وهاجم عبدالحكيم عامر ويوسف صديق وضباط الفصيلة الباسلون و ٣٠ جنديا رياسة أركان الحرب، وكان بابها الحديدى مغلقا، وأطلق علينا النار ضباط أركان الحرب الذين كانوا فى مراكزهم واستمرت المعركة أربعين دقيقة.

وفى هذه الاثناء كانت قوات الفرسان قد بدأت تتحرك فعلا، وفى الساعة الواحدة والنصف كان مبنى رياسة أركان الحرب فى أيدينا والقينا القبض على جميع من كانوا فيه.

وكان هذا العمل أو بشائر النجاح، نجاح الثورة التى اتخذت طريقها بعون الله.

ـ وماذا كان شعوركم ليلة الثورة؟

ـ كنت أشعر بنفسى كالمعتاد تماما.

وفى خلال تلك الليلة ـ ليلة ٢٣ يوليو ـ بدأ فى وضوح طابع جمال عبدالناصر الهادىء الواقعى.. فالثورة التى أعدها للقيام بها عام ١٩٥٥ دفعته الاحداث الى تقديمها إلى يوم ٥ أغسطس عام ١٩٥٣ ـ غير أن حرب المنشورات التى قضت بها ضرورة توسيع نطاق حركة الضباط الاحرار فى صفوف الجيش، استرعت الانظار أكثر مما يجب إلى هذا التنظيم إلى حد انتهى الامر معه بجواسيس الملك إلى اكتشاف زعمائه.

كان يجب اذن التعجيل بالحركة وتقديم ساعة الصفر بضعة أيام ثم ساعة لكى يسبقوا الضربة التى أعدها لهم رجال الملك والتى كان من شأنها أن تدمر البناء الذى كانوا يشيدونه منذ أكثر من عشر سنوات.

وبينما كانت الاحداث تتوالى بسرعة والذعر يدب فى نفوس بعض المتآمرين فاخذوا يميلون إلى التوسل بالاعمال الارهابية ـ إلا أن جمال عبدالناصر احتفظ برباطة جأشه وقام بثورته فى أنسب الاوقات وبأوفى قسط من فرص النجاح.

ففى ٢٠ يوليو تحدث أحمد أبو الفتح تليفونيا من الاسكندرية مع ثروت عكاشة وأخبره أن وزارة حسين سرى فى سبيل تقديم استقالتها وان الملك يريد فرض سرى عامر وزيرا للحربية فى الوزارة القادمة، وان هذا التعيين سوف يليه مباشرة القبض على أربعة عشر ضابطاً من بينهم.

وتوجه ثروت عكاشة فى الحال إلى منزل جمال عبدالناصر الذى كان يعج كالعادة بالضباط، وأخطره بالامر.

والواقع أن حسين سرى «باشا» قد وقع على استقالته فى ليلة ٢٠/١٩ يوليو، وفى ٢١ يوليو رفض ضم سرى عامر الى وزارته، ولكن لما كان فاروق يلعب على الحبلين، ولما كان سيفرض فى ٢٢ يوليو رجلا من اتباعه لتولى وزارة الحربية، فقد كان اخطار احمد أبو الفتح لفتة من العناية الالهية دفعت بعبد الناصر إلى التعجيل بالثورة المحدد لها يوم ٥ اغسطس.

لما علم جمال عبدالناصر من ثروت عكاشة بما حدث توجه مع عبدالحكيم عامر وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم فى ٢٠ يوليو الى «الفيلا» الصغيرة التى كان يقيم فيها اللواد محمد نجيب بحدائق القبة بالقرب من كازينو «حلمية بالاس» وكانت مجاورتها لهذا الملهى العام تتيح للضباط الشبان ترك سياراتهم إلى جانب سيارات رواد الملهى وتجنب استرعاء أنظار الشرطة السرية على زيارتهم لمنزل محمد نجيب.

وقرر الثوار العمل خلال ٤٨ ساعة فلم تكن هناك حكومة، والساسة يقضون اجازتهم فى أوروبا أو فى الاسكندرية، وكان الجو شديد الحرارة إلى حد أن احدا لم يكن ينظر إلى الامور نظرة جدية أو يفكر فى قيام ثورة عاجلة، فكانت الفرصة متاحة لتولى زمام الحكم والتخلص من الملك قبل ان يلقى القبض على زعماء الضباط الاحرار الذين يبدو ان الشرطة السياسية قد استدلت عليهم.

ولما كان اللواء محمد نجيب موضوعا تحت رقابة رجال الفريق حيدر وشرطة القصر، فقد اتفق على أن يظل فى منزله ساكنا ويترك الضباط الشبان يعملون، واذا ما تمت العملية يعودون لاصطحابه.

وعمل جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وكمال الدين حسين على ابلاغ أعضاء اللجنة الذين هم خارج القاهرة من بينهم جمال سالم وصلاح سالم وأنور السادات، وقد كان فى معسكر رفح على حدود فلسطين. وفى عشية الثورة انضم إلى اللجنة التنفيذية أربعة من الضباط الاحرار الذين لم يكونوا أعضاء فيها وهم البكباشة زكريا محيى الدين وحسين الشافعى وعبدالمنعم أمين ويوسف منصور، وابلغ عشرة من الضباط خطة الثورة.

وفى الساعة الثالثة والنصف من صباح ٢٣ يوليو أرسل جمال عبدالناصر سيارة مصفحة إلى فيلا اللواء محمد نجيب لتجىء به الى القيادة العامة ليرأس مجلس قيادة الثورة الذى دعا الملك الى تكليف على ماهر باشا بتأليف أو حكومة للعهد الجديد.

وفى اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار اضطر جمال عبدالناصر إلى استعمال كل نفوذه للاكتفاء بطرد الملك فاروق وكان نصف أعضاء اللجنة يرون أن الملك خان بلاده واستحق الموت، وكان الملك قد ارسل سراً من الاسكندرية دعوة إلى القائد العام للقوات البريطانية احتجزها الضباط الاحرار.

وروى «لاكوبترا» ان محمد نجيب ومعه ثلاثة من الضباط الاحرار هم حسين الشافعى من سلاح الفرسان وجمال سالم من السلاح الجوى وأحمد شوقى من سلاح المشاة صعدوا على ظهر الباخرة التى ستقل فاروق الى منفاه الاختيارى فى ايطاليا، وتقدموا باحترام اليه وذكره اللواء نجيب بأنه سبق له أن قدم استقالته عندما قام الانجليز بعملهم القهرى فى فبراير ١٩٤٢ ولاء منه للعرش. ومن خلف نظارته السوداء بدأ على فاروق التأثر وقال «اعتنوا بالجيش»

- فأجابه نجيب على الفور «انه فى يد أمينة يامولاى».

ولم يعجب الرد فاروق فقال فى جفاء «ان مافعلتموه بى كنت على وشك ان افعله بكم».

وبينما كان حفيد محمد على الذى اخفق فى القيام بمهمته كملك هذا الاخفاق الذى يرثَى له - يغادر مصر تحت اشعة شمس صيف يوليو الغاربة. كان ضابط شاب فى الرابعة والثلاثين من عمره يعد العدة لتولى زمام مصر.

وظل على ماهر باشا رئيسا للوزارة حتى سبتمبر ١٩٥٢ وخلفه اللواء محمد نجيب على رأس حكومة ملكية حتى ١٨ يونيو ١٩٥٣، وكان جمال عبدالناصر يحتل المكان الثانى.

ورأس جمال عبدالناصر الوزارة فى ابريل سنة ١٩٥٤، ولكنه كان فى الواقع - فى وظيفته الرسمية الأولى والثانية - هو الذى يدير دفة الامور فى مصر وبسير بها فى

طريق الثورة التى حلم بها واعدها منذ حداثته.

فقد اعد قارىء «فولتير» و «روسو» والمعجب بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام وبعمر بن الخطاب ويقيصر ونابليون، هذا التلميذ الذى كان يبحث فى دار الكتب عن مقالات مصطفى كامل الوطنية ـ أعد مصيره «الممتاز».

كان جمال عبدالناصر يؤمن بأن الامة العربية والاسلامية تنتظر زعيما ورأى نفسه قادرا على أن يكون هذا الزعيم.

لقد تحمل جمال عبدالناصر مسئوليات عظيمة وهو يحوط نفسه بفريق من المساعدين الذين كانوا يتصفون بالمهارة غالبا وبسوء التصرف تارة وبالحيوية دائما.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهي تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

الإسرائليون يحاولون !!

قصة اللقاء الأول بين جمال عبد الناصر وياسر عرفات..
كيف كان اللقاء بين جمال عبد الناصر والمقاومة الفلسطينية
الموقف الذى تعرضت فيه علاقة جمال عبد الناصر وياسر عرفات لمحنة.. وأزمته شديدة.
ماذا طلب جمال عبد الناصر من ضابط المخابرات الإسرائيلى عند التقى به.
كيف التقى جمال عبد الناصر بيجال آلون؟
كيف سعى بن جوريون لمقابلة ضباطه الذين التقوا بعبد الناصر؟

العلاقة بين عبدالناصر وفلسطين علاقة قديمة.. منذ عام ١٩٤٨ عندما ذهب إلى هناك ضمن الجيش المصرى الذى دخل أرض فلسطين ليحررها من العصابات الصهيونية. وهناك حوصر مع الكتيبة السادسة ـ وكان قائدها ـ فى الفالوجا وعراق المنشية. وكان الحصار الطويل فرصة مكنت عبدالناصر من اكتشاف المجرمين الحقيقيين وكثيرا ما قلت لنفسى.. هانحن فى هذه الجحور محاصرون.. لقد غرر بنا، دفعنا إلى معركة لم نعد لها.. لقد لعبت باقدارنا مطامع ومؤمرات وشهوات.. وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح.

إلى أين رحل بعد معركة ضارية، وسباق مضن مع الزمن، وطوال عشرة أيام متصلة ـ هى الأيام الأخيرة من عمره ـ ظل ساهرا محاولا حقن الدماء فى عمان إنقاذا للدماء العربية والفصائل الثورة الفلسطينية من نزيف الدم الذى حث.

ولكن كيف التقى جمال عبدالناصر بالثورة الفلسطينية ـ ومتى عرف للمرة الأولى ياسر عرفات..؟

كانت المرة الأولى فى اواخر عام ١٩٥٢ ـ ايامها كان ياسر عرفات ـ رئيسا لرابطة طلاب فلسطين فى القاهرة، وقد توجه ومعه اعضاء الرابطة لمقابلة محمد نجيب، رئيس الوزراء وقتها كوفد من طلبة فلسطين.

وتأخر محمد نجيب.. وظل الوفد برئاسة ياسر عرفات واقفاً فى ردهة مجلس الوزراء ـ وكان المجلس فى حالة انعقاد.. وخرج جمال عبدالناصر ـ وتعرف به ياسر عرفات للمرة الأولى ـ كلمه عن موعدهم مع محمد نجيب.. وذكر سبب المقابلة.. فعاد

عبدالناصر إلى قاعة الاجتماع وحدد لهم موعدا اخر لمقابلة محمد نجيب.

كانت المقابلة الثانية فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٣. كان يحضر احد الاحتفالات هو وعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة.. وكانت علاقة ياسر عرفات ببعضهم وثيقة نشأت من تعارفهم خلال معارك ١٩٥١ مع القوات البريطانية.

وبعد ذلك.. باعدت الأيام بين ياسر عرفات وجمال عبدالناصر حيث ترك عرفات مصر بعد حرب السويس بفترة طويلة.. وخلالها لم يره على الاطلاق حتى وقع عدوان يونيو ١٩٦٧.

امتدت الغيبة الطويلة إلى أكثر من عشر سنوات خلالها كان ياسر عرفات قد تنقل بين عديد من الدول العربية.. وفى أول يناير ١٩٦٥.. اطلقت «العاصفة» أول رصاصاتها، حيث بدأ جيل جديد من الثوار يمارس العنف الثورى استخلاصا للحق العربى فى الأرض المغتصبة.

كان جمال عبد الناصر مشغولا طوال تلك السنوات بمعارك التصنيع والوحدة ويواجه شراسة الانفصال وحرب اليمن. ومعركة التنمية وبعد هذه الغيبة الطويلة.. التقوا فى مارس ١٩٦٨ على أثر معركة الكرامة.. وكان اللقاء رسميا وقصيرا.. وبعدها سافر ياسر عرفات معه إلى موسكو باسم مستعار ووظيفة مستعارة فى الخارجية المصرية.. ايامها.. لم يكن احد فى العالم قد سمع باسم ياسر عرفات بعد.. وكانت فكرة عبدالناصر من اصطحابه معه، ان يفتح للمقاومة بابا يكون لها مصدر للسلاح.

تكررت بعد ذلك لقاءاتهم.. إلى أن كان اللقاء الاخير فى سبتمبر ١٩٧٠.. بعد ان خرج من عمان يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧٠ لحضور مؤتمر القمة الذى عقد فى البياتون.. كانت هذه اطول مدة يقابله فيها.. وتباحث معه خلالها، باستثناء رحلة موسكو التى سبق ذكرها.

كانت هذه اللقاءات ـ كما يروى ياسر عرفات ـ من اخطر اللقاءات التى تمت بينهما أهمية. فقد عقدت اثر احداث عمان فى سبتمبر ١٩٧٠..

وعن انطباعه الشخصى عن عبدالناصر كانسان يقول ياسر عرفات:

كانت قدرة عبدالناصر العقلية قدرة غريبة وفذة.. فرغم كل الامه.. فقد كان تصوره العقلى هو الغالب.

وكان صلبا وعنيدا .. يقاتل بقوة دفاعا عن كل مايؤمن به وكانت له قدرة عجيبة على السيطرة على نفسه واستشفاف الاحتمالات المتوقعة للاحداث.. وقدرة مذهلة على اتخاذ القرار المناسب ورسم وسائل تنفيذه..

ويذكر استدلالا على ذلك ان عبدالناصر كان يرى الثورة الفلسطينية وبعدها الثورى والحضارى وتأثيرها السياسى فى المنطقة فقد كان جمال عبدالناصر هو صاحب القول الشهير ان الثورة الفلسطينية وجدت لتبقى وهو الذى قال إن المقاومة هى أنبل ظاهرة فى التاريخ العربى المعاصر.

كان جمال عبدالناصر يدرك بوعى كامل خطورة الهجمة الصهيونية الامريكية على المنطقة. وكان انطلاقا من ذلك قادرا على التحديد الدقيق لاصدقائه واعداء الشعب المصرى فى هذه المعركة الشرسة.

وباختصار.. كل رجال المنطقة.

وحينما سئل ياسر عرفات عن علاقتهما على المستوى الشخصى قال: ان عبدالناصر لم يكن صديقا شخصيا له وحده.. ولاصديقا لاخوانه فقط. فقد كانوا يشعرون أنه رفيق درب.. ليس هذا فقط.. وانما كان يحنو على رفاقه فى المسيرة بلمسات الحنان الهادقة.

وقد حدث وتعرضت تلك الصداقة لمحنة.. وموقف دقيق.

فقبل وفاته بأيام.. وبعد قبول جمال عبدالناصر لمشروع روجرز وزير الخارجية الأمريكى.. جاء ياسر عرفات لمقابلته.. كان معه بعض رفقائه الفلسطينيين، وكانت المظاهرات تعم عمان ضد هذا المشروع.. وصلت انباء هذه المظاهرات التى لم تكن تعبر الا عن قلة قليلة، إلى جمال عبدالناصر مشوهة، وانصب التشويه على مايمكن ان يمس ياسر عرفات شخصيا.

ووسط هذا الجو استقبل جمال عبدالناصر أبو إياد وابو لطف وابراهيم بكره، دخل عليهم فى استراحة الاسكندرية وصافحهم قائلا:

أنا قعدت ساعتين أروض نفسى لكى لا أوجه لكم كلمة تزعلكم لانكم تعرفون مكانتكم ومحبتكم عندى.

وكانت هذه البداية الودودة هى كل ما قاله من كلمات العتاب. واستمرت المناقشة بينهم سبع ساعات متواصلة.

وعن موقع الثورة الفلسطينية من ثورة جمال عبالناصر قال ياسر عرفات:

ان الثورة الفلسطينية تعتبر امتداد طبيعيا وتاريخيا لثورة ٢٣ يوليو ولفكر عبدالناصر.

فالثورة الفلسطينية قد استفادت كثيرا من فكر عبدالناصر فهو أول من قدم ثوارها للاتحاد السوفيتى، كان يسعى لكى يزداد فهمهم للاتحاد السوفيتى ويزداد فهمه لهم.

ولم يحدث ان طلبت قيادة الثورة الفلسطينية من عبدالناصر شيئا وقال لهم «لا» فكما يروى ياسر عرفات ان جمال عبدالناصر قد وضع امكانيات وخبرات مصر لمساعدة ودفع الثورة الفلسطينية فكرا وعملا واعلاما وجهدا عسكريا.

وما يجب فى الحقيقة ان يكون واضحا ان المكتسبات التى اكتسبتها الثورة الفلسطينية من خلال جمال عبدالناصر كثيرة وتفاصيلها متعددة تتخلص فى كلمة كتبها ياسر عرفات بعد وفاة جمال عبدالناصر:

«ستظل الأجيال المقبلة تذكر فى ضميرها ووجدانها جمال عبدالناصر ولن تنسى صنيعه مع الثورة الفلسطينية».

وعن الثورة الفلسطينية بعد رحيل جمال عبدالناصر يقول ياسر عرفات:

لاشك أن الثورة الفلسطينية بعد جمال عبدالناصر قد فقدت معينا رئيسيا وسندا كبيرا، كما أن مسيرتها بعده كانت مسيرة سرية وكاد العملاء ان يقضوا عليها لولا ايمان الثوار والتصاقهم بجماهير امتهم العربية التصاقا استراتيجا عميقا ملتحماً مع كل احرار امتنا العربية العظيمة.

وستظل مهمة الثورة الفلسطينية ان تواصل النضال لكى تخلق الظروف التى تحقق فيها كل أهدافها.

وقال أبو جهاد.. احد قادة منظمة فتح.

«لقد فقدنا بفقد عبدالناصر أكبر نصير للعمل الفدائى وأكبر زعيم للأمة العربية.

لقد فقدنا قائدنا الحبيب ورمز نضالنا.. واننا سوف نسير على الطريق الذى اختطه لنا، ومضحين بأرواحنا فى سبيل تحقيق الاهداف والمثل العليا التى رسمها لنا حتى يتحقق النصر.

وقال فاروق قدومى «أبو لطف»:

كان البطل الراحل صورة صادقة للقائد الفذ، والسياسى المحنك، والعربى الاصيل. يمد كفه للخير والحرية، ويشقى لتسعد الجماهير، ويتألم ويعانى ليدفع موكب امته الصاعد.. لم يكن يشكو ولايتذمر.. تميش فى نفسه آمال شعب وحقائق قضية عادلة، هى قضية فلسطين، وكان يجد فى الثورة الفلسطينية أنبل ظاهرة عرفها تاريخنا العربى المعاصر، وقدم لها ما استطاع وأكثر، ودافع عنها بقوته وامكانياته، وعاش ليراها تقاتل العدو الصهيونى، وتتصدى للقوى المضادة، واذا وقعت فى خطأ عتب عليها، ولم يقس فى عتاب.

واذا انكفأت مد لها يد العون والمساعدة، واذا دهمت عليها الخطوب انبرى يدافع عنها ويحميها، معلنا حبه لها، واعجابه بها، واصراره على وجودها واستمرارها، وبالرغم من كل مشاغله كان جمال عبدالناصر لاينسى أن يلقى رجال الثورة الفلسطينيين دون موعد سابق، يحدثهم بهمومه ومتاعبه ويحكى لهم باسرار قلبه ليجد فيهم خير رفاق للدرب الشاق الطويل، يبتسم بتفاؤل صابر صامت، ويجول بنظرة الوفاء إلى من حوله من رفاق السلاح وكانه يجد فهم صورة الانسان العربى الجديد.. كان جمال روحا تبعث الامل للجميع، وانفاسا حارة تصعق العدم.. وقبساً يضىء الطريق لاحرار امته، لايكل ولا يمل يبحث عن المستقبل المشرق المنير فى خضم الاحداث، صبور دءوب يعمل بصمت وهدوء، ويرفع راية الحرية اينما ذهب، حقق لامته وشعبه ارفع الانجازات وأسمى المكاسب، بالرغم من التآمر الدولى عليه، لقد كان جمال عبدالناصر يحدث فى ضمير الامة ووجدانها اعنف الهزات بكلماته الصادقة المخلصة فتحرك الجماهير، وكأنها امواج البحر، هادرة تلبى مايطلب منها وتنفذ ما يقول، وكان العدو يصعق لكلماته، ويعرف انه اذا قال فعل واذا وعد شعبه وفىَ بوعده.. وقد يخطىء فيعترف بخطئه بشجاعة متحملا وحدة كل المسئوليات لايخشى فى ذلك ملامة لائم.

لقد ذهب جمال البطل الاسطورة، ولكن ما انجزه باق لن يذهب، وستبقى اعماله خالدة فى ضمير الامة خلود هذا الشعب وهذه الامة. لقد عرفنا جمالا القائد والبطل والانسان، وعرفناه المناضل والجندى والمقاتل، والاخ الوفى المتسامح، ما أعظم جمال فى حياته وفى مماته، فقد اعطى ولم يأخذ، بالرغم من قسوة الظروف وشدة المحن.. ورحل وفى نفسه شوق لاكمال رسالة امته ويحرر أرضها وينسى فيها وزرة القتال لعلها تصبح قادرة على بناء مستقبلها وتحرير ارضها من الاستعمار والصهيونية.

وفى بيان لقيادة منظمة فتح جاء فيه:

«ان حظك عاثر يافلسطين، فلقد فقدت مناضلا من ابرز المناضلين، ورجلا من اعز الرجال فى وقت انت بحاجة إلى المناضلين وبحاجة إلى الرجال، ان حبك لشعب فلسطين الذى احببته حبك لشعبك وحبك لامتك العربية لن يجعله ينال ايد الدهر ياسيادة الرئيس وعزاؤنا فيك اننا سنظل نناضل على هدى ايمانك فى مستقبل الامة العربية وايمانك بحتمية النصر على كل اعدائها.

بن جوريون.. مشغول بجمال عبدالناصر

برغم اشتراك مصر فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.. فإن الرياح فى مصر كانت تسير على هوى إسرائيل.

حتى سنة ١٩٥٢..

فجأة .. تغيرت اتجاهات الرياح..

ففى عام ١٩٥٢، بدأ أن ماحدث فى مصر لايخرج عن كونه «انقلاب عسكرى» يقوده «جنرال تقليدى» ثم ان هذا الانقلاب فى الغالب يكون بداية فى سلسلة الانقلابات، دون بعد عربى واضح فى اتجاهاته.. وبتركيز واضح على الوطنية المصرية فى شكلها الساذج. مما سيسهل استيعاب تقدته فى اطار الطبقة الحاكمة فى مصر، هذا بفرض استمرارية القائمين بهذا الانقلاب فى الحكم.

إلا أن الأمور بدأت تتفتح فى مصر.

وكانت إسـرائيل، وعلى رأسها بن جوريون رئيس وزرائها فى هذا الوقت أكثر الاطراف متابعة لما يجرى، وكان دافيد بن جوريون يتولى بنفسه متابعة التطورات فى مصر.

وبدأت تتضح معالم الثورة..

وبدأ يبرز جمال عبدالناصر كعقل للثورة والمحرك الأول لها وقائدها الحقيقى..

واستشعر بن جوريون القلق ـ وحاول ان يعرف كل مايكون عن جمال عبدالناصر.. ويسمع كل ما يستطيع سماعه عنه.

إلى أن تقدم له اثنان فى إسرائيل كلاهما قابل جمال عبدالناصر.

اولهما ضابط مخابرات إسرائيلى اسمه «يوريهان كوهين». وثانيهما ضابط اسرائيلى اسمه «بيجال آلون» أصبح نائبا لرئيس وزراء اسرائيل ووزيرا لخارجيتها.

حضر اولهما اجتماعات متعددة لترتيبات وقف اطلاق النار وسحب جثث القتلى من الطرفين. فقد كان ضابط اتصال فى لجان الهدنة، وكان جمال عبدالناصر أركان حرب الكتيبة السادسة المشاه المتمركزة على الخط ما بين عراق المنشية والفالوجا فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.

وقد التقى «يوريهان كوهين» بجمال عبدالناصر فى نطاق لجان الهدنة.

فى أثناء استراحة للجنة الاتصال، سأل جمال عبدالناصر، يوريهان كوهيز ضابط الاتصال الاسرائيلى وضابط المخابرات الاسرائيلية ايضا عن الاساليب التى استعملتها الجماعات الاسرائيلية المقاتلة ضد الانجليز فى فلسطين ما بين نهاية ١٩٤٦ ومنتصف سنة ١٩٤٨.

وكان هذا مالفت نظر الضابط الاسرائيلى اليه..

ثم التقى به جمال عبدالناصر بعد ذلك فى سنة ١٩٥٠ عندما كلف من قيادة الجيش المصرى بدخول الارض المحتلة فى صحبة احد ضباط الهدنة.. واحد ضباط الاتصال الاسرائيلى ليرشد عن موقع مقبرة كانت قوات جمال عبدالناصر فى الحرب قد دفنت فيها أكثر من ٤٥٠ جثة من جثث القتلى الاسرائيليين.. كان ضابط الاتصال الإسرائيلى

هو «يوريهان كوهين» الذى قضى مع جمال عبدالناصر ٢٤ ساعة فى أرض النقب المحتلة أرشد فيها إلى موقع المقبرة. وشهد بداية الحفر فيها حتى بدأ ظهور الجثث.

وكان بيجال آلون الضابط الإسرائيلى الثانى الذى التقى به جمال عبدالناصر قائدا للمعركة أمامه. واحس بيجال آلون انه امام خصم مقتدر عنيد إلى أن التقى بجمال عبدالناصر فى اجتماع رتبته لجان الهدنة فى مستعمرة جات.

واستمع بن جوريون اليهما.. لأنه كان يريد أن يسمع كل ما يستطيع أن يضيف له معلومة عن جمال عبدالناصر.

إلى أن عرف أن جمال عبدالناصر قد قال إنه لايشغل نفسه بإسرائيل، وانما يركز على التنمية فى مصر وانه لذلك نقص ميزانية القوات المسلحة بخمسة ملايين جنيه من السنة الماضية لاعتقاده ان إسرائيل ليست خطرا على مصر إلا أن مصر ضعيفة اقتصاديا واجتماعيا.

ماذا كان رد فعل بن جوريون على تصريح جمال عبدالناصر؟

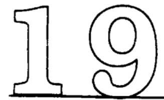
قال وهو يهز رأسه ويهرش شعرها الأبيض المنقوش:

- هذه أنباء سيئة.. سيئة جدا.

فقد كان بن جوريون والقيادة السياسية والعسكرية فى إسرائيل مشغولين بجمال عبدالناصر أكثر من أى شىء آخر.

لن نتخلى عن حقوق نصيب فلسطين.. هذا اساس القضية لايمكن ان نقبل السلام بمعنى الاستسلام، ولا يمكن رغم النكسة ، ورغم احتلال سيناء أن نتخلى عن حقوق شعب فلسطين.. لايمكن أن نيأس ولايمكن أن نكفر بأهدافنا، ولايمكن ان نفقد ثقتنا بأنفسنا أو بامتنا العربية، أو بشعبنا العربى.

■ ■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

ياولـــدى..
هــذا عمك جــمال

ماذا قال أنور السادات فى جمال عبدالناصر؟

كيف وضع جمال عبدالناصر شعار المثل العليا موضع التنفيذ قبل ان تبدأ الثورة..؟

ما الذى دفع أعضاء الهيئة التأسيسية للثورة للتمسك بجمال عبدالناصر بعد استقالته؟

ما هو الدور الحقيقى لجمال عبدالناصر فى تكوين حركة الضباط الاحرار؟

فى أى شىء كانوا يريدون مساومة جمال عبدالناصر؟

لماذا رفضنا العرض الأمريكى المحاط بالتشريق والدعاية المغرية

فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٦، ومصر كلها مشدودة إلى العدوان الثلاثى على أرضها، كان ثمة مبنى صغير ليل نهار، يشغى بحركة دائبة، ومنه كانت تدار المعركة ضد العدوان..

إنه مبنى مجلس قيادة الثورة.. حيث كان جمال عبالناصر يدير ملحمته الخالدة التى اشتهرت باسم «حرب السويس».

فى ليلة من هذا الشهر دق جرس التليفون فى غرفة نوم جمال عبدالناصر. وكان المطلوب هو: أنور السادات.. حيث قيل له إن «ولدك» ينتظر قدومه بين لحظة وأخرى.

هكذا تلقى أنور السادات، فى غرفة نوم جمال عبدالناصر خبر ولادة ابنه «جمال».

وفى الساعة الخامسة صباحا جاء إليه من يوقظه ليخبره أنه قد أنجب طفلا..

كانت المعركة حامية.. ومصر كلها مشغولة بمعركتها الكبرى، ومضى شهران...

وفى يناير سنة ١٩٥٧ أمسك أنور السادات بقلمه ليكتب رسالة طويلة إلى وليده جمال، يشرح له فيها تاريخ النضال المصرى، ويتكلم عن جمال عبدالناصر القائد والبطل والمعلم.

ولقد ظهرت رسالة السادات إلى ولده فى كتاب طبع أكثر من مرة إلى حد أنه نفد من الأسواق، وقرر على طلبة المدارس الثانوية فى مصر عقب وفاة جمال عبدالناصر ولمدة عام دراسى.

كيف رأى أنور السادات جمال عبدالناصر فى كتاب «يا ولدى. هذا عمك جمال».

فى الفصل الثالث الكتاب يتحدث أنور السادات عن أسرار ثورة ٢٣ يوليو وعن الهيئة

التأسيسية للضباط الأحرار وعن قيادتها، ويكشف عن سر اجتماع بينه وبين جمال تحدثا فيه عن قيادة الثورة ومسئولياتها ويقول إن المعركة لم تزل مستمرة.. إنها: «ولم تنته بعد يا ابنى حتى هذه اللحظة التى أكتب لك فيها هذه السطور، ولكن عمك «جمال» لايزال كما هو يحسب حساب كل شىء ويستلهم وحيه من روح شعب مصر.

ويقول فى الفصل الثالث أيضا تحت عنوان «شخصية عمك جمال»: «فقد ذكرت فى الفصول السابقة أن الهيئة التأسيسية وافقت قيام الثورة على تعيين قائد مسن للثورة من خارج الهيئة إلا واحدا عارض فى هذه الخطوة هو «أبوك» الذى يكتب لك هو السطور، وقلت أيضا إنه كان هناك ثلاثة مرشحون اختير منهم محمد نجيب، وبعد أن صدر هذا القرار أذكر أننى اجتمعت على انفراد بعمك جمال فى شقته بكوبرى القمة وأخذت أتناقش معه وأبدى له تخوفى الشديد من تسلم رجل غريب لقيادة الثورة التى لم تبدأ بعد وكان محور خوفى أن الرجل بحكم سنة وعقليته وجيله الذى نشأ فيه لن يستطيع أن يفهم العمل الثورى ولا يرجى من بعد هذه السن أن يعيش بعقلية غير عقليته، مما يشكل خطراً جسيما على الثورة خصوصا عند البدء.

ويستطرد السادات قائلا:

وأذكر أنه بأن على عمك جمال أنه اقتنع وأخذ ينفث دخان سيجارته على عادته حين يكون مستغرقا فى التفكير ثم لم يلبث أن قطع الصمت قائلا:

«يجب أن تحسب حساب النفس البشرية....».

يقول السادات:

ولم أفهم أول الأمر ـ ولكن عمك جمال لم يلبث أن استطرد اقائلا: «نحن جميعا فى الهيئة التأسيسية زملاء وفى سن واحدة، ورتبنا تكاد تكون واحدة، والذى جمعنا فى هذا العمل هو الصداقة أولا ثم الأخوة والمحبة اللتان ولدتا الثقة بدليل إننا نتآمر ليل نهار ولا يحس بنا أحد، وأخشى ما أخشاه إننا إذا جعلنا قيادة الثورة فينا أن يفتح هذا الأمر ثغرة فى نفس واحد منا ونحن بشر والنفس البشرية مليئة بالانفعالات، وأنا لا أيد أن يكون مستقبل الوطن معلقا على الانفعالات، بل لا أريد أن أفرض احتمالا واحدا فى الألف فيه

شك من انفعال فى نفس أى واحد فينا، لا المسئولية مستقبل شعب، بالثقة والمحبة تستطيع أن نحقق المستحيل.

وهكذا وضع عمك جمال شعار المثل العليا موضع التنفيذ قبل أن تبدأ الثورة يا ابنى.

وفى الفصل الرابع يتحدث السادات عنه الأسرار التى سبقت قيام الثورة مباشرة، وكيف تحدد موعدها وكيف قامت، وكيف استقال جمال عبالناصر من رئاسة الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار رغم أنه كان قد انتخب فى شهر فبراير من نفس العام.

ولكن عمك جمال أصر يا بنى على أن يستقيل!! فأجرى الانتخابات على الفور...

وفى لحظات معدودة، جمع عمك كمال الدين حسين أوراق الانتخاب... وأخذ يفضها... وكانت كلها جمال عبدالناصر...

لقد كنا جميعا فى هذه اللحظات يا بنى... لا نحس إلا بما تعودنا أن نحس به تجاه عمك جمال من صداقة عميقة، واحترام متبادل ولو أن أحدا قرأ أفكارنا فى تلك اللحظات لوجدها كلها بخاطر واحد... هو الثقة فى هذا الصديق الذى حرص فى ساعة النصر على أن ينتصر للمبادىء والقيم فيستقيل.. حتى لا يظن أحد أنه اغتر.. مع أنه كان القوة الدافعة للنصر الذى تم.

وفى الفصل الخامس يتكلم عن كيف انتصرت الثورة وكيف انتصر جمال...

وعمك جمال يا بنى هادىء دائما... ويعرف ما يريد... فبعد أن انتخب بالإجماع رئيسا لليهئة التأسييسة طرح للمناقشة موضوعا وصفه بأنه حيوى وخطير.

فقد طلب من الهيئة التأسيسية أن تقرر الفلسفة التى سيقوم عليها الحكم فى البلاد.. وبعد أصبح ذلك مسئولية مباشرة للهيئة التأسيسية.

ويعلن السادات كيف قامت مناقشات حادة حول الأساليب الديمقراطية والديكتاتورية وكيف رفض جمال عبدالناصر أن يكون «ديكتاتورا» أو حتى فردا فى نظام «ديكتاتورى» ثم كيف تفاقم الموقف وتنحى عبدالناصر عن رئاسة الهيئة وخرج عائدا إلى منزله.. وسط مفاجأة أذهلت الجميع.

يقول السادات:

انسحاب عمك على تلك الصورة يا بنى كان منطويا على كارثة مدمرة لجملة اعتبارات:

لماذا نريده.....؟

أما الاعتبار الأول يا بنى فهو أن عملك جمال هو عقل الثورة ومدبرها ورائدها.

ويكشف أنور السادات إذ يقول إن جمال عبدالناصر وحده هو الذى كان يعرف كل أسما الذين اشتركوا فى الثورة.. وكل الذين كانوا سيشتركون لكنهم انهاروا فى اللحظة الأخيرة.

بمعنى أنه إلى هذه اللحظة مثلا بعد مضى عدة سنوات على قيام الثورة فإن أحدا منا نحن الذين كنا فى مجلس قيادة الثورة لا يعلم بالضبط عدد الضباط الأحرار، ومن هم الذين خرجوا يوم ٢٣ يوليو يسنة ١٩٥٢، ومن هم الذين لم يخرجوا؟ إلا فردا واحدا هو عمك جمال.

ومازلنا بين الحين والآخر نسمع أسماء ضباط ولا نعرفهم فيقول عمك جمال أن فلانا هذا خرج يوم ٢٣ يوليو وكان يقود الوحدة الفلانية وفلان هذا تأخر ساعتين عن موعد وصوله إلى المنطقة الفلانية.

ولكن عمك جمال والشىء بالشىء يذكر - يرفض إلى يومنا هذا وسيظل يرفض أن يصرح بأسماء الضباط ممن خانتهم أصعابهم فى اللحظة الأخيرة، فلم يشتركوا فى الثورة ساعة قيامها إيمانا منه بالمبادىء التى اختارها لنفسه، نفس المبادىء التى جعلت من ثورزة ٢٣ يوليو عملا جديدا، ونهجا مستقيما يقوم على الخلق ويتمسك بالمبادىء.

أما الاعتبار الثانى يا بنى فهو أن انسحاب عمك جمال أوجد فراغا خطيرا لا يستطيع أحد منا أن يملأه ولا نستطيع نحن الثمانية الباقين جميعا أن نملأه.. فالمسألة لم تكن مسألة انسحاب عضو من الهيئة التأسيسية، وهنا يجمل بى أن أحكى لك يا بنى عن تاريخ هذه الهيئة...

فكما قلت لك سابقا يا بنى تولى عمك جمال أمر هذه الثورة سنة ١٩٤٣ وكان معه فى ذلك الوقت أعمامك بغدادى وخالد وحسن إبراهيم وكنت أنا قد قبض على فى السنة السابقة، أى سنة ١٩٤٢ ......، وإلى ذلك التاريخ الذى تولى فيه عمك جمال مسئولية التنظيم إلى سنة ١٩٤٣ لم يكن هناك جهاز لهذا التنظيم وإنما كانت هناك جماعات من الضباط تجمعهم الصداقة تارة والزمالة تارة أخرى ويربط الجميع شعور واحد هو كراهيته السيطرة البريطانية التى اتخذت اشكالا متعددة سواء فى الجيش أو فى جميع فروع الحياة فى مصر مما أوقع البلاد بين أنياب استعمار سياسى واقتصادى واجتماعى كاد يقضى على كيان هذا الشعب.

ولكن عمك جمال ما إن تسلم المسئولية حتى بدأ يكون الجهاز ـ أو القاعدة ـ التى لابد من إيجادها لكى تنطلق منها الثورة وتظل بعد ذلك حصنا يدفع عن الثورة الدس والمؤامرات، وكان عمك جمال يصر على تكوين هذا الجهاز إصراراً شديدا مهما كان الوقت الذى يتطلبه هذا التكوين وكان يقول إننا إذا أفلحنا فى إيجاد جهاز قوى وانفقنا فى ذلك عمرنا كله فإننا نكون قد أدينا واجبنا كاملا نحن الأجيال المقبلة إذ سيكون من السهل عليهم أن يطلقوا الشرارة فقط فيبدأ الطوفان.

ويتحدث كيف نشط جمال عبدالناصر فى تكوين خلايا الضباط الأحرار قائلا:

سنة ١٩٤٩ بعد عودته من الحصار فى الفالوجا، إلى أن كانت سنة ١٩٥٠ حيث فرغ من بناء القاعدة الأساسية لتنظيم الضباط الأحرار فى شعب ولجان وأصبح الأمر يتطلب إيجاد هيئة عليا لتنظيم وكيان، هذا هو بدء مولد الهيئة التأسيسية.

ويقول:

إن الذى جمع أعضاء الهيئة التأسيسية فرد واحد هو عمك جمال يا بنى!.. اجتمع بهم فرادى أول الأمر ثم جمعهم فى هيئة بعد ذلك، لذلك لم أكن أبالغ حين قلت لك يا بنى أن انسحاب عمك جمال على تلك الصورة أوجد فراغا خطيرا لا يمكن ملؤه. كل هذا بخلاف ما لعمك جمال من شخصية متزنة نحترمها جميعا وتعودنا أن نعتمد عليها فيما كان يقابلنا من مواقف وأزمات قبل قيام الثورة، وتعودنا أن نجد فى أسلوبه دائما راحة وثقة وعمقا.

ويعود السادات إلى قضية انسحاب عبدالناصر:

أعود إلى حديث السبعة الذين يجلسون حول منضدة الاجتماع فى مبنى القيادة فى كوبرى القبة. فأقول لك يا بنى إننا أمسكنا عن الحديث بعد انسحاب عمك جمال واستعضنا عن ذلك بالنظر إلى بعض، ولا أذكر اليوم كم من الزمن مضى علينا ونحن على هذا الحال، وإنما ما أذكره هو أننا انتهينا إلى قرار حاسم من خلال ذلك الصمت، هو أن يعود جمال رئيسا للهيئة التأسيسية ولتكن فلسفة الحكم هى الديمقراطية كما يريدها جمال وليست الديكتاتورية كما نريدها نحن جميعا؟.

ويضيف قائلا عن مغزى عودة جمال:

وكانت هذه المعركة هى أول معركة انتصر فيها عمك جمال يا بنى، وهو لم ينتصر بالمعنى المادى الذى يتبادر إلى الأذهان، أى باملاء ارداته علينا، وإنما انتصرنا ضد نفوسنا، وانتصر لمصر فجنبها الدماء والأحقاد والويلات التى تلازم دائما الديكتاتورية وحكم الأفراد.

وفى الفصول من السادس إلى الحادى عشر يتكلم عن المراحل الثمانية التى مرت بها الثورة، ففى الفصل السادس بعنوان «وعود على الطريقة الأمريكية» يقول:

وحين طلبنا من المستر كافرى - السفير الأمريكى - الاتصال بحكومته بشأن تسليح الجيش المصرى من حر مالنا جاء رد الحكومة الأمريكية فى صورة نسخة مما يسمى «ميثاق الأمن المتبادل» وهو عبارة عن اتفاقية قالوا لنا إنه بمجرد أن نوقعها فإننا لن نكون بحاجة إلى أن ندفع مليما واحدا بل ستتدفق الأسلحة على الجيش المصرى مجانا، هذا بخلاف المعونات الأخرى، وقد كان العرض على الطريقة الأمريكية محاطا بالتشويق والدعاية المغرية.. فتارة يقولون إن أكثر من أربعين دولة تنعم بخيرات هذا الاتفاق اليوم وتسبح فى بحبوحة الرفاهية. وتارة يقولون ولماذا تخصصون من ميزانيتكم أية مبالغ تنفقونها على التسليح فى الوقت الذى يمكنكم فيه أن تحصلوا على السلاح بالمجان. بل على أحدث الأسلحة أيضا.. وهكذا.. فقط.. وافقوا بعدها يكون الطوفان.

وقرأنا الاتفاقية. أى اتفاقية الأمن المتبادل هذه، ظاهرها برىء براءة عجيبة، أما باطنها فقد أخذ يتكشف لنا سطراً بعد سطر.

أن بعض ما فى هذه الاتفاقية هو أن الجيش المصرى سيكون خاضعا لاشراف بعثة عسكرية أمريكية تتولى التدريب وتتولى التنسيق وبذل النصيحة والمساعدة فى وضع الخطط أى كما يقول المثل البلدى «كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا».

ورفضت الثورة العرض رفضا باتا.

وفى الفصل السابع يقول بعنوان «قالوا عمك جمال ديكتاتور».

إنهم يقولون فى مسألة تأميم القناة.. إن عمك جمال صلب ويثير المتاعب لأنه لا يقبل المساومة... ثم يكملون القصة بأن عمك جمال ديكتاتور لأنه يريد أن يملى ارادته.

وحتى إذا سلمنا أن المساومة لا تتعارض مع الشرف، ففى أى شىء كان سيساوم عمك جمال... فى القناة؟.

إن القناة ملك لمصر وجزء لا يتجزأ منها. باعتراف كل المعاهدات الدولية، واعتراف بريطانيا وامضائها فى أكثر من معاهدة.

ومصر أممت شركة القناة.. وهى شركة مصرية تخضع للقانون المصرى.

ومصر التزمت ـ بعد التأميم. بأن تباشر جميع المسئوليات التى كانت تقوم بها الشركة المؤممة، وأعلنت على لسان عمك جمال رسميا تمسكها بمعاهدة ١٨٨٨ الخاصة بحرية الملاحة.

فماذا بقى ليساوم عليه عمك جمال يا بنى.. ما يريدون؟.

وينهى أنور السادات كتابه «يا ولدى هذا عمك جمال» بالفصل الحادى عشر بعنوان «الحبيب الغائب بمناسبة عودة جمال عبدالناصر من رحلة كان قد قام بها إلى الاتحاد السوفيتى، يقول السادات فى بداية الفصل:

وجمال يا رب من صنعك الرائع، وابداعك القاهر، إنه عبدك المؤمن بك، المتوكل عليك، المسير بالهامك، الباعث فى شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام.

ولقد نصرتنا به يا رب فى مواطن كثيرة.

ثم يقول فى نهاية كتابه:

جمال.. أيها الحبيب العائد.. أهلا بك رائدا ورمزا وزعيما...

أهلا بك فى أهلك يا أخا العرب.. موئل أملهم.

أهلا بك فى أهلك يا رسول الخير والحق والسلام.

أهلا بك فى أهلك يا صديق الأحرار ومناط رجائهم.

وجمال يا رب من صنعك الرائع وإبداعك القاهر، إنه عبدك المؤمن بك، المتوكل عليك، المسير بالهامك الباعث فى شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام.

■ ■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

حكايـــات
مع الأدباء والفنانين

ماذا كتب العقاد ردا على إهدائه «فلسفة الثورة».
نزار قبانى يكتب لجمال عبدالناصر قائلا:
«لا أصدق أن هذا يحدث فى عصرك».
لماذا أعطى جمال عبدالناصر ألفين من الجنيهات ليوسف إدريس ووسام الفنون والآداب؟!!

كان لعبدالناصر كثير من المواقف مع الأدباء والمفكرين.

مواقف كان هدفها التكريم إلى أبعد حدود التكريم.. التقدير إلى ابعد حدود التقدير.. والتعبير عن رعايته لهم والاعتراف الكامل بقيمتهم وحاجة الثورة إليهم فى صياغة المجتمع الجديد.

فعندما أصدر جمال عبدالناصر كتاب «فلسفة الثورة» اهداه إلى الكاتب الكبير عباس محمود العقاد بكلمة رقيقة يقول فيها.

إلى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد مع تقديرى.

كان الإهداء بتاريخ ٦ يونيو عام ١٩٥٤.

وتلقى عباس العقاد هدية جمال عبدالناصر وكتب مقالا عن فلسفة الثورة يقول فيه:

فقد قرأت الصفحات الثمانين التى كتبها جمال عبالناصر فى كتاب «فلسفة الثورة» فخرجت منها وأنا أعتقد أن الخلاف عليها أقل خلاف فى مثل هذه الصفحات وفى مثل هذا الموضوع.

صواب ولا شك أن الحركة المصرية لا توصف بأنها تمرد عسكرى، وصواب ولا شك أن الحاضر يعيش ببقية من مساوىء العصور الماضية، وهذا هو باب الأسف والأسى. ولكنه كذلك باب الأمل والعزاء، لأنه يدفع اليأس من النفوس إذا عولج، فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح، إذا لم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون.

وصواب كذلك أن الشك آفة معطلة للجهود يشفع لأصحاب الشكوك ويعفيهم من

عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد أجيال وأجيال، ولكن العلاج المأمون وحده هو الشفيع البليغ قبل شفيع الإنصاف.

يقول السيد الرئيس جمال عبدالناصر: كان من السهل وقتها ومازال سهلا حتى الآن أن يريق دماء عشرة أو عشرين، أو ثلاثين فتضع الرعب والخوف فى كثير من النفوس المترددة، ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواءها.

ثم يقول ولكن كأية نتيجة كان يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا العمل؟.. كان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار.

نعم يكون ذلك ظلما ويكون أكثر من ظلم، لأنه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر، ويبطل فائدة العلاج، وييعس من عقباه.

على أن الصفحات الثمانين التى تحمل اسم «فلسفة الثورة» لا تتحصر بالقارىء فى حدود الأفق المصرى. وإن كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية فى أوسع حدودها، فالمصرى فى عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا إن لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم، لا انفصال لها عن وطنه، وهى العالم العربى، والعالم الأفريقى، والعالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه.

- أين نحن من العالم العربى؟
- أين نحن من العالم الأفريقى؟
- أين نحن من العالم الإسلامى؟

نحن فى قلب كل عالم من هذه العوالم. فليس فى وسعنا أن نجهل علاقتنا بها ويستقبلنا معها.

يقول الرئيس جمال: إن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية. فنحن أقوياء أقوياء..

ويقول: إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع

الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقين. إننا فى أفريقيا، والنيل شريان الحياة لوطننا نستمد ماءه من قلب القارة.

ويقول الرئيس عن العالم الإسلامى: حين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليونا من المسلمين فى أندونيسيا، وخمسين مليونا فى الصين وبضعة ملايين فى الملايو، وسيام وبورما. وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان وأكثر من مليون فى منطقة الشرق الأوسط، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة..

حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة، أخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع، ولكنه يكفل فهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة.

وهذا كله صحيح فى الجملة والتفصيل، وليس الاهتمام به من طموح الشباب، كما يتخيل المتخيل الوادع فى عقر داره، بل أخشى أن أقول إنه من أعباء الشيخوخة قبل أوانها.. بل من همومها فى ابنها، إن كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ!

ماذا نصنع إن جنى البترول على العالم العربى؟

بدلاً من تزويده بأسباب القوة والمناعة.

وماذا نصنع إن أصبحت أفريقيا للمستعمرين الأوروبيين ولم تصبح فى الغد القريب أفريقيا للأفريقيين.

وماذا نصنع ان تهدم معنى الحياة كما تمثله المادية الحيوانية أو كما تمثله الحضارة الحسية، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين، وترتفع بها من غبار الذل والاستكانة، أو غبار القنوط والحيرة؟

فروض جسام، ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام!!

●●●

كتب نزار قبانى بعد نكسة يونيو ١٩٦٣ قصيدته المشهورة «هوامش على دفتر النكسة» وانتشرت القصيدة بين الناس انتشارا كبيرا وذلك لما كانت تتضمنه من صدق وانفعال حاد فى تلك اللحظة المريرة من التاريخ العربى.

ولكن بعض الأقلام فى مصر هاجمت نزار على قصيدته أشد الهجوم، وطالبت بمنع نزار من دخول مصر، وطالبت بمنع إذاعة أغانيه، وقد أدت هذه الحملة إلى منع القصيدة من الدخول إلى مصر.

وكان نزار ينتفض من الألم إزاء هذه الحملة الظالمة، إلى أن أشار عليه البعض بإرسال القصيدة إلى جمال عبدالناصر مرفقة برسالة إليه بما يريد.

وكتب نزار رسالة إلى جمال عبدالناصر تعتبر نصا أدبيا بديعا وهى فى نفس الوقت وثيقة تاريخية تثبت ما كان جمال عبدالناصر يهتم به كقارىء وزعيم وإنسان من نظرة رحبة واعية عميقة إلى دور الأدباء والفنانين والمفكرين فى بناء المجتمع العربى، وحرصه الكبير على أن ينطلق الفنان فى التعبير عن مشاعره الصادقة بلا خوف ولا التواء.

وأرسل نزار قبانى القصيدة إلى جمال عبدالناصر وأرفق معها رسالة قائلا له فيها:

«سياة الرئيس جمال عبدالناصر»

فى هذه الأيام التى أصبحت فيها أعصابنا رمادا وطوقتنا الأحزان من كل مكان، يكتب إليك شاعر عربى يتعرض اليوم لنوع من الظلم لا مثيل له فى تاريخ الظلم.

وتفصيل القصة إننى نشرت فى أعقاب نكسة الخامس من يونيو قصيدة عنوانها «هوامش على دفتر النكسة» أودعتها خلاصة ألمى وتمزقى، وكشفت فيها عن مناطق الوجع فى جسد أمتى العربية لاقتناعى بأن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتوارى والهروب وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا.

وإذا كانت صرختى حادة وجارحة، وأنا أعترف سلفا بأنها كذلك، فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة ولأن النزف يكون بمساحة الجرح.

من منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد «يونيو»؟

من منا لم يخدش السماء بأظافره؟

من منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض؟

إن قصيدتى كانت محاولة لإعادة تقييم أنفسنا كما نحن، بعيدا عن التهجع والمغالاة والانفعال، وبالتالى كانت محاولة لبناء فكر عربى يختلف بملامحه وتكوينه عن فكر ما قبل «يونيو».

إننى لم أقل أكثر مما قاله غيرى، ولم أغضب أكثر مما غضب غيرى، وكل ما فعلته إننى صغت بأسلوب شعرى ما صاغه غيرى بأسلوب سياسى أو صحفى.

وإذا سمحت لى يا سيادة الرئيس أن أكون أكثر وضوحا وصراحة قلت إننى لم أتجاوز فى قصيدتى نطاق أفكارك فى النقد الذاتى يوم وقفت بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة، وتعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

إننى لم أخترع شيئا من عندى، فأخطاء العرب النفسية والسياسية والسلوكية مكشوفة كالكتاب المفتوح.

وماذا تكون قيمة الأديب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ووجهها الأسود معا؟...

ومن يكون الشاعر يوم يتحول إلى مهرج يمسح أذيال المجتمع وينافق له؟

لذلك أوجعنى يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتى من دخول مصر وأن يفرض حصار على اسمى وشعرى فى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها، والقضية ليست قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر ولكن القضية أعمق وأبعد.

القضية هى أن نحدد موقفنا من الفكر العربى. كيف نريده؟ حراً أم نصف حر؟ شجاعا أم جبانا؟ نبيا أم مهرجا؟.

والقضية أخيراً هى أن نعرف ما إذا كان تاريخ «يونيو» سيكون تاريخا نولد فيه من جديد بجلود جديدة، وأفكار جديدة، ومنطق جديد.

قصيدتى أمامك سيادة الرئيس أرجو أن تقرأها بكل ما عرفناه عنك من سمعة أفق وبعد رؤية ولسوف تقتنع، برغم ملوحة الكلمات ومرارتها، بأننى كنت أنقل من الواقع

بأمانة وصدق، وأرسم صورة طبق الأصل لوجوهنا الشاحبة والمرهقة.

لم يكن بامكانى، وبلادى تحترق، الوقوف على الحياد، فحياد الأديب موت له.

لم يكن بوسعى أن أقف أمام جسد أمتى المريضة أعالجه بالأوعية والحجابات والضراعات، فالذى يحب أمة يطهر جروحها بالكحول، ويكوى - إذا لزم الأمر - المناطق المصابة بالنار.

سيادة الرئيس: إننى أشكو لك.. ولا أطلب أكثر من سماع صوتى، فمن أبسط قواعد العدالة أن يسمح لكاتب أن يفسر ما كتبه، وللمصلوب أن يسأله عن فعله.

لا أطلب يا سيادة الرئيس إلا بحرية الحوار. فأنا أشتم فى مصر ولا أحد يعرف لما أشتم، وأنا أطعن بوطنيتى وكرامتى لأننى كتبت قصيدة، ولا أجد من قرأ حرفا من هذه القصيدة.

لقد دخلت قصيدتى كل مدينة عربية وأثارت جدلا كبيرا بين المثقفين العرب إيجابا وسلبا، فلماذا أحرم من هذا الحق فى مصر وحدها؟ ومتى كانت مصر تغلق أبوابها، فى وجه الكلمة وتضيق بها.

يا سيدى الرئيس:

لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر أراد أن يكون شريفا وشجاعا فى مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيدى الرئيس

لا أصدق أن يحدث هذا فى عصرك.

«نزار قبانى»

وقرأ جمال عبدالناصر القصيدة والرسالة، وكتب بخط يده على رسالة نزار قبانى بالسماح للقصيدة بدخول مصر، وإيقاف أى إجراء ضد الشاعر أو شعره.

وكان نزار قبانى على حق.

على حق فى أن لا يصدق أن يحدث هذا فى عصر عبدالناصر ولا نصدق نحن أيضا..

●●●

ولجمال عبالناصر موقف آخر مع يوسف أدريس.. كانت منظمة حرية الثقافة العالمية، تصدر مجلة فى بيروت هى مجلة «حوار» وكان المعروف عن منظمة حرية الثقافة أنها منظمة خادمة للتوجيه الأمريكى وإنها تهدف إلى تشويه الثقافات الوطنية فى كل المجتمعات النامية كما تهدف إلى محاربة أى جنور للفكر التقدس الاشتراكى فى أى مجتمع من هذه المجتمعات الجديدة، وكان بين المجتمعات التى ركزت منظمة حرية الثقافة على العمل فيها المجتمع العربى، ولذلك أصدرت المنظمة مجلة «حوار» من بيروت باللغة العربية، وقد ثبت فيما بعد أن منظمة حرية الثقافة كانت تستمد تمويلها من مصدرين أساسيين، المصدر الأول هو المخابرات المركزية الأمريكية، والمصدر الثانى هم أصحاب الملايين الأمريكين من أمثال روكفلر وفور وغيرهما.. وبالطبع لم تكن المخابرات المركزية الأمريكية ولم يكن أصحاب الملايين الأمريكين يقصدون بالتأكيد إلى الانحراف بهذه الثقافة لتخدم الأهداف الاستعمارية الغربية وتبذر بذور الأفكار التى تساعد تدعيم النفوذ الغرس فى المجتمع العربى ولم تكن مجلة «حوار» رغم اتجاهها المنحرف مجلة تافهة ولا سطحية، بل كانت مجلة ممتازة زكية لامعة، وكان من بين الأفكار التى تبنتها هذه المجلة فكرة إنشاء جائزة عربية سنوية، يبلغ قدرها حوالى الفين من الجنيهات المصرية.

واختارت حوار «يوسف إدريس» كأول فائز بهذه الجائزة وكان الهدف من اختيار يوسف إدريس بالذات هو أن تستند المجلة إلى اسم أدبى له قيمته ومكانته فى أوساط المثقفين العرب وأن يكون الفائز بالجائزة من ناحية أخرى أدبيا معروفا باتجاهه الوطنى والتقدمى حتى يسهم بسمعته تلك فى تبديد الغيوم المحيطة بسمعة مجلة «حوار».

ورفض يوسف إدريس جائزة حوار، بعد أن درس موقفها وعرف الهدف من وراء هذه الجائزة وعلم جمال عبدالناصر بالقصة كاملة لمجلة حوار وجائزتها وبموقف يوسف إدريس من المجلة والجائزة فأمر بصرف قيمة الجائزة كاملة ليوسف إدريس وقيمتها كما ذكرنا الفان من الجنيهات المصرية، كما قرر جمال عبدالناصر منح يوسف إدريس مع

قيمة الجائزة وسام الآداب والفنون.

ولقى يوسف إدريس التكريم من جمال عبالناصر التأييد والمساندة لمحافظته على كرامته ورفضه لجائزة مجلة حوار المشبوهة.

فقد كان جمال عبدالناصر قائدا ثائرا يمد يده للفكر والفن والحرية والعدالة فى كل مواقفه وآرائه.. وكان قادرا على الدوام أن يكون أول من يدخل معركة النقد الذاتى علنا.. بين الجماهير وأمام العالم.

■■

21

القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

حجرة فى الطابق الأسفل!!

بالقميص.. والبنطلون.. والصندل..
ومشروب ساخن او بارد
وسيجارة يحرص على اشعالها للضيف بنفسه
كان عبدالناصر يستقبل زائريه.
« أعمل ايه فى الناس الذين يحرجونى »
ثم أمر بتجاهل الموضوع وعدم تنفيذه.
كان يقول له دائما « كيف يمكن ان يقنع غيره بتنظيم أسرته وعنده مثل هذا
الجيش العرمرم »
ما الذى جعل عبدالناصر يأمر بتحديد اقامة الوزير؟!
عندما قال عبدالناصر فى أول اجتماع يحضره لمجلس الوزراء بعد النكسة:
العجل يقع تكثر سكاكينه

فى حجرة صالون بسيطة بالطابق الاسفل من منزل عبدالناصر بمنشية البكرى، كان يستقبل زواره.

كانت تتصدر الحجرة صورة «أم تحنو على وليدها» وعلى رف المدفأة صور رؤساء بعض الدول المهداه إليه - تيتو - نكروما - بندرانيكه - نهرو - سوكارنو.

وفى بعض الاحيان كنت يستقبل زائريه فى مكتبه على يسار الداخل إلى منزله..

كان عبدالناصر يحيط زائريه بكل رعاية، استقبال جيد وجلسة تحوطها الألفة والبساطة.. ثم لابد من مشروب ساخن أو بارد.. وتقديم سيجارة يصر عبدالناصر على اشعالها بنفسه للضيف، وبعد أن تنتهى الزيارة كان يحرص بنفسه على توديع الزائر حتى الباب الخارجى ويظل واقفا حتى تتحرك عربة الزائر إلى باب الخروج.

وتنشر المقابلة أو لاتنشر فى الصحف حسب تعليمات عبدالناصر شخصيا.

ولم يكن من عادة عبدالناصر ارتداء البدلة كاملة فى مقابلاته إلا إذا كانت هناك مناسبة تقتضى ذلك.. إذ كان يفضل ارتداء القميص والبنطلون والصندل واما فى الشتاء فيمكن ان يرتدى «بلوفر من الصوف» ولم يكن فى الوقت نفسه حريصا على أن يقابله «ضيفه» فى بدلته الكاملة.

فى إحدى مقابلات أمين هويدى - وزير الحربية والمخابرات السابق - مع عبدالناصر فى منزله، كان يرتدى «البوشرت» وكانت المرة الأولى التى يراه عبدالناصر فيها بهذا الزى، وبعد أن صافحه قال له ضاحكا« أنت الآن مثل نيويرى».

ـ إذ كان الرئيس التنزانى يحرص على ارتداء البوشرت بصفة دائمة ـ وبعد أن تناول الوزير مشروبه، وقدم له عبدالناصر سيجارة وأشعلها له، وحينما قدم له السيجارة الثانية اشعلها الوزير مستخدما عود ثقاب، فلم يكن معه «ولاعة» فعلق عبدالناصر قائلا:

«بقى يا أخى وزير وليس معك ولاعة» واهداه فى الحال واحدة منها.

وكان جمال عبدالناصر يجامل وزراءه ومعاونيه فى الملمات كوفاة احد الاقرباء أو فى المرض، وكذلك كان يجامل فى المسرات واحيانا كان يحضر بنفسه لتقديم العزاء أو للاطمئنان على الصحة، أو للتهنئة فى الافراح.

ولكنه كان عزوفا بصفة قاطعة عن حضور المآدب الخاصة أو الزيارات وكانت زياراته الخاصة مقتصرة على منزل أو اثنين من منازل القريبين منه يذهب إليها بضع ساعات فى الليل للترويح عن النفس.

وكان فى الوقت نفسه يعاون فى حل مشاكلهم الخاصة إذا وصلت إلى سمعه.

وقد كان البعض يستغل عدم قدرته على رفض أى طلب خاصة إذا طلب منه فى منزله استغلالاً لحرج عبدالناصر ودماثة خلقه.. ولم يكن يظهر ضيقه إلا إذا فاض به الكيل.. ولكنه كان يبادر من نفسه لتقديم المعاونة فى الحالات المعقولة.

فقد كان يمنح وزراءه ومعاونيه فى حالة فقد احداهم لمنصبه أو وفاته معاشا استثنائيا ليحافظ على مركزه الاجتماعى من جانب ولعدم تورطه فى اعمال غير لائقة من جانب آخر. حدث أن أحد الوزراء أراد ان يستغل عبدالناصر فى أمر محرج.. فقد رغب فى أن يشترى بيتا من البيوت التابعة لاحدى الجهات الحكومية باسم زوجته، وتقدم بمذكرة لعبد الناصر أثناء إحدى مقابلاته معه فى منزله فأشر عليها «أمين هويدى للتنفيذ».

إلا أن «أمين هويدى» اعاد عرض المذكرة على عبدالناصر مؤكدا له أن هذا التصرف فيه مخالفة صريحة لمواد الدستور وللعرف المتبع واعاد المذكرة مؤشرا عليها بـ«رجاء إعادة التوجيه» إلا أن محمد أحمد سكرتير عبدالناصر الخاص اتصل فى اليوم التالى بأمين هويدى قائلا له «انت عملت ايه؟ الريس هايج ويريدك أن تتصل به فوراً على التليفون الخاص».

إلا أن أمين هويدى ذكر لمحمد أحمد انه من الأفضل الا يتصل بعبد الناصر فى حالة غضبه تلك وسيتصل به فى المساء راجيا منه أن يخبره بأنه ليس موجودا وبأنه يحاول البحث عن مكانه.

إلا أن عبدالناصر كان على علم بتفاصيل ماتم بينه وبين محمد أحمد.

فحينما اتصل بعبد الناصر فى المساء سأله عن مكان وجوده طوال النهار فاعترف له أمين هويدى بأنه كان فى مكتبه ولم يتصل به لانه علم بغضبه ففضل الاتصال به بعد أن يزول هذا الغضب.

ويبدو أن هذا لم يكن كافيا للتخفيف من ثورة عبدالناصر فقد انفجر فيه قائلا: «يعنى يا أمين أنا أصبحت غير قادر على تنفيذ تأشيراتى.. نفذ التأشيرة فورا».

وأنهى عبدالناصر المحادثة وهو فى ثورة غضبه.

وفى صباح اليوم اتصل به عبدالناصر وكان هادىء المزاج واخبره وسط الحديث بأنه «يمكن تجاهل الموضوع وعدم تنفيذه.. واعمل ايه فى الناس الذين يحرجونى».

وفعلا تم الغاء الموضوع.

وحدث ان «الدكتور حسن مصطفى «وزير الاسكان الأسبق، كان يعانى من عدم وجود مسكن خاص له، اذ انه قبل توليه المنصب الوزارى كان يعمل فى الخارج واجر مسكنه الخاص لاحد الاساتذة فى الجامعة.. فلم عاد حسن مصطفى و «استوزر» حاول أن يقنع المستأجر باخلاء المنزل دون جدوى فسكن فى «بدورم» المنزل ـ أى فى الطابق تحت الأرضى ـ وهذا وضع لايليق بوزير، ولم يتمكن وهو وزير الاسكان من طرد المستأجر واستغل المستأجر هذا الموقف وأخذ يرسل الشكاوى العديدة إلى مختلف الجهات ليقطع خط الرجعة على الوزير أن أراد إن يقدم على أى اجراء.

ووصلت إحدى الشكاوى إلى عبدالناصر، إلا أنها وصلت بصورة مشوهة، وأمر عبدالناصر بالتحقيق، إلا أن هذا الوزير كان وزيرا نزيها عالما فاضلا طيبا.. وفى جلسة خاصة اتضح الموقف لعبد الناصر ووضحت الصورة الحقيقية له. فأمر عبدالناصر بأن يخصص له إحدى الشقق من «الحراسة» علما بأنه كان قد اصدر تعليماته ببيع مثل هذه المنازل فى «المزاد العام».

وحدث نفس الشيء مع حافظ بدوى وزير الشئون الاجتماعية فى ذلك الوقت وعضو مجلس الشعب الآن.. فقد كان يقطن فى شارع الجيش فى شقة رأى أنها لاتتناسب مع وضعه الاجتماعى الجديد، وكان حافظ بدوى يتردد كثيرا فى الاتصال بعبد الناصر بخصوص هذا الشأن.. إلا أن عبدالناصر عندما علم بذلك أمر بتخصيص منزل له رغما عن الظروف السابق شرحها ورغما عن انه كان يقدم على هذه الحلول كارها محرجا.

وبهذه المناسبة كان حافظ بدوى عضوا فى لجنة تنظيم الاسرة وكان لديه «دستة» من الأولاد وكان ذلك محل تندر دائم، اذ كان يقول له دائما كيف يمكن ان يقنع غيره بتنظيم أسرته وعنده مثل هذا «الجيش العرمرم»!!؟

وحدث أن وصلت مذكرة كتابية من احد رؤساء تحرير المؤسسات الصحفية الكبرى إلى جمال عبدالناصر وكان دائماً الحرص على امداده بالمعلومات أو الأخبار عن انحراف قام به أحد أعضاء جهاز الرقابة الإدارية، واتصل عبدالناصر برئيس المخابرات العامة وامره بالتحفظ على الموظف والتحقيق معه.

وكان عبدالناصر ثائرا.. فقد كان الاتهام ثقيلا.. وكانت الجهة التى ينتمى إليها الموظف جهة حساسة.. ثم انه كان يثق برئيس التحرير المذكور ثقة كبيرة.

وبدأ رئيس المخابرات العامة تحقيقه مع المتهم المذكور.. ووضحت للوهلة الأولى براءته الكاملة مما اسند إليه إذ كانت جميع المستندات التى تحت يده تثبت براءته بصفة قاطعة.. واتصل رئيس المخابرات العامة بعبد الناصر على الفور ليبلغه ما توصل إليه وليطلب منه الغاء قرار التحفظ.

وقبل ان ينتهى رئيس المخابرات العامة من عرض القضية تماما غضب عبدالناصر.. «فالموضوع يحتاج إلى مزيد من التمحيص ثم يا أخى أنا أمرت بالتحفظ ولازم ينفذ هذا الكلام ثم لازم تبطل دماغك الناشفة دى».

وانهى عبدالناصر المكالمة..

ومر بعض الوقت.

إلا أن عبدالناصر عاد واتصل برئيس المخابرات العامة.. وكان هادئا.. واخذ يطلب منه بعض التفاصيل وعلى الفور أمر بالغاء التحفظ على المذكور مع استمرار التحقيق لمعرفة المتهم الحقيقى..

وانتهى التحقيق إلى اتهام اثنين ببعض المخالفات الجسيمة وكانا شقيقين لعضوين من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا إلى جانب آخرين.. وعرض عبدالناصر الموضوع فى احد اجتماعات اللجنة التنفيذية ووقع على الشقيقين الجزاء المناسب.

حدث.. بعد أحد التعديلات الوزارية التى اجراها عبدالناصر ان التحق وزيران ممن شملهم التعديل بشركات اجنبية كانت لها اعمال تتعلق بوزارتيهما وكان التعديل بعد فترة قصيرة من اجراء التعديل الوزارى.. وغضب عبدالناصر واثار الموضوع فى أحاديثه:

«لانه من الواجب ابعاد أى شبهة عن المنصب الوزارى خاصة فى تعامله من الجهات والشركات الاجنبية حيث ان مثل هذه التعيينات قد تثير تساؤلات وشكوكا عن طبيعة العلاقة بين الوزير والشركات التى كانت تتعامل مع افرع وزارته وعلى اساس أن الموضوع لو ترك هكذا دون تنظيم فإنه قد يفتح مجالات يحسن قفلها».

وأمر عبدالناصر باصدار قرار رئيس الجمهورية بالقانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٦٩ بتنظيم العمل لدى الجهات الاجنبية بالنسبة لوظائف معينة ونصت المادة الأولى منه على أنه لايجوز للوزراء ونواب الوزراء ومن فى درجتهم ان يعملوا لدى الحكومات أو المؤسسات الاجنبية باشكالها المختلفة أو لدى الاجانب أو أن يقوموا بأى عمل لحساب تلك الجهات خلال الخمس سنوات التالية لترك مناصبهم ولايسرى هذا الحظر على من يعملون فى الهيئات الدولية».

ثم نصت المادة الثانية على أنه «يجوز بقرار من رئيس الجمهورية اضافة وظائف أخرى يخضع شاغلوها بعد عملهم بها لاحكام هذا القانون».

وفى كل الحالات لم يمانع عبدالناصر فى اضافة وظائف أخرى إلى من طلب التصديق بذلك بشرط أن يحافظ على كرامة المنصب الذى شغله من قبل وحدث.. أن وزيرا سابقا للسياحة طلب الموافقة له على العمل باحدى الهيئات الدولية ووافقه

عبدالناصر على طلبه.. ولكنه نقل مجال عمله الخاص والمصرح له به إلى منطقة عربية علاوة على أنه أساء إساءة بالغة فى التعامل الذى خرج به عن حدود الأمانة هناك.

وعلم عبدالناصر بذلك، فحدد إقامة الوزير السابق فى منزله وأمر بوضعه فى قوائم الممنوعين من السفر.

وجعل هذا الوزير من نفسه بطلا - فكتب بعد رحيل عبدالناصر أنه قد اعتقل لأنه قال «لا» لعبد الناصر.

والحقيقة أن الوزير قد حددت إقامته لأنه لم يصدق حينما طلب الموافقة على عمله بإحدى الهيئات الدولية ولم يكن هذا صحيحا.. ثم إنه تعامل بطريقة تقرب من الاحتيال مع دولة عربية ولم يكن هذا جائزا.

كان عبدالناصر ملما الماما كاملا بكل ما يحدث ويدور حوله.. وكان من المستحسن لمن يعرض موضوعا من الموضوعات أو يسأل عن موضوع ألا يخوض فيه إذا لم يكن متمكنا منه مدركا لتفاصيله ملما بجوانبه لأنه كان سيجد نفسه بعد فترة وقد تورط، حتى ركبتيه، وكان يطالب الوزراء أن يكونوا ملمين بما يجرى فى وزارتهم خاصة بعد أن رفع عن كاهل الوزير كل شىء يمس التخطيط وتفرغ للتخطيط والمتابعة.

وحدث أن المرحوم أحمد توفيق البكرى وزير الصناعة لم يكن يدرى أن بعض الاضطرابات العمالية قد حدثت فى قطاع الصناعة فى الصباح إلا عند مناقشة الموضوع فى مجلس الوزراء الذى تصادف وعقد أحد جلساته فى مساء نفس اليوم برئاسة عبدالناصر.

وبعد أن أدلى شعراوى جمعة وزير الداخلية ببيانه التفصيلى عن طبيعة الاضطرابات ومطالب العمال والاتجاهات السائدة بينهم جاء دور «البكرى» وعاتب وزير الداخلية على عدم اخباره بالأحداث وقت وقوعها.. وهنا تساءل عبدالناصر بصوته المنخفض العميق كيف ذلك؟.. كيف لا تكون قنوات وزير مفتوحة على قطاعه؟.. كيف لا يشعر الوزير بكل ما يجرى فى قطاعه؟ وإذا الوزير لا يعرف بالاضطربات التى تحدث فى المصانع وبأسبابها حتى لا يعالجها فماذا يتبقى له؟.. كيف لم يتنقل الوزير إلى المصانع ليواجه

العمال سياسيا ويبدأ الحوار معهم؟

ولم يعط البكرى إيجابات مقنعة.

وفقد الوزير منصبه الوزارى فى نفس الليلة.. وعاد عزيز صدقى وزيرا للصناعة.. وبعد فترة وجيزة تولى «البكرى» رئاسة مؤسسة الطيران ليواجه فيها متاعب جديدة نتيجة لوجود بعض الاضطرابات بين العاملين ولكنه كان يتتبع الأمر بعينين مفتوحتين تراقبا كل ما يحدث.

فقد استوعب الدرس

حدث.. فى أحداجتماعات مجلس الوزراء برئاسة عبدالناصر.. أن كلف وزير النقل بأن يقدم للمجلس خطة لإصلاح موقف السكك الحديدية إذ كانت هناك شكاوى من أن حالة المرفق أصبحت فى حاجة إلى عناية خاصة.

وعاد الوزير إلى المختصين للدراسة.. وتقدم بخطته فى مذكرة لتعرض بصيغةعاجلة على المجلس وكانت التكاليف المقدرة لتنفيذ إصلاحات المرفق ٤٠٠ مليون جنيه.

وبدأ الوزير إلقاء بيانه ومبرراته.. وفجأة قاطعه عبدالناصر قائلا أنت طالب ٤٠٠ مليون جنيه لإصلاح المرفق.. وأنت تعلم الظروف التى تمر بها البلاد وهى تخوض حربا لتحرير الأرض.. لو كنت مكانى الآن.. من أين تحصل على هذا المبلغ دفعة واحدة؟.. وحتى لو تيسر لنا ذلك هل لدى المرفق القدرة على انفاق هذا المبلغ فى السنة المالية الحالية؟

وأضاف عبدالناصر قائلا: المسألة ليست التخلص من المسئولية وإثبات المواقف.. يجب علينا أن نتقدم بطلبات معقولة تتناسب مع الامكانيات المتاحة ولكن ما ألمسه فى الطلبات المقدمة إنها طلبات غير مسئولة.

وطلب من الوزير إعادة الدراسة على أساس الطلبات العاجلة والطلبات التى يريدها فى المدى الطويل.

ومن الجدير بالذكر أن الوزير يردد الآن أنه فقد منصبه لأنه طالب بإصلاح مرفق السكك الحديدية فى ذلك الوقت.

فى أول اجتماع لمجلس الوزراء حضره عبدالناصر بعد نكسة يونيو ١٩٦٧.. هبت العواصف فى أكثر من اتجاه..

كان أول من تحدث حسين الشافعى.. وبدأ يتحدث عن الأخطاء والسلبيات التى أدت إلى النكسة.. فأخذ ينتقد الانفرادية فى اتخاذ القرارات ثم تناول موضوع الحراسات وكيف أنه تحدث إلى عبدالناصر مرارا بخصوص هذا الموضوع.

واستمع عبدالناصر إلى الحديث وتساءل: لماذا لم يدل حسين الشافعى بمثل هذه الآراء من قبل؟.. لماذا لم ينتقد أسلوب الحكم إلا بعد الهزيمة؟.. لماذا يختار هذا الوقت بالذات؟ اثم ضحك عبدالناصر مرددا المثل الشائع «لما العجل يقع تكتر سكاكينه» وأخذ يعدد أمام مجلس الوزراء القرارات الهامة التى أخذت قبل النكسة وأهمها سحب القوات الدولية وغلق خليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية وأكد أنها تمت بموافقة الجميع.

وقد أمن على حديث عبدالناصر السيدان أنور السادات وزكريا محى الدين وكانا يحضران الجلسة.

وأخذ عبدالناصر يعد الموضوعات والسيدان أنور السادات وزكريا محيى يؤمنان على ما يقوله. ثم عاد عبدالناصر لينفى أن الشافعى اعترض على الحراسات ولكنه كان يفاتحه فى رفع الحراسة عن بعض أقربائه ممن طبق عليهم قانون تصفية الإقطاع وأكد عبدالناصر أنه لم يستجب لرجائه حتى لا يكون هناك استثناءات فى تنفيذ القانون.. ثم عاد عبدالناصر ليتساءل: إذا كان أسلوب الحكم ليس محل رضائك لماذا لم تقدم استقالتك كما فعل البغدادى وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم؟.. لماذا تبقى فى حكم لا ترضى عن اتجاهاته؟.. لماذا يظل فى المسئولية ظل قوانين تتعارض مع معتقداته؟..

ورد الشافعى الاستقالة أبسط شىء لا تكلف الإنسان إلا قصاصة من ورق.

ورد عبدالناصر: لماذا لا تقدم هذه القصاصة؟.

وتوقف الرجلان عند هذا الحد..

ولم يقدم الشافعى استقالته.. كما أن عبدالناصر لم يقدم على إقالته حتى يوم وفاته.

وتحدث بعض الوزراء لينقدوا قرارات شاركوا فيها ووقعوا عليها وأيدوها والقوا

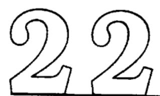
الخطب الاجتماعات الجماهيرية ويبيعونها للجماهير.

وهنا تساءل عبدالناصر والمرارة تكسو وجهه:

كل ما يحزننى هو أنكم تنتقدون الآن ما سبق لكم أن أيدتموه.

وكانت بداية التغييرات الكبرى فى مصر.

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

مفاجآت مثيرة ومفزعة!!

من يضمن الا يكون قائد الطائرة مهووسا..؟
هؤلاء محسوبون على النظام.. وتصرفاتهم محسوبة علينا..!!
أن هدفى أن يكون كل هؤلاء مثلا خالدا..
سوف أقول لك أنك كنت ضابط مخابرات أمريكى سابقا..
قطع عبد الناصر خطابه وصرخ فيهم يأمرهم وينهرهم..
لأنها لم تكن حرب شعبية..

عندما حدثت أزمة التدخل الأجنبى فى الكونغو عام ١٩٦١، أمر جمال عبد الناصر بتعيين مراد غالب سفيرا لمصر هناك وفى أسرع وقت.. الا أن الأيام مضت.. ولم يعين أى سفير لمصر هناك ولم ينفذ طلب عبد الناصر.

وسأل عبد الناصر عن السبب ثم أمر بأن يذهب مراد غالب بنفسه سفيرا لمصر فى الكونغو.

وكان الأمر يحمل فى ثناياه نوعا من عدم الرضا عن مراد غالب ورغبة فى تشويه العلاقة بينه وبين عبد الناصر.

الا أنه ذهب إلى الكونغو بأمر شخصى منه.

وعاش فيها أربعين يوما.. وكان له فيها دور جعل اسمه يتردد يوميا فى أنباء الوكالات والصحافة الأجنبية.

ثم أعيد إلى القاهرة سفيرا بوزارة الخارجية بعد اغتيال لومومبا ولعبت الظروف دورها.

فقد تقرر أن يعقد مؤتمر قمة أفريقى محدود يحضره عبد الناصر والملك الحسن ملك المغرب ورؤساء كل من غينيا ومالى.

وكانت الدار البيضاء فى المغرب مقرا لهذا المؤتمر وكانت الوسيلة الوحيدة المأمونة لوصول جمال عبد الناصر إلى الدار البيضاء هى البحر والسفينة «الحرية» وكانت الثورة الجزائرية فى أخطر أيامها.

والعلاقة بين مصر وفرنسا مقطوعة وكان الاحتمال كبيرا أن تجرى محاولة لاغتيال عبد الناصر أو للاعتداء على حياته فى الطريق فتقرر أن تكون السفينة الحرية فى حراسة مدمرتين من السلاح البحرى المصرى.

وكانت مدة الرحلة سبعة أيام.

وفى اليوم الثانى للرحلة جنحت إحدى المدمرتين وانسحبت إلى حوض للاصلاح فى ايطاليا.. وفى اليوم التالى انسحبت الاخرى إلى حوض فى اسبانيا.

وأصبحت السفينة الحرية عزلاء فى البحر الأبيض المتوسط دون أى حماية وعليها جمال عبد الناصر وكانت مسيرتها على مرسى شاطئ الجزائر ليلة رأس السنة.

ولم يخل الأمر من مفاجآت مثيرة.. ومفزعة أيضا.. فقد خرجت احدى الطائرات الفرنسية تحلق فوق سفينة عبد الناصر ذهابا وايابا.. وكان عبد الناصر على سطحها فما كان منه الا أن أخذ للطائرة فيلما سينمائيا وهى تطير حول السفينة الحرية على مستوى منخفض وسط فزع وخوف المحيطين بعبد الناصر.. حتى أن رؤية قائدها كانت واضحة لركاب السفينة.. فاضطر على صبرى أن يجذب عبد الناصر من يده ويقنعه بمغادرة سطح السفينة قائلا.. قد تكون الحكومة الفرنسية لا تنوى بنا ضررا ولكن من يضمن ألا يكون قائد الطائرة مهووسا؟..

كانت الرحلة شاقة وقاسية سبعة أيام بأكملها كان هياج البحر فيها يبلغ أقصاها فى «نوة» من تلك النوات التى يعرفها رجال البحر وتكون فى نهاية كل عام.. والسفينة الصغيرة تتجاذبها الامواج.. حتى أن أحد قوارب النجاة تحطم كما تحطم واحد من سلالم الانزال.

وفى الأيام الأولى للرحلة كان أعضاء الوفد تقريبا قد أصابهم دوار البحر.. ولزم أكثرهم قمرته ولم يكن متمالكا لنفسه تماما سوى جمال عبد الناصر ومراد غالب.

وكان من الطبيعى أن يستبقى عبد الناصر مراد غالب معه فى تلك الفترة.. وكان من الطبيعى أيضا أن تدور بينهم أحاديث طويلة..

وعندما عاد عبد الناصر من رحلة الدار البيضاء أمر بتعيين مراد غالب سفيرا لمصر فى موسكو حيث كان السفير محمد التونى قد جار بالشكوى من تركه السنوات الطويلة

فى جو موسكو الجليدى الذى لم تعد صحته تحتمل ثلوجه.

وأستمر مراد غالب فى منصبه حتى وفاة عبد الناصر.

●●●

فى نادى ضباط القوات المسلحة بالزمالك وفى الايام الاولى لصيف عام ١٩٦٥. كان ثلاثى اضواء المسرح جورج سيدهم وسمير غانم والضيف أحمد يقدمون اسكتشات فكاهية عن طالب يدرس فى الخارج ويتجاذب مع والدته من خلال اتصال تليفونى شبيه بذلك الذى تجريه اذاعة صوت العرب فى القاهرة فى برنامج «ابناؤنا فى الخارج».

فى الصف الامامى من جلوس الحاضرين كان جمال عبد الناصر والى جواره المشير عبد الحكيم عامر وكانت الليلة هى احتفال بزواج كريمة المشير عامر.

وتناول الثلاثى الكوميدى فى حوار هم الفكاهى قفشة عن «حلة محشى» ارسلتها الام للابن فلم تصله وقال الضيف احمد تعليقا على ذلك يظهر اكلوها فى الجمرك.

وضحك جمال عبد الناصر وهو يتابع المشهد الفكاهى.

لم يكن ساعتها رئيس الدولة المثقل بالهموم والمسئوليات وإنما كان عبد الناصر الانسان.. يضحك من اعماقه ويستغرق فى الضحك إلى غايته.. يكاد جسمه كله يهتز فيضرب الارض بقدميه اذا لم تسعفه انفاسه على مواصلة الضحك.

واستمرت فقرات الاحتفال تتعاقب حتى حان موعد العشاء.. وانتشر المدعوون على الموائد الصغيرة العديدة الموزعة فى حديقة النادى.. الا إنه حدث مشهد استوقف عبد الناصر كثيرا.. واثار استياءه وغضبه.. فقد انقلب الذين كانوا يجلسون فى أدب ونظام إلى البوفيهات يخطفون ما عليها بنهم ووحشية مضحكة ومؤسفة معا.. كان المنظر غريبا..

وقد كان كل الحاضرين تقريبا من عليه القوم فى المجتمع الجديد وأصحاب المراكز والمناصب فيه.. ولكنهم نسوا كل شئ حتى أنفسهم وأخذوا يتزاحمون ويتخاطفون أصناف الطعام حتى أن «السرافيس» الضخمة التى كانت تأتى من المطبخ لكى يأخذ كل من المدعوين نصيبه منها كانت هذه السرافيس تختطف قبل أن تصل إلى البوفيه ويضعها مختطفوها على الموائد التى جلس إليها أهلوها وأصدقاؤهم.

وقد يكون من الجائز فى الافراح أن يأخذ بعض المدعويين شيئا من الحرية فى تصرفاتهم على سبيل المزاح.

ولكن ما حدث فى تلك الليلة كان أكثر بكثير من هذا القياس كان أمرا واضحا فيه الشراسة الشراهة ثم أنه كان يجرى على مرأى ومشهد من جمال عبد الناصر وكبار معاونيه.. ولم تمر هذه الظاهرة دون أن تشد انتباه عبد الناصر الذى كان له عنها حديث طويل فى اليوم التالى.

وكان التعليق الذى قاله عبد الناصر صباح اليوم التالى عنها يضعها فى اطار أهمية خاصة.

قال عبد الناصر: هؤلاء محسوبون على النظام وتصرفاتهم محسوبة علينا.

●●●

كان أمرا غاية فى الصعوبة قبل الرحيل بأيام.. كان جمال عبد الناصر عائدا من لقاء له مع معمر القذافى فى مرسى مطروح وبينما القطار يقترب من منطقة برج العرب، سألته السيدة الجليلة قرينته وهى تشير إلى أرض خضراء مزروعة وسط الصحراء.

هل هذه هى *أراضى* مشروع تعمير *الساحل الشمالى*؟

وأجاب عبد الناصر برنة حزن فى صوته:

كلا.. إن هذه الأراضى لا تزال تزرع بمياه الآبار.. انظرى إلى هؤلاء الصبية من البدو أترين كيف يمشون حفاه فوق الرمال الساخنة؟.. نحن لم نصل بعد لما أريد.. إن هدفى أن يكون كل هؤلاء مثلاً خالداً.

وبعد لحظة صمت قال بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه:

«عشان دول أنا بأشتغل»

●●●

كانت مقابلات عبد الناصر عديدة ومتنوعة من رؤساء وملوك ضيوف على القاهرة إلى سياسيين ومؤثرين فى سياسات دولهم سواء فى موقع السلطة أو المعارضة إلى

صحفيين ورجال اعلام وكان عليه دائما قبل كل مقابلة مع من لم يلتق به من قبل أن يقرأ عن حياته ونشاطه السياسى وهواياته ومؤلفاته ... إلخ.

ومن الوقائع التى يرويها جمال عبد الناصر بهذا الخصوص:

يوم أن استقبل أحد كبار مقدمى برامج التليفزيون الامريكى لتسجيل حديث معه وبينما الفنيون مشغلون بالاستعداد وضبط الاضاءة.. سأل الضيف الامريكى عبد الناصر قائلا:

سيادة الرئيس.. أود أن أسألكم خلال الحديث المسجل عن حرية الصحافة فى مصر ومدى تدخل الدولة فيها فهل تسمحون لى بذلك؟..

وأجاب عبد الناصر على الفور:

إذا سألتنى هذا السؤال فسوف اجيبك ولا تظن أن شيئا أو موضوعا يمكن يحرجنى سوف اثبت لك أن لدينا من حرية الصحافة ما يفوق تلك التى تتحدثون عنها فى الولايات المتحدة والتى تكاد أن تندثر أمام ضغوط المؤسسة الصناعية العسكرية وأمام النفوذ الصهيونى وفى نهاية سؤالى سوف أقول انك كنت ضابط مخابرات أمريكى سابقاً قبل احترافك مهنة الإعلام.

وأسقط فى يد الضيف الأمريكى وظل ساهما يفكر ثم بدأ التسجيل وعبر الامريكى السؤال ولم يحاول اثارته..!!..

كان جمال عبد الناصر عائدا من تنزانيا وكان المفروض أن تهبط طائرته فى السادسة مساء.. ولكن..

فى فجر هذا اليوم دق التليفون الخاص بمنزل عبد الناصر وسأل المتحدث:

هل هذا بيت الرئيس عبد الناصر:

قالوا: نعم..

فكان رده: اذن.. جهزوا البيت اليوم للحداد؟

وتكرر الاتصال المزعج ثلاث مرات..

واجتمع كبار المسئولين من اجهزة الأمن المدنى والعسكرى ولم تكن هناك فسحة من الوقت لتبين أية خيوط تكشف عما وراء هذا الاتصال.

واستخدمت الاجهزة كل جهدها للتعرف عما هناك من تدبيرات..

وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر تكشف الموقف عن خلية جديدة للإخوان المسلمين تدبر اغتيال عبد الناصر عند وصوله إلى مطار القاهرة.. وتم اعتقال أفراد الخلية..

ثم جرى معهم استجواب اعترفوا فيه بأنه فى حالة فشلهم فإن هناك أحد المكلفين بعملية تبادلية ولم يكن من السهل التعرف على هذا المكلف.. وكان الوقت يمر بسرعة.

ووصلت طائرة عبد الناصر بالفعل قبل السادسة بربع ساعة وكان المشير عامر فى المطار.. فأصدر اوامره بتأخير نزول الطائرة..

وظلت الطائرة تدور فى مطار القاهرة بدون سبب معقول وكل ما لدى قائدها من التعليمات ألا يهبط إلا بعد اعطاء الاذن له.. ودارت الطائرة أكثر من عشرين دقيقة متصلة قبل أن يصل الامر لقائدها بالهبوط.

وكان الاستقبال غريبا.. حيث علم عبد الناصر بسبب تأخير الاذن بالهبوط وعندما خرج عبد الناصر من الاستراحة كانت صالة المطار قد أعدت بحيث يقف على جانبى مسار عبد الناصر حاجزان بشريان من منظمة الشباب والحرس الوطنى.

وعند وصول الرئيس إلى باب المطار وجد فى انتظاره عربة مقفولة على الرصيف الخارجى للمطار بحيث يكون بابها لصق الباب الزجاجى الخارجى لصالة المطار.. بينما جمع المستقبلين من المواطنين فى سرادق خارج المطار.

وصاح فيمن حوله لابعاد السيارة من موقعها وسار على قدميه وسط الجماهير وأمام لسرادق حتى نهايته وهو يحيى المستقبلين من أبناء الشعب الذين غلبهم الحماس فقفزوا من وراء حاجز السرادق واحاطوا به من كل جانب محطمين كل حواجز الأمن وتدبيراته.

الحارس ربنا

فى مارس ١٩٥٩ عندما وقع الخلاف مع نظام عبد الكريم قاسم وكان قد انخرط تحت سيطرة الشيوعيين العراقيين وكان عبد الناصر وقتها فى دمشق.. ووردت

معلومات مؤكدة بأن نظام عبد الكريم قاسم قد اختار أحد عشر قناصا ممن احسن تدريبهم وصدرت إليهم الاوامر بالتسلل إلى دمشق لاغتيال عبد الناصر وأدرك أفراد حراسته خطورة الموقف وحاولوا تشديد اجراءاتهم وفى اليوم التالى صباحا كان عبد الناصر يلقى خطابا من شرفة قصر الضيافة ووسط الخطاب أحس أن هناك أمرا غير عاديا يجرى حوله.. لقد تقاطر أفراد الحراسة وراءه فى الشرفة فقطع خطابه وصرخ فيهم ينهرهم ويأمرهم بالخروج من الشرفة التى بقى فيها يواصل خطابه وفى المساء كان عليه أن يقوم بزيارة داخل دمشق.. وعند خروجه من باب القصر وجد حراسه يقفون منه على مبعدة.. وأحس أنه ربما يكون قد جرح مشاعرهم بما حدث فقال: «يا أولاد اوعوا تكونوا فاكرين انكم بتحرسونى.. اللى بيحرس هو ربنا.. ولما ربنا يريد شئ لا انتوا ولا مليون زيكوا يقدروا يحوشوا القضاء».

جملة ثمنها ٥٠٠ مليون جنيه استرلينى

عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ قرر عبد الناصر أن يخرج إلى الجماهير كما تعود فى المواقف الحاسمة دائما وكما تعودت منه الجماهير.

واختارا أن يكون خطابه فى صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر.

وكانت المعلومات المتوافرة تشير إلى أن المخابرات البريطانية والفرنسية تجندان مجهودهما لمحاولة اختطاف عبد الناصر أو اغتياله واشفق المحيطون بعبد الناصر عليه من ركوب العربة المكشوفة.. مع توقع أن تحيط الجماهير بعربته فى شارع الأزهر الضيق.. فتسلبها قدرة الحركة وتجعل منها هدفا لطائرات الاعداء التى كانت تملأ سماء القاهرة بين الحين والآخر.

ولكنه لم يتردد..

وكان الخطاب الملتهب الذى القاه بصوته المبحوح إذ كان قد أصيب بالتهاب فى الحنجرة من على منبر الأزهر بمثابة الشرارة التى الهبت مشاعر الشعب العربى فى كل مكان.

وعندما عاد عبد الناصر من خطبة الأزهر.. أكد على سكرتيره الصحفى بأن يحذف من الخطاب عبارة قال فيها.. أننا اذ كنا قد خسرنا كثيرا من المعدات والعتاد فى سيناء

فقد عوضنا عنها لأننا قد استولينا على القاعدة البريطانية فى قناة السويس وفيها من عتاد يساوى أكثر من ٥٠٠ مليون جنيه استرلينى.

ولكن السكرتير الصحفى لم يوفق فى حذف هذه الفقرة من الخطاب الذى اذيع كاملا فثارت عليه ثائرة عبد الناصر.

واستاء البعض فى أهمية عبارة فى خطاب وسط الظروف القاسية التى تمر بها مصر.

ولكن..

بعد ذلك بأشهر عندما جرت المفاوضات بين مصر وبريطانيا بشأن التعويض عن آثار الحرب.. فاذا بالوفد البريطانى يتمسك بأن يخصم من التعويض مبلغ ٥٠٠ مليون جنيه استرلينى.. وقد أقر رئيسكم فى خطابه بأن القاعدة التى استوليتم عليها تساوى هذا المبلغ.

فقد كان وضوح الرؤية عند عبد الناصر شاملا فى معركة ١٩٥٦ حتى فى أحلك اوقات الحرب فقد كان وعيه حسابا دقيقا للاحداث القادمة كيف ستكون.

لأنها لم تكن حرباً شعبية!!!؟

بعد نكسة ١٩٦٧ تحركت الصين لتأييد الجمهورية العربية المتحدة واستدعى ماوتسى تونج وشواين لاى السفير المصرى فى بكين لمقابلتهما وأعربا له عن استعداد بلادهما لتأييد الجمهورية العربية المتحدة إلى أقصى الحدود وانتقدا له فى عنف موقف الاتحاد السوفيتى من المعركة ووصف القادة الصينيون هذا الموقف بأنه تخاذل مخز.. وأن الاتحاد السوفيتى قد باع العرب بصورة مخجلة..

وفى القاهرة تكرر نفس الموقف.. حضر السفير الصينى لمقابلة عبد الناصر ونقل إليه تأييد بلاده المطلق ودامت المقابلة وقتا طويلا وقال السفير أنه قد آن الآوان لكشف موقف السوفيت وأنه من الضرورى أن يعرف شعب الجمهورية العربية المتحدة أن الروس ليس فى نيتهم تقديم المساعدة الحقة الفعالة.

ثم عرض السفير موقف بلاده وقال أنهم قرروا إهداء الجمهورية العربية المتحدة عشرة ملايين من الدولارات الامريكية ومليون طن قمح وأن الوسيلة الوحيدة للنصر على

اسرائيل هى الحرب الشعبية.. وانهم مستعدون لمساندة الشعب فى هذا المجال بالمدربين بل وبالمتطوعين.

ورد جمال عبد الناصر بأن الحرب الشعبية لا تفلح مع اسرائيل من ناحيتنا لأن بيننا وبينها صحراء سيناء الجرداء وأنه لا سبيل لنا أمام إسرائيل إلا الحرب النظامية ولكنه رحب بالمساندة الصينية وذكر عبد الناصر بأن مصر كانت أول دولة عربية تعترف بالصين الشعبية وأن الشعب المصرى يكن للشعب الصينى كل التقدير العميق ويذكر مساندته له بل أن كل مصرى مازال يذكر الكلمة التى قالها ماوتسى تونج: أنه لو أطال كل صينى ثوبه سنتيمترا واحدا لاشترت الصين القطن المصرى كله..

وهو وإن كانت لديه بعض التحفظات على موقف السوفيت إلا أن الظروف التى تمر بها الجمهورية العربية المتحدة فى هذه المرحلة لا تتيح لها التورط فى خلافات خارجية والوقت لا يعطيها الفرصة لاعادة نظام التسليح كله.

وكان الحديث فى المقابلة يتم من خلال مترجم..

وفى أعقابها طلب عبد الناصر من سامى شرف أن يتصل بالسفير الصينى ليستوثق من صحة الارقام التى ذكرت عن المساعدة حيث يخشى أن تكون الترجمة غير صحيحة.

وأجرى اتصالا تليفونيا بالسفير..

وكان رده بأنه يسرهم أن يقدموا للجمهورية العربية المتحدة عشرة آلاف دولار والف طن من القمح فقط.. لا غير..!!!

■ ■

23

القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

عبد الناصر والدين

ليس بين الخير لنا ولبلادنا أن يقال عنا ونحن مسلمون أننا نفطر رمضان..

والدى.. مش موافق على أى حاجة من اللى أنا بأعملها..!!

حوار عبد الناصر مع سارتر حول الدين..

صور الروك آندروك أمام عبد الناصر..

حكاية عشيقة عبد الناصر..

كان جمال عبد الناصر يرى أن الشعب المصرى مؤمن شديد الإيمان، متدين شديد التدين ولنسمع شهادة المفكر الاسلامى الدكتور عبد العزيز كامل.

ألتقى جمال عبد الناصر بعبد العزيز كامل للمرة الأولى فى ١٩ مارس عام ١٩٦٨...

سأله عبد الناصر عن صحته وأسرته.. ثم بادره قائلا:

لقد قرأت كتابك الأخير «دروس فى غزوة بدر» وفوجئ عبد العزيز كامل.. فالكتاب قد صدر قبل أيام قليلة من اللقاء والمهام الملقاة على عاتق عبد الناصر ثقيلة ومضنية ووقته عزيز.

وتابع عبد الناصر قوله: قرأت الكتاب كله ولكنى أود أن أقول لك شيئا من اليسير أن تكتب ومن العسيرات تطبق ذلك على الناس... معاناة الناس شئ غير الكتابة.. وأنت عشت فى الجامعة بين زملائك وتلاميذك تحبهم ويحبوك ولكن قضايا الجماهير تحتاج إلى صبر طويل وتلتقى بها بمشكلات لا تتوقعها من أفراد لا تنتظر منهم المشكلات والفارق كبير بين ما يعلم الانسان وما يعمل به ما يعلمه.

وتابع قوله: وهذه تجربة أود أن تقوم بها فى الحياة التنفيذية... ولكن أود أن أقول لك أمرين:

الأول: أنك قد تجد السوء من تنتظر منهم التعاون والخير فلا تجعل ذلك يصرفك عن هدفك.

والثانى: أدعو لك فأقول أعانك الله نحن بحاجة إلى عمل طويل فى كافة الميادين وشعبنا طيب ومؤمن شعب وفى مخلص فاربط نفسك دائما بالقاعدة ولا تجعل حياة الكتب عازلا بينك وبين الناس.

كان عبد الناصر متخففا فى طعامه طاهرا فى شرابه وبينه وأهله محافظا على عبادته..

يذكر عبد الناصر أنه فى زيارة له للاتحاد السوفيتى اقترب موعد صلاة الجمعة وكان فى مباحثات مع القادة السوفيت والمسئولون مجتمعون فى المسجد ينتظرون قدومه وطلب إيقاف المباحثات واستعد للصلاة وذهب يؤدى الصلاة مع اخوانه.

كان الاسلام عند عبد الناصر اسعاد الناس ولهذا ترجم الاشتراكية إلى منع الاستغلال الانسان للانسان وكان أمله أن يتعلم كل شاب وأن تتزوج كل فتاة وأن تتكون الأسرة الصغيرة الهانئة..

يذكر الشيخ الباقورى أنه فى باندونج، عام ١٩٥٥ أصر عبد الناصر أن يظل صائما طوال شهر رمضان ورفض استخدام الرخصة الشرعية التى تعطيه حق الفطر وهى الرخصة التى استخدمها الشيخ الباقورى نفسه فأفطر فى شهر رمضان إعمالا للحديث الشريف بينما تمسك عبد الناصر بالصوم.

يقول الشيخ الباقورى: حين بدأ شهر رمضان فى مدينة باندونج فقد الجهد الذى كنا نبذله فى شهور المؤتمر وفى قول الله « فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر» ثم على ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس من البر الصيام فى السفر» وأخذا بالرخصة أفطرت التزاما للأب رسول الله فى قوله الشريف: إن الله يجب أن تؤتى رخصه كما يجب أن تؤتى عزائمه.

أن كثيرا من أهل هذه البلاد أندونيسيا ومن الهند وباكستان وأفغانستان والصين وافريقية يزورونني فى البيت الذى ننزله فيه فأذا رأونى مفطرا ورجعوا إلى بلادهم ذكروا لمن رآهم أن الرئيس المسلم يفطر رمضان والناس لا يلتمسون الاسباب لكنهم يأخذون بالنتائج ويذيعونها وليس من الخير لنا ولبلادنا أن يقال عنا ونحن مسلمون أصحاب سلطان أننا نفطر رمضان والمسلمون يصومون.

فى مارس عام ١١٩٦٧ كان جان بول سارتر فى زيارة لمصر والتقى بجمال عبد الناصر ودار بينهما حوار طويل قال له جمال عبد الناصر ردا على سؤال منه:

أن ارتباط تنظيم الضباط الاحرار بالاشتراكية لم يكن محددا وإنما كان بصفة عامة وكان هناك رأيان:

الأول: يرى وضع برنامج مفصل لكل شئ

والثانى: كان يرى عدم وضع برنامج..

وانضم عبد الناصر للرأى الثانى.. ورأى أن يتم الاتفاق على قليل من المبادئ التى يمكن أن يتجمع عليها أكبر عدد من الناس لأنه كان يرى أن الدخول فى التفصيلات سيفجر كثيرا من الخلافات وبالتالى لن يمكن إيجاد التجمع ا لذى يمكن أن يقوم بالثورة وعلى هذا انعقد الاجما ع على المبادئ الستة المعروفة.

وقال عبد الناصر لسارتر أنه بعد قيام الثورة وعندما أخذوا فى وضع التفصيلات بدأت تقع الخلافات التى كانت حدثت قبل قيام الثورة لما أمكن قيامها إلى جانب هذه الخلافات بين الثوار أنفسهم بدأت الثورة تواجه المصادمات فى الداخل وفى الخارج.

ففى الداخل: واجهت نتائج عملية تحديد ملكية الأراضى الزراعية ومماطلة الإنجليز فى الجلاء.. ثم مواقف الأحزاب والاخوان المسلمون.

وفى الخارج: واجهت عداء بريطانيا التى رأت فى قيام الثورة خطراً مباشرا على مصالحها.. وواجهت بعض الانظمة الحاكمة فى خشيتها أن تنتقل عدوى الثورة إلى شعوبها أما أمريكا وروسيا فكان موقفها غير محدد.

حاولت أمريكا فى البداية احتواء الثورة ولقد حاول ما يلزكوبلاند فى كتابة «لعبة الأمم» وهذا محض افتراء وكتابه هذا ما هو إلا محاولة من المخابرات الامريكية لبلبلة الأفكار حول مصر وثورتها لأن ما يلزكوبلاند كان وما يزال يعمل فى خدمتها وتحت أمرتها.

ويأتى توضيح موقف امريكا من الثورة على لسان عبد الناصر ففى واحد من اجتماعات اللجنة العامة للاتحاد الاشتراكى التى عقدت فى اوائل عام ١٩٦٣ لوضع الاسس التى يقوم عليها التنظيم ففى الاتحاد الاشتراكى كان عبد الناصر يتحدث عن

الوعى الثورى وكيف يمكن نشره بين الجماهير انتقد فقال ورد فى صحيفة مصرية أن مصر استغلت التناقض بين أمريكا وإنجلترا حيال الثورة ففازت بالجلاء.

وذكر عبد الناصر أن هذا لم يحدث لأن امريكا كانت تضغط علينا بقبول شروط بريطانيا وأنما السبب الحقيقى فى الجلاء هو تزايد الأعمال العدائية التى اشتدت فى القناة وكانت الوسيلة الوحيدة للضغط على المفاوض البريطانى.

وروى عبد الناصر كيف أن الأجهزة المصرية استطاعت الحصول على ورقة الكربون التى استخدمت فى السفارة البريطانية فى نسخ التقرير الذى يحدد أسلوب التفاوض مع المصريين وهو التشدد معهم والتهديد بقطع المفاوضات فاذا لم يفلح التهديد عادوا لاستئنافها.

وعلى هذا الاساس كان عبد الناصر يتصرف ويتشدد مطمئنا يذكر عبد الناصر أن المفاوض البريطانى «بورد سو» طلب أن تكون مدة بقاء القاعدة عشر سنوات .. وأصر عبد الناصر على سبع سنوات.

ويقول عبد الناصر ضاحكا أنه كان ناس قاعدين جنبى بيزغدونى من تحت الترابيزة عشان أوافق ولكن عبد الناصر تشدد وانقطعت المفاوضات.

ولكن الجانب البريطانى عاد لاستئنافها بعد ثلاثة أيام لتقبل السنوات السبع بينما كان السفير الامريكى قد اتصل بعبد الناصر ليضغط عليه لقبول السنوات العشر.

وتكرر الامر عندما طلب المفاوض البريطانى أن يحتفظ الفنيون فى قاعدة القناة بملابسهم العسكرية بينما كان عبد الناصر يصمم على أن يكونوا من المدنيين وانقطعت المفاوضات ثم استونفت برضوخ بريطانيا لمطالب عبد الناصر.

وعندما أرسل عبد الناصر على صبرى إلى أمريكا فى طلب الاسلحة كان ردهم أنهم لن يعطونا أى سلاح إلا إذا اتفقنا مع الانجليز.

يأتى هذا فى الوقت الذى كانت الموسوعة السوفيتية الكبرى قد نشرت عام ١٩٥٢ مقالا جاء فيه: لقد استغل الامبرياليون الامريكيون والبريطانيون الموقف ونجحوا فى تدبير حركة انقلاب فى نهاية شهر يناير من عام ١٩٥٢ حتى يتولى الحكم فى مصر

مجموعة من أعوانهم المفضلين وفى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت مجموعة من الضباط الرجعيين الذين كانوا على اتصال وثيق بالولايات المتحدة الامريكية بالاستيلاء على السلطة وكان على رأس هذه المجموعة اللواء محمد نجيب..

هكذا كان موقف امريكا وهكذا كان موقف الاتحاد السوفيتى من الثورة عند قيامها وقبل أن تتبين ملامحها.

والدى يعترض

فاذا اتجهنا للصعيد الداخلى إذا بالثورة تواجه كثيرا من العداءات كان اولها بالطبع ما يتعلق بتحديد ملكية الاراضى الزراعية بمائتى فدان.

ويروى عبد الناصر لسارتر عن هذه المرحلة فيقول: إن التطبيق كان صعبا جدا.. لأن المعارضة لم تكن من الاقطاعيين وحدهم وانما من فئات كثيرة قد تكون معدمة.. وذلك أن شعبنا محافظ بالطبيعة وعاطفته فياضة ويصرف النظر عن أن الناس كانت مرحبة بالثورة ومؤيدة لها لكن العاطفة الانسانية كان لها دورها وتأثيرها..

ويضحك عبد الناصر وهو يقول: أنا فعلا عندى والدى هو لا يملك حاجة أبدا بس مش موافق على أى حاجة من اللى أنا بأعملها ولما طبقنا قانون الاصلاح الزراعية جالى وقال الناس اتخلقت كده وأن ده هو اللى لقيناه ودى هيه الطبيعة وبعدين يروحوا الاقطاعيين يعيطوا له وهو بيستجيب لهم فأنا بقول له مين من دول قبل الثورة كان يزورك..؟ وازاى تتخدع بدموعهم وأنهم بيبحوا مثلا يشتكولك علما بأن احنا لم نأخذ أى اجراءات شديدة مع الفلاحين.

لكن الامر لم يقتصر على اعتراض مثل هذه الاصوات التى حركتها العاطفة الانسانية تلقائيا ضد قانون الاصلاح الزراعى فقد بدأت أصوات ترتفع بانتظام فى مواقع متعددة من البلاد ومن بعض المشايخ فى خطب الجمع بأن الاعتداء على الملكية الخاصة أمر تحرمه الشرائع السماوية وقد رد عبد الناصر على هذا قائلا:

بيقولوا حرام.. طب حرام بالنسبة للشخص اللى عنده الف فدان وحنسيب له منهم مائتين طيب مش حرام بالنسبة للملايين اللى ما عندهمش لقمة العيش؟!.. ماحدش

بيفكر فى دول؟.. بيقولوا ربنا قال ويرزق من يشاء بغير حساب.. يفتكروا الآية دى وما يفتكروش الاية اللى بتقول «وإذا قيل لهم أنفقوا ما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين امنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين».

وبالطبع لم يتوقف هذا التيار لمجرد أن عبد الناصر ألقى خطبى أو خطبتين أنما استمرت الحملة مستغلة ستار الدين ضد القانون.

ثم تضاعفت الحملة بوقوع الصدام بين عبد الناصر والإخوان المسلمين ولسنا بصدد متابعة هذا الخلاف أو الحكم عليه ولكن لا يستطيع أحد أن يقول أن هذا الخلاف كان بسبب الدين أنما الخلاف كان سياسيا من أساسه.. بين تنظيم الإخوان المسلمين وبين سلطة الثورة.

وتفاقم الخلاف إلى النتائج المعروفة وكان استغلال الدين واحدا من أسلحة الهجوم التى استخدمها الإخوان المسلمون ضد عبد الناصر وواجه عبد الناصر هذا الهجوم بكلمة له فى اغسطس ١٩٥٤ قال فيها:

الاستعمار التركى قام تحت الدين والخلافة وكان هذا الشعب المتدين لقمة سائغة يتلاعبون بمصالحه باسم الدين وكانت أسوأ فترة مرت بتاريخ مصر استعمروا مصر ٤ سنة ولم يكن الدين الا المخدر الذى خدروا به هذا الشعب.. كان يتمسك بدينه فيخدعونه باسم الدين..»

ورأى عبد الناصر أن يعقد مؤتمرا لأئمة المساجد فى نوفمبر عام ١٩٥٤ وحملهم مسئولية حماية الدين من الاستغلال وقال:

هل سنترك الإسلام لهذا الخداع والضلال يسيرانه كيف يشاءان؟ وهل هذا فى صالح الدعوة الاسلامية؟ احنا قلنا الملاهى تمنع على من هم أقل من ٢١ سنة قالوا لنا «يقصد الاخوان» ومن تجاوزوا ٢١ سنة.. قلنا لهم طيب كنتم فين أيام فاروق؟ أن المسألة لم تكن الدين المسألة أنهم كانوا يحاولون السيطرة على القوات المسلحة والشرطة.. ونشاطهم فى الخارج فى محاربة هذا النظام تسدل على أنهم فى خدمة الاستعمار والصهيونية.

هم يقولون القرآن دستورنا.. ونحن نخلع الملك ونقضى على الفساد والظلم الاجتماعى ونحقق الجلاء.. فهل فى هذا الذى نعمله خروج على القرآن..؟

ثم كانت قرارات التأميم عام ١٩٦١..

ومرة أخرى عادت القوات المعادية تلجأ إلى استغلال الدين فى هذه المرة كان اتهام عبدالناصر بالسير فى فلك الاتحاد السوفيتى اتباع «ملتهم الاشتراكية» والسير وراء الملحدين ويجد عبد الناصر أن دعامة هذه الحملة بعض من تولوا الامامة فى جوامع القرى.. الذين انساقوا دون دعما منهم لخدمة أهداف الاستعمار.. فوقف فى ٢٣ يوليو ٥١ ليقول.. أن الاسلام أسس الأول دولة اشتراكية فى العالم والنبى محمد عليه الصلاة والسلام كان أول من طبق التأميم عندما قال أن الناس شركاء فى ثلاث: الماء والكلأ والنار وفى رواية أخرى «والملح أيضا» لأن هذه كانت مقومات الثورة تلك الأيام.. وقال أن جميع الديانات تنص على العدالة الاجتماعية .

ثم قال: يمكن بعض الناس.. بعض المشايخ يقوموا يروحوا كل واحد يخبط ديك رومى وألا خروف عند الاقطاعيين ويطلع يدى فتوى أن الملكية حق لا يمكن أن نقربه أو نمسه طبعا هو لا يفكر الا فى الجوز الفراخ اللى خبطهم فى العشوه أو فى الديك الروسى اللى بياخده ويطلع مالى بطنه ده مالوش دعوة ده أجير الرجعية وأجير الاقطاع وأجير الرأسمالية.

وعندما قيل لعبد الناصر بعدها أن مثل هذا القول سيغضب كثيرا من المشايخ أجاب: هل أنا تجاوزت الحقيقة؟ ألم يكن الكثير فى خدمة الاقطاع ويعيشون على سهرات رمضان؟..

ثم هل أنا الذى اخترعت قصة الذى ذهب إلى جاره الشيخ يستفتيه فى أمر حائط تبول عليه كلب فقال تهدم وتبنى سبع مرات فلما قيل له أنه الحائط الذى بيننا قال قليل من الماء يطهرها ..؟ كل فئة فيها الصالح المخلص لعمله وفيها الذى لا يهمه الا نفسه.

وثارت ثورة الكثير من المشايخ لا داخل مصر وحدها وانما خارجها أيضا وبالذات فى سوريا كانت للشيخ «أحمد كفتارو» خطبه الملتهبة ضد الاشتراكية والتأميم واحيانا ضد عبد الناصر نفسه.. وكان أمام عبد الناصر اما أن يمضى قدما واما أن يخضع لهذه الحملات.. وبمعنى آخر أن تكون ثورة أولا تكون.

ولم يكن عبد الناصر يقدم على أى خطوة لها علاقة بالدين دون أن يستشير من يثق فيهم من رجال الدين والعلم وكان يرجع للشيخ الباقورى والشيخ الفحام وكثيرين غيرهما، ربما كان أهمهم المرحوم الشيخ شلتوت شيخ الجامع الأزهر وكانت له معهم كل منهم جلسات طويلة.

ولعل حادثة وقعت كانت سببا فى تعجيل الغاء المحاكم الشرعية كانت هذه المحاكم الشرعية كانت هذه المحاكم بحكم وظيفتها تتدخل فى أدق التفاصيل بين الرجل وزوجته ورجال الدين هم الاخرون بشر وليسوا من الملائكة فيهم الكثير من هم أهل لمهمتهم وفيهم القلة التى تنحرف مع الهوى.

ومن بين الذين انحرفوا مع الهوى اثنان تكشفت وقائع مخزية تسهم فى انحرافهم بعملهم هما القاضيان الشرعيان سيف وفيل.. وثارت ضجة فى المجتمع دفعت إلى الاسراع بالغاء المحام الشرعية.

عودة إلى سارتر

فى لقاء سارتر الطويل مع عبد الناص سأله : هل سيادة الرئيس يعتبر الدين قوة إيجابية أم قوة سلبية.. أم قوة إيجابية وسلبية فى نفس الوقت.

وكان رد جمال عبد ا لناصر: أنا عشان أجاوب على السؤال ده وأنا رجل متدين يعنى باصوم وباصلى كثير أو أنى بأعتبر أن العبادات دى شئ بين العبد وربه.. لكن أعتقد أن ما يخص المجتمع من الدين هو قضية الخير والشر بمعنى أن ده صح.. وده غلط.

فالحقيقة تفسير الدين يعنى هو اللى بيخليه سلبى وهو اللى بيخليه ايجابى يعنى مثلا بيقولها أن الاسلام أباح الزواج من أربعة أنا شخصيا اعتقد أن القرآن ما قلش كده هو سمع اللرجل بالزواج من أربعة إذا أمكنه أن يعدل بينهن وبعد كده قال أن العدل بينهن مستحيل مهما كان الحرص.. أذن هو تحريم غير مباشر لأنه متوقع من الرجل عدم امكانية العدل بين زوجاته.. اللى هو الشرط الاساسى اللى قام عليه السماح بأكثر من زوجة.. وأنا بعتقد أن الاسلام سمح بتعدد الزواج فى ظروف محدودة ولاسباب ضرورية جدا كمخرج من مشاكل اجتماعية..

وعلى مر تاريخ الاسلام كان تفسيره يتفاوت بين السلبية والايجابية فى العهد الاول فى الايام الاولى من الاسلام كان التفسير تقدمياً.. ولما بدأت المسألة تصبح صراعا على الحكم وتبقى ملكيته الاسلام فسر تفسير رجعى لصالح الحاكم لكن الاسلام مثلا فى تطبيقه أم الأرض.. فى الاندلس أمموا الارض وفى العراق أمموا الأرض.. وكانوا بيوزعوا المال على المسلمين كلهم.. ما حدش يأخذ أكثر من الثانى لكن أول ما الاسلام اتقلب إلى ملكية تغيرت المعانى دى كلها بقت طبقة ولكن الاسلام فى الأول ما كانش فيه طبقات وبكل أسف النهاردة الاسلام بيستخدم فى الاتجاه السلبى.. والمسيحية أيضا.

عشيقة عبد الناصر

هذه هى نظرة عبد الناصر إلى دينه.. وعلى أساس هذه النظرة كانت له مواقف قد تكون عند البعض غير مقبولة إذا ما نظر اليها كفرد ولكن مثل هذه التصرفات من موقع المسئولية تدل على بعد النظر العميق.

عندما ظهرت نظرة الروك اندروك فى مصر.. اقيمت مسابقة فى كازينو كان قد أفتتح فى جانب قصر عابدين وقام مصور مجلة التحرير بريبورتاج أخذ فيه صورا فاضحة جدا للفتيات المشتركات فى المسابقة وكان عنف حركات الرقص يكشف عما يجب شده فى اجسادهن ولم ينشر رئيس التحرير هذه الصور وانما بعث بها إلى عبد الناصر.. واقترح اصدار أمر بإيقاف الرقصة وكان رد عبد الناصر أننا لو تدخلنا لاشعنا الرقصة واثرنا الاهتمام حولها.. ثم من هؤلاء المشتركات؟ أنا لا أجد بينهن مصرية فلماذا أثير عن الموضوع دعاية؟

وفى المؤتمر الوطنى الذى عقد لمناقشة مشروع الميثاق .. أثار أحد رجال الدين مناقشة حول ضرورة إصدار قانون يفرض على الناس ارتداء ملابس محتشمة فكان رد عبد الناصر أن هذا تدخل فى الحرية الشخصية وأن البيت هو أساس الدين «واللى ما يقدرش يحكم زوجته وبناته مش حنحكمهم له احنا بقانون».

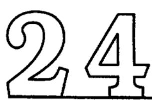
وتحمس آخر وانفعل بصورة لم تكن لائقة وتحمل عبد الناصر انفعاله ورد عليها بالحجة وفى اليوم التالى جئ لعبد الناصر بصورة لابنة المنفعل وهى فى لندن.. ترتدى

ثيابا قصيرة جدا.. وهى تجالس صديقا لها فى احد المحال العامة.. وأستأذنوه فى نشرها فأبى.. وقال أن الرأى لا يجب أن ينحدر إلى مستوى الفضائح.

ولكن غير عبد الناصر انحدروا إلى مستوى آحقر من الفضائح ففى ليلة عقد قران هدى عبد الناصر التقطت صورة له وهو يقبلها، أب سعيد يقبل ابنته ليلة عقد قرانها.

ولكن الصورة عندما نشرت.. أعيد طبعها خارج مصر وجرى توزيعها فى بعض البلدان العربية وتحتها كتبت عبارة «عبد الناصر الملحد يقبل عشيقته».

■ ■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

نفقة للأتراك!!

عبد الناصر وانسب وسيلة لطرد السفير..

لو كنت مكانك لضاق صدرى فعلا..

عبد الناصر ينشر اعلانات فى الاهرام؟!!

كان مجرد قيام ثورة ٢٣ يوليو وطردها للملك فاروق مصدر توتر شديد عند السفير التركى بمصر.. وعندما بلغ هذا التوتر ذروته وقعت حادثة اطارت صوابه.

فقد الغت مصر قرارا قديما كان يقضى بارسال «نفقة» سنوية الى الجيش التركى.

وكانت هذه النفقة ترسل بانتظام وبشكل روتينى، حتى عام ١٩٥٢.. عندما أخذت الثورة علما بها.. والغتها.

وكان السفير التركى رجلا لم يتعود ان تكون مصر الا عزبة للحكومة العثمانية.. حتى بعد زوال الحكومة العثمانية.. وكان متزوجا من احدى اميرات البيت المصرى.. ومن هذا تلونت نظرته الى كل ما يجرى فى مصر بلون المصاهرة الملكية.

وازدادت تعليقاته العلنية حدة بارتفاع درجة تعامل الثورة مع اثار العهد الملكى.. وكان بطبع السفير شئ من العنف والعنجهية يتنافى مع الرقة والاصول الدبلوماسية.. فصبغ معاملاته مع الثورة ورجالها بهذا العنف.. ولما صودرت اموال اسرة محمد على خلط السفير بين صفته كممثلى لدولة صديقة وبين صفته كرجل أضير ماليا بهذه المصادرة.. ثم جاء الغاء تحويل مال الوقف المصرى الى الجيش التركى مناسبة عامة تصلح لاستغلالها استغلالا خاصا..

وحدث فى احدى حفلات دار الاوبرا المصرية.. ان صاح السفير التركى فى وجه جمال عبد الناصر- وكان وقتها نائبا لرئيس الوزراء- انه يرفض ان يضع يده فى يده!!.

وابتسم عبد الناصر فى هدوء.. وتحول بالكلام الى سفير آخر..

وفى اليوم التالى عرض جمال عبد الناصر الامر على مجلس الوزراء.. وكان السؤال الذى اثير هو: هل تحمى الحصانة الدبلوماسية مثل هذا السفير من الطرد؟..

وجاءه الرد.. ان الحصانة معناها ان يحمى السفير فى حدود جميع تصرفاته وأقواله كسفير، وأول واجبات السفير احترامه للدولة ولرئيسها ووزرائها حتى ولو اختلف معها او معهم.. ثم الا يخلط عمله السياسى والدبلوماسى بشئونه الخاصة..

وفى اليوم التالى طرد السفير التركى شر طردة. وفتشت حقائبه فى المطار.. وصودرت العملة الزائدة معه.. ولم يدخر رجال الجمارك المصريون وسعاً ليقولوا له.. «نحن لا نحبك».. بكل الوسائل المختلفة.

وكانت هذه الازمة مفيدة.. فقد رأى جمال عبد الناصر أنها أفهمت هذا الوزير وامثاله ان الدنيا اتغيرت.. ومصر اتغيرت!!

وكان عبد الناصر يدرك بفطرته ان الثورة فى اول امرها تمر بفترة انتقال تحدث فيها اخطاء ونزوات وتصفيات داخلية، ولم يرد لرفاقه ان يمتصوا صدمات هذه المرحلة.. فقررا ان يتولوا مناصب «مديرى مكاتب» للوزراء المدنيين. حتى يفهموا منهم اسرار مهنة الحكم.. ويتعودوا التعامل على اللوائح والقوانين المدنية التى تختلف جذريا عن اصول الضبط والربط العسكرى.

وكانت المعلومات الادارية لدى معظم ضباط القيادة صفر تقريبا.. فلم يشأ عبد الناصر ان يعرضها للاختبار فى الحكم السافر قبل ان يتلقوا التدريب الكافى.. وحدث ان ضاق احد الوزراء ذرعا بتدخل مندوب القيادة، القائمقام يوسف صديق فى شئون وزارته تدخلا لم يقف عند عتبة المشورة أو النصح، بل كاد يرتقى إلى مرتبة التجاهل الكامل لوجود الوزير الدستورى.

وذهب ذلك الوزير يشكو هذا الوضع لاحد زملائه الوزراء

فقال له.

ـ ولماذا لا تحاول أن تقول هذا الكلام لعبد الناصر؟

وكانت هذه اول مرة يرى فيها الوزير جمال عبد الناصر او يسمع بصفته الفعلية كقائد للثورة.

واستمع عبد الناصر للوزير بصبره المعتاد ثم قال:

ـ لو كنت مكانك لضاق صدرى فعلا اذا أخذت المسألة على أنها مشاركة فى السلطات أو المركز.. ولكن لماذا لا تأخذ المسألة على أنها مشاركة فى السعى نحو الصالح العام؟

ان الرجل لا يحاول أكثر من أن يكون يدك اليمنى فى القضاء على ضراوة الفساد الذى استشرى فى كل قطاع من قطاعات البلد وثورتنا لم تنجح بالتطور الدستورى.. ولكنها نجحت بالدبابة والسلاح الذى يعمل له الفساد حساب أكثر مما يعمل اى حساب للمنطق والعقل والقانون.. ولو رأيت يوسف منصور صديق ليلة ٢٣ يوليو وهو يتولى أخطر جزء فى تنفيذ خطة الثورة وهو الهجوم على مركز قيادة الجيش والقبض على لواءات الجيش الملكى وفرقاته وصفوة قياداته. لو رأيته يتولى هذه الاعمال وصدره ينفث دما ولكنه لم يتخل عن مسئوليته رغم معاناته الشديدة.. أقول لو رأيته على هذا الحال، ولولاه.. ما نجحت الثورة ولما كنا جميعا فى مواقعنا، فلربما سامحت شيئا ما فيما يتصور انه ضيم لك ولموقفك فالرجل لا يقصد اكثر من ان يكون سيفك ويدك تهوى به على رأس اخطبوط الفساد.

واقتنع الوزير.. وانصرف وقد وقع عبد الناصر منه موقعا حسنا.. وآل على نفسه ان يتحمل تدخل مندوب القيادة.

وعاش هو وظله الوزير العسكرى «سمنا على عسل» إلى ان حل الصدام بين عبد الناصر ويوسف صديق المشكلة.. إذ رحل الضابط عن الوزارة وتركها لوزيرها.. وترك وزيرها لها..

كان بريد جمال عبد الناصر يحمل كل ما يمكن ان يخطر على البال من رسائل وأفكار وشكاوى وتبليغات وسباب ومحبة وعداوة.

وأنشأت سكرتارية عبد الناصر بتكليف شخصى منه جهازا بشريا يكفى لقراءة كل سطر فى هذا البريد قراءة متأنية.. وتصنيف خطابات الناس وتحليلها وتوجيهها الى الجهات المختصة مع متابعتها متابعة منهجية منظمة..

وكانت تعليمات عبد الناصر صريحة..

أولا: ان يعرض عليه يوميا ملخص لاى خطاب هام أو عاجل أو يحوى فكرة لا معة أو خبرا خطيرا.

ثانيا: ان يرفع إليه كل اسبوع تقرير صريح عن اتجاهات الرأى العام المصرى كما تتجلى فى خطابات الناس مع نماذج لاهم الخطابات اللافتة.

ثالثا: ان يقدم له تقرير اسبوعى آخر يسمى تقرير «الرأى العام المضاد» يسجل صورة صريحة للخطابات المجهولة التوقيع التى كان مرسلوها يأخذون راحتهم فى الهجوم على عبد الناصر والنظام.

وكان جمال عبد الناصر يعلق بخطه على هذه التقارير ويصدر بشأنها التعليمات للوزراء المختصين.. كذلك كان يحدث احيانا ان يصر على تحديد موعد لبعض مرسلى هذه الخطابات، وعلى الرغم مما كان يزخر به وقته من مشغوليات فادحة تجعل بعض كبار المسئولين احيانا يصطفون فى قوائم طويلة من اجل تحديد موعد لمقابلته

وكان بعض مرسلى هذه الخطابات يقدمون انفسهم فى صورة غريبة، كان يرسل احدهم تلميحات الى ان عنده افكارا معينة فى موضوع معين، أو أخبار هامة بشأن قصة محددة ـ ويختم هذا المرسل خطابه قائلا ما معناه:

اذا صادفت هذه التلميحات اهتماما منك يا سيادة الرئيس فأننى مستعد لرواية كل شئ، بشرط ان تنتظرنى سيارة من رئاسة الجمهورية فى يوم كذا الساعة كذا فى المكان الفلانى ـ فاذا وجدتها فى الزمان والمكان المحددين، فأننى مستعد للقدوم إلى أى مكان تحددونه لى . وأن أكتب تحت إشراف معاونيك التفاصيل كاملة.

أو خطابا يقول ما معناه: اذا اثار هذا الملخص فضولك يا سيادة الرئيس، فتفضل بنشر اعلان فى الاهرام فى صيغة كذا يوم كذا ـ وحينئذ فاننى ساكتب لك بتفصيل اكثر..

واعمدة الاجتماعيات فى صحيفة الاهرام فى السنوات ما بين ١٩٥٨، ١٩٦٨ مليئة باعلانات غامضة جدا ذات طابع غير عادى مكونة من سطرين اثنين غالبا، وموقعة بحروف اولى من اسماء مستعارة.. وكانت هذه الاعلانات تنشرها وتدفع اجرها رئاسة الجمهورية عن طريق افراد عاديين لا ينتسبون فى الظاهر الى الرياسة.

وكانت الاهرام احيانا تمتنع عن نشر هذه الاعلانات لغموضها وقد اضطر عبد الناصر ذات مره أن يكلم هيكل فى أمر واحد من هذه الاعلانات ليجيز نشره، دون أن يعرف أحد آخر أن جمال عبد الناصر شخصيا هو دافع الاعلان.

وهنا يمكن ان تروى حادثتين قد لا يصدقهما العقل العادى.. ولكنهما على أية حال معروفتان لاشخاص أحياء يزيد عددهم قليلا على عدد أصابع اليد الواحدة.

الواقعة الأولى: حدث فى يوم من الايام أن كلف عبد الناصر أحد معاونيه بأن يذهب فى سيارة من سيارات رئاسة الجمهورية إلى مكان بجوار مستشفى معين، حدده مرسل أحد الخطابات التى اثارت اهتمامه بشدة.

ويواصل الراوى روايته: كنا قد حددنا رقم لوحة السيارات فى اعلان غامض نشرناه فى جريدة الاهرام. مع بيان الساعة بالضبط التى سننتظره فيها السيارة.

وفى آخر لحظة، وبينما السيارة ذاهبة إلى هذا المواطن المجهول إذ بجمال عبد الناصر يبدى رغبته فى الذهاب بنفسه إليه.

وفعلا.. ركب عبد الناصر السيارة، وخرج من بيته بلا حرس، بل بدون أن يكتب فى الدفتر الخاص بمسيرة عبد الناصر وجهة السيارة.

وذهبت السيارة إلى المكان المحدد. وامتدت يد تفتح باب السيارة.. وركب المواطن وهو مبهور الانفاس لان رياسة الجمهورية اهتمت بأفكاره إلى حد اتباع هذا الاسلوب الغريب.

وإلى أى حد كانت مفاجأة هذا المواطن.. ودرجة السعادة والفزع معا.. وهو يرى جمال عبد الناصر شخصيا فى المقعد الخلفى للسيارة.

أما الواقعة الثانية، فأغرب وأخطر بكثير ففى رسالة من ذلك النوع، بدا أن كاتبها انسان متزن ومثقف وموضوعى ومستوعب تماما للموضوع الذى يكتب فيه، عرض صاحب الرسالة، الذى لم يشأ أن يوقع باسمه، رأيا عاما فى مسألة كانت تشغل الاذهان، وكان، الرأى الذى عرضه على عكس رأى عبد الناصر تماما.. ومدعما باسانيد ومعلومات قوية ومركزة.. الامر الذى أثار اهتمام واحترام عبد الناصر معا..

وقد ختم الكاتب المجهول رسالته بأن لديه تفصيلات أوفى، وأنه مستعد لان يوافى الرئيس اذا لم يكن فى هذا ضياع لوقته، وأنه ـ على كل حال ـ لا يطلب مقابلة الرئيس، وانما فقط يطلب اشعارا بأن عبد الناصر مهتم بمتابعة كل جوانب الموضوع، فاذا كان الامر كذلك، فانه يرجو ان تنشر رئاسة الجمهورية اعلانا فى الاهرام، وكتب نص الاعلان فى رسالته..

وما كان من جمال عبد الناصر الا أن طلب نشر صيغة اعلان على حسابه فى الاهرام يفهم منه صاحب الرسالة ان عبد الناصر يرغب فى مقابلته.

فى مساء نفس اليوم الذى نشر فيه نص الاعلان... وصلت إلى رئاسة الجمهورية برقية باسم عبد الناصر يطلب فيها مرسلها تحديد موعد لمقابلته.. كانت البرقية من صاحب الرسالة وتحمل توقيع دكتور فلان، وكان اسما معروفا فى المجال الذى تخصص فيه..

وقابله عبد الناصر فعلا.. وناقشه فى اعتراضاته على سياسة الدكتور القيسونى المالية، وطلب عبد الناصر منه ان يواجهه بتلك الاعتراضات، ثم طلب منه ان يكتب له عدة تقارير مفصلة حول وجهة نظره..

وبعد قليل. اختاره جمال عبد الناصر وزيرا.. وكانت اعجب طريقة تمت بها اختيار وزير..

غير أن هذه القصة لم تكن اسلوب جمال عبد الناصر فى اكتشاف الرجال والتعرف عليهم.

ففى السنة الثالثة للثورة كان جمال عبد الناصر يزور مجلس الانتاج القومى، وأعجب بمهندس شاب كان فى درجة وظيفية صغيرة.. وكان سبب اعجاب عبد الناصر به أن المهندس الشاب شرح بطريقة موضوعية حافلة بالثقة بالنفس امام جمال عبد الناصر بعض جوانب عمل مجلس الانتاج، ثم جرؤ على ان يخالفه علنا امام جمهور المرافقين، وكانوا من قمة مجلس قيادة الثورة.

وفى الاسبوع الثانى لهذا اللقاء عين جمال عبد الناصر هذا المهندس الصغير وزيرا للصناعة.

كان هـذا المهندس الصغير هو الدكتور عـزيز صدقى الذى كـان قد عـاد لتوه من بعثته الدراسية بأمريكا، وظل يرتقى حتى أصبح رئيسا للوزراء.

وكان جمـال عبـد النـاصـر يعين احيـانا هـذا الوزير أو ذاك.. اذا اسـتـرعى انتبـاهه انه ينتقد الوضع القائم بكثرة لا ليحتويه أو ليضمن سكوته، وانمـا لكى يريد ان القول غيـر الفعل، وأن الانتقاد غير الممارسة وان الذى يده فى الماء ليس كالذى يده فـى النار.. وبعد ان يتضح للوزير الجديد ان شقشقة اللسـان شئ غيـر مكابدة المسئولية، كـان يعفيـه بالمعروف فى اول تعديل وزارى.

ومـا أكثـر مـا كـان يطيـر لب الوزير المعـفى بعـد ان كـان يظـن أنه مـخلد فـى الحكم، فسرعان مـا كان يمطر جمال عبد الناصر بـخطابات من نوع «والله يعلم يا سيادة الرئيس أننى أريد ان أدخل الوزارة لا للوزارة ذاتها ولن لكى أكون جانبك.

وفى أرشيف رئاسة الجمهورية فى مصـر خطابات كثيـرة من هذا النوع.. والعبـارة السـابقة منقولة من رسـالة خطية موقعة من وزير سـابق مـلأ الدنيا فيمـا بعد بأحاديث بطولته فى وجه عبد الناصر!

■■

25

القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

يوليو القاسى!!

فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٦٧ «كانت لحظة من أقسى لحظات حياتى»
كيف كان عبد الناصر يرى الجماهير..؟
أنا بعرف الشعب المصرى.. أحنا عندنا روح التحدى.. ولا يمكن الناس تتأثر من ضرب القنابل.
أخيرا.. أستطيع مغادرة القاهرة.. لقد أتممنا.. اليوم بناء شبكة دفاعنا الجوى على سماء مصر كلها..»
ليس لى حلم شخصى.. ليس لى حياة شخصية... وليس هناك شئ لشخصى..»

في يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٦٧ بعد النكسة بشهر واحد وفى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة «قاعة جمال عبد الناصر فيما بعد ثم قاعة الاحتفالات الكبرى مرة أخرى».

فى يوم كان خطاب هو أقسى ما راجعه فى حياته.

بخطوات ثابتة.. تقدم جمال عبد الناصر من مكانه فى الشرفة الاساسية إلى منصة الخطابة ليواجه الجماهير لاول مرة بعد هزيمة زلزلت كيانه وهزته كما لم يؤثر فيه شئ فى حياته.

كانت آلاف العيون تتابعه فى مشيته الهادئة وملايين العيون على شاشة التليفزيون وأمام الميكرفون وقف جمال عبد الناصر فى صمت طال على غير عادته.. كانت الاضواء القوية سلطة على وجهه من سورى السينما والتليفزيون.. وتمكن الجالسون فى الصفوف الامامية أن يرو تعبيرات عينيه.. كانت تأثره بالغا، وفى عينيه ولمن رآه عن قرب فى هذه اللحظة، دمعة تترقرق فى مقلتيه، وأرادة هائلة تمنعها من اتخاذ مجراها الطبيعى..

ويقول جمال عبد الناصر عن هذه اللحظات بعدها..

ولقد كانت من أقسى لحظات حياتى.. كنت اكبت عواطفى بكل ما استطعت وحين بدأت حديثى أقول «أيها الأخوة المواطنون» كنت أبذل جهدا كبيرا ليخرج صوتى مسموعا وطبيعيا.. ولكن بعد دقائق وجدت فى هذا الشعب الطيب العظيم ما كنت أؤمن دائما أنا فيه..»

فقد كان جمال عبد الناصر مهتماً بلقائه مع الجماهير.. وفى مئات المناسبات حين كانت عيون الملايين تتابعه واقفا وراء الميكروفون بقامته المديدة ممتدا بنفسه واضح

الصوت حاد النبرات فان كلا من هذه الخطابات كان يأخذ منه مجهود بين يومين وثلاثة ايام.

وكان يحدد الموضوعات التى سيتحدث فيها قبل بضعة أيام من القاء خطابه.. وتدون النقاط التى سيتعرض لها فى كلمته ثم ترسل لتكتب على الآلة الكاتبة.. وفى ظهر اليوم المحدد لالقاء خطابه كان يقرأه مرة اخرى ويضيف عليه بقلمه وخطه.

وفى المناسبات الرسمية وحدها وخاصة امام مجلس الامة كان جمال عبد الناصر يتقيد بحرفية الخطاب كما هو مكتوب، حيث تفرض المناسبات والمكان الذى يلقى فيه الخطاب أن يتصف بقدر من الرسمية واستخدام الفصحى فى التعبير.. أما فى غير ذلك فكان النص الذى يكون امامه يقتصر على نقاط مكتوبة تفصل كل منها عن الاخرى مساحات بيضاء لينطلق فى خطابه يتحدث ويشرح بتفصيل الاحداث.. وكان عقله المرتب يساعده على أن يتحدث وأن يطرق فى كل نقطة مدونة أمامه عديدا من النقاط الفرعية.

وكان عبد الناصر يفضل الانطلاق على سجيته فى خطاباته الجماهيرية.. وكان يتفاعل مع الجماهير كتفاعلها معه.. ولكن كان دائما منتبها الى أن يتحدث عن كل فكرة وكل جملة وكل موضوع فى خطابه بلهجة معينة.. وبتعبيرات محسوبة.. مراعاة للدقة فى اعطاء المعانى التى يقصدها بكلماته.

فقد كانت هناك علاقة خاصة بين عبد الناصر والجماهير.. كانت الجماهير بالنسبة له تمثل المثير.. كان يرى فيها من يعمل من أجلهم.. وكانت آماله دوما هى آمالها.. وكان يذكر دائما أن هذه الجماهير وقفت معه فى ساعات الهزيمة كما هتفت من حوله ايام النصر.

وكان التقاء جمال عبد الناصر بالجماهير فى الشوارع يؤثر فيه بأكثر ما يمكن التصور.. كان يعود من كل استقبال شعبى خرجت فيه الالاف لتحيته بنظرة يملؤها الامل والثقة وكان كل من يقابله لحظتها يحس انه قد زود بمنحات انسانية من الاصرار والمثابرة.

ولم يكن عبد الناصر يرى الجماهير والمواطنين والمارة كما يراهم غيره.. كانت له حين يراهم ـ ملاحظات بالغة الاهمية تنبع من زاوية معينة ينظر منها اليهم.. ففى الايام التى اتيح له أن يخرج فيها الى الشوارع سواء فى موكب رسمى أو بغير رسميات وهو جالس فى سيارته بجانب سائقها.. كانت عيناه تتعلق دائما بالمارة.. هل الناس تضحك أم «مغمومة» على حد تعبيره؟.. هل يلبس الاطفال فى الشوارع أحذية أم يسيرون «حفاة»..؟

وحين كان يرجع فى بعض ايام الصيف من اجتماع انتهى فى ساعة متأخرة من الليل ويرى بعض الطلاب فى الميادين العامة يستذكرون دروسهم تحت اعمدة النور فأنه لم يكن يجد منهم منظرا عاديا عابرا.. وانماكان يرى فيهم عائلة كبيرة فى مسكن من حجرة او اثنين وطالب يحاول الاستذكار فيجد فى مشكلات البيت البيتية وضوضائه ما يعطله.

وحين كان يركب القطار إلى الاسكندرية أو أسوان كان يرى ما يسترعى انتباهه وهو عدد المصانع فى كل منطقة يمر بها ومدى تأثير توافر فرص العمل على سكان المنطقة وفلاحيها..

يوم ذهب بالقطار إلى أسوان فى فبراير ١٩٧٠ ليستقبل الرئيس تيتو هناك كان سعيدا ومبتهجا فيومها رأى لاول مرة الاعمدة الحديدة تحمل كابلات كهرباء السد العالى إلى قرى صغيرة فى ريف مصر وصعيدها.. وبدت ملامح وجهه لحظتها تعكس ملامح رجل يعيش حلما يتحقق.

وكان جمال عبد الناصر فخورا بشعبه.. كان يشعر بالعزة لانتمائه له.. وخلال الاشهر التى عمد فيها الطيران الاسرائيلى الى ضرب العمق المصرى والاهداف المصرية المدنية المصرية، كان جمال عبد الناصر يتمزق حزنا.. وكات كلمة «لهم يوم» تخرج من شفتيه تحمل صدى الالم مختلطا برنة الاصرار والحزم وحين كان يقرأ تعليقات صحف الغرب واسرائيل تتوقع «ثورة الجماهير» تحت ضغط القنابل احيانا، وتبدى دهشتها من استمرار الحياة المادية فى احيان اخرى، كان يقول:

«أنا بعرف الشعب المصرى.. أحنا عندنا روح التحدى.. ولا يمكن الناس تتأثر من ضرب القليل».

وفى السنوات الاخيرة التى تلت معارك ١٩٦٧ كانت شئون القوات المسلحة هى التى تستغرق الجزء الاعم من ساعات عمله التى تتراوح ما بين ١٤ إلى ١٨ ساعة يوميا.

كانت التقارير العسكرية لها الاولوية فى قراءاته وكانت مقابلات العسكريين تتصدر قائمة سكرتيره الخاص الذى يكون فى استقبال زوار عبد الناصر وكان التليفون يستخدم عدة مرات يوميا فى الاستفسار عن الدفاع الجوى والطيران والمدرعات والروح المعنوية للجنود بل.. وكان التليفون.. الى جانب التقارير يستخدم فى ابداء الرأى والملاحظات فى عمليات العبور وفى القوات التى ستقوم بها وفى هدفها وتسليحها وقادتها..

وفى اليوم الثانى كان يجرى فيه عبور قوة مصرية الى سيناء لتنفيذ مهمة.

كان جمال عبد الناصر يظل ساهرا طوال الليل حتى تعود القوة.. وكان أول سؤال يباشر به محدثه هو:

ما هى الخسائر؟..

كان حزنه شديدا.. كان يتألم بعمق حين يعرف أن ضابطا أو جنديا يكلف بمهمة أو يتصدى لاغارة تظل أعصاب جمال عبد الناصر مرهفة لكل نبأ ولكل رنة تليفون ولكل برقية تصله وتمدرها كلمة «عاجل جدا» أو «سرى للغاية».

وكان يظل يومه كله حزينا اذا استشهد أحد الطيارين... وإذا فقد طيار... أو شوهد وقد هبط بمظلته، فأنه يظل يتابع عمليات البحث عنه حتى يعرف النتيجة.. ويرفض تأجيل البحث عنه حتى ولو هبط الظلام.

ولم يكن جمال عبد الناصر ينظر إلى الجيش كأسلحة تدخل المعركة.. وانما كان وربما بحكم كونه ضابطاً سابقاً أو بحكم عواطفه الجياشة بطبعها أو بحكم نظراته إلى الفرد أو الانسان كمحور لكل شئ، يحبون ويكرهون يفرحون ويموتون وكان يرى فيهم عائلات مصرية تحزن لفقد عزيز لديها.

ففى ١٢ فبراير عام ١٩٦٩ وبينما حرب الاستنزاف على اشدها تصل المناقشات الحادة فى اللجنة المركزية بعبد الناصر إلى نقطة لا يرى انها تقل جدية واهمية عن كل ما يمكن ان يقال فى الموقف العسكرى فيتحدث عن مشكلات الجندى ا لمصرى فى القوات المسلحة.

إن من أهم أسباب تأثر الروح المعنوية لجنودنا هو الفقر، كل عسكرى عنده مشكلة نتيجة الفقر.. هذا هو مجتمعنا.. حين ذهبت إلى الجبهة سألت من عنده مشكلة؟.. فلم يرض احد أن يقول شيئا.. فأخترت جنديا وقلت له: أنت لديك مشكلة.. ما هى؟ فقالها لى.. كل الجنود بعد ذلك تكلموا وكان لكل منهم مشكلة هناك من ترك ولده مريضا ولا يعرف ماذا يفعل له.. هناك من ترك امه وحيدة ولا أحد يجرى عليها.. وقد أخذت مشاكلهم لاحلها..

نحن مجتمع فقير فماذا يفعل العسكرى الفلاح أو الجندى المصرى إذ شعر بأن هناك اهتماما به فسوف يخرج ليموت ويضحى بحياته ضد العدو بلا تردد... أنهم اناس طيبون.. فلاحون من بلدنا.. أن كلامنا لهم لا يحل شيئا وحده.. الخطب والشعارات بدون عمل ستؤدى لنتيجة عكسية.. فلو تحدثنا ولم تعمل ستبدأ تعليقاتهم عند الخطبة، لأنهم بسطاء ولكن أذكياء.

ويخطئ من يظن ان جهد جمال عبد الناصر فى اعادة بناء القوات المسلحة تسليحا وتدريبا وتنظيما كان جهد القائد الاعلى لقد أعطى ـ منذ النكسة ـ كل أيامه للجيش، كان يسمع ويفكر ويمارس ـ بالفعل ـ دور القائد الاعلى للقوات المسلحة ولقد كان هو على سبيل المثال الذى وضع خطة عمل نظام الدفاع الجوى ـ وهى الخطة التى وقف عندها العسكريون الاسرائيليون طويلا وتناولوها فى صحفهم بالتحليل ـ قبل وقف اطلاق النار فى أغسطس عام ١٩٧٠ وقد وضع الخطة فى اجتماع له بقادة سرايا الدفاع الجوى وكانت هى الخطة التى اثارت الدنيا حين اسقطت اجهزة الدفاع الجوى حينئذ ١١ طائرة فانتوم وسكاى هوك خلال الشهر السابق مباشرة على وقف اطلاق النار.

كان عبد الناصر طول يومه شعلة من الحركة والحيوية والحياة، كان منتبها يقظا ـ يحارب ويقود.. سريع الاستجابة لكل حركة وفعل.. ولم يكن شئ يعادل فرحته يوم أن قرر أنه يستطيع اخيرا أن يغادر القاهرة إلى مرسى مطروح ليقابل القذافى هناك ولا يكون عليه فى كل ساعة ان يرفع سماعة التليفون ليتابع حدثا خطيرا كان يجرى.. فيومها قال وبريق يشع من عينيه: «أخيرا.. أستطيع مغادرة القاهرة.. لقد اتممنا اليوم بناء شبكة دفاعنا الجوى على سماء مصر كلها..».

وكان عداء جمال عبد الناصر للاستعمار راسخا.. وظلت كراهيته لكل ألوان الاستعمار عاملا بارزا فى التأثير عليه.. وكان حديثه عن سياسات الولايات المتحدة الامريكية يعكس دائما طبيعة علاقة تزيد كثيرا عن مجرد التحدى وكان كثير الشك فى كل تحرك لدولة استعمارية كان يفكر طويلا بعمق فيما وراء كل تصرف تأتيه... كان يشعر تماما أنه يخوض مع الاستعمار معركة بقاء.. إما الاستعمار وأما هو.. إما الاستعمار اياكان شكله واما مصر والمنطقة العربية المتحررة.

وعبر جمال عبد الناصر عن نظرته للسياسة الامريكية فقال لكبير مراسلى مجلة «لوك» الامريكية فى حديث له فى ١٤ يونيو عام ١٩٥٧.

انا فى مفترق الطرق فى علاقتنا مع الغرب الآن، واننى اقترحت ان تحاولوا انتم معشر الأمريكيين الحصول على معلومات صحيحة عن هذا الجزء من العالم، لا تكونوا سطحيين ان من صالحكم ان تفهموا طبيعة الشرق الاوسط.

هل تثق فى شخص يتعقبك والمسدس فى يده. لقد هوجمنا من حلفائكم وهددنا دالاس وأنا اتابع الطريقة التى تهاجمنا بها الصحف الامريكية وفى رأيى أنكم تجعلون من الصعب على أن اثق بكم.

وقد تميز جمال عبد الناصر بأنه كان يصل إلى القمة فى عمله كسياسى ورجل دولة حين يشعر بالتحدى. كان التحدى يشحذه على مضاعفة الجهد بل كان الشعور بالتحدى هو المناخ الافضل من وجهة نظره وهل يعمل وكان يقول:

«أنا احسن وأنا باشتغل انى احس بالتحدى.. اذا شعرت بالتحدى فاننى أعمل بطاقة مضاعفة وبذهن متنبه ولا أشعر بالساعات المتعاقبة فى العمل..»

غير أن جمال عبد الناصر لم تكن ايامه كلها سعادة.. ولهذا.. ربما.. أو للرقة الفائقة فى مشاعره، كان يجب أن يرى كل من حوله سعداء يبذل قدر طاقته واستطاعته لاسعادهم.

أما هو.. فقد مضت به السنون عبر رحلة طويلة مع المرض سجلت ملحمة الالم الذى قلما بدا عليه.. وأبدا منه لم يشك.. كانت أيامه جهدا خارقا استنزاف قواه كلها فى سن مبكرة.

ويوما.. قال لمن يتمشى معه فى حديقة منزله:

«أتدرى اننى الا أخرج (مشيرا إلى اتصال عمله ليل نهار وعدم الخروج) الا حين اذهب لرئاسة مجلس الوزراء؟!

وكان الاطباء قد منعوه فى السنوات الاخيرة ـ وبعد ١٩٦٧ خاصة من كل ما كان قد تبقى له ليروح به عن نفسه.. رياضة التنس وتنس الطاولة والسباحة فى الصيف.. بل وعلى حد تعبيره يوما «حتى المشى منعونى فى الآخر منه؟!

وقد سأله سالزبرجر رئيس تحرير نيويورك تايمز فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٦٩:

ـ إنك لم تدخل بعد مرحلة الشيخوخة (٥١ سنة) فما هو حلمك الشخصى خلال السنوات الخمس والعشرين القادمة؟ هل هناك خارج نطاق حياتك السياسيةـ ما تود لو انه تحقق فى هذا الوقت؟

أجاب عبد الناصر: ليس لى حلم شخصى، ليس لى حياة شخصية وليس هناك شئ لشخصى، قد لا يصدق الكثيرون ذلك، لكن هذه هى الحقيقة.

لكنه كان فى سباق مع الزمن.. يريد ان ينجز الكثير من آماله التى اتسعت بقدر آمال امته.

وكان كثير النظر فى ساعته..

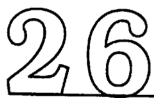
ولم يعش بعد هذا الحديث أكثر من تسعة عشر شهر.. كان شغله من الحياة.. يزداد وميضها يوما بعد يوم..

فتسرع بالاحتراق..

رجل انشأ للملايين حياتهم بالامل والعمل.. وكانت ذاته وقودا..

رجل عاش لامته واستشهد فى سبيلها.

■ ■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

اليوم الأخير..
فى حياة عبد الناصر

لم يقل أحد ما هو هذا النبأ الذى كان يتوقعه..
حينما قال جمال عبد الناصر
الحمد لله.. دلوقتى بس أنا ارتحت
حكاية جمال عبد الناصر مع المرض ملحمة عاشها ١٢ عاما..!!

خلال الايام العشرة الاخيرة قبل اليوم الحزين.. كان عبد الناصر ومعاونوه الذين يعرفون حالته الصحية فى قلق.. وكان أطباؤه حيارى..

كان هؤلاء أولئك يطلبون منه تخفيف جهده حتى القسط المطلوب من الراحة خوفا على صحته وحتى لا تحدث أيضا مضاعفات له لكنه كان يرفض.. وكان يقول لهم:

أن هناك فى الاردن رجالا ونساء واطفالا يموتون كل لحظة.. نحن فى سباق مع الموت.. أريد أن اخلى مسئوليتى أمام التاريخ.. ثم ليطمئن قلبى..

وقد كان...

كان قد غادر الهيلتون بعد العاشرة مساء يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٩٧٠.. وقال: «أنه بعد انتهاء الاجتماعات لا يكون هناك داع لوجوده ولذا فهو يرغب فى العودة إلى البيت لان الاولاد وحشونى».

استيقظ فى هذا الصباح ٢٨ سبتمبر بعد ليلة قضاها مع الاولاد.. بدأ نشاطه فى وقت مبكر قرأ أهم التقارير ومنها تقرير عن ميشارة البيئة العربية التى شكلها الملوك والرؤساء برئاسة الباهى الادغم لتشرف على اتفاق القاهرة، ولجنة المراقبين العسكريين التى يرأسها الضابط المصرى العميد احمد عبد الحميد وأهم ما جاء فى الصحف المحلية والعربية العالمية..

وفى الثامنة والنصف صباحا غادر جمال عبد الناصر بيته بعد أن اجرى عدة اتصالات تليفونية متوجها الى مطار القاهرة لتوديع الرؤساء العائدين الى بلادهم.

وبعد منتصف النهار عاد الى بيته ثم اجرى اتصالا تليفونيا فى الثانية عشرة والنصف مع محمد حسنين هيكل.

خلاله قال عبد الناصر:

اننى اشعر بتعب شديد ولا أحس أننى قادر على الوقوف على قدمى.

ورد هيكل الذى يعلم بحقيقة المرض:

أنه الوقت قد حان لاجازة

ضحك عبد الناصر ليقول فى بساطة:

سوف أضع قدمى فى ماء ساخن به ملح وسوف أشعر براحة بعدها..

لكن هيكل يعود الى طرح مسألة الاجازة..

أن الجهد كان كبيرا، ومازال الرئيس فى حالة الى اجازة.. اننى اقترح أن تقضى بضعة ايام في الاسكندرية.

ويقول عبد الناصر الانسان:

بعد قليل سأذهب فى وداع أمير الكويت وأعود بعدها لانام.. أننى اريد ان انام نوما طويلا.. لن أستطيع أن أستريح فى الأسكندرية.. أريد يوما أو يومين من النوم هنا.. وبعدها نفكر فى الذهاب إلى الإسكندرية..

وذهب عبد الناصر العظيم.. الانسان والزعيم الى المطار ليودع أمير دولة الكويت.

وعندما مال عليه ليقبله مودعا، شعر بتعب، وعندما صعد الامير الى طائرته ووقف عبد الناصر ملوحا فى انتظار تحرك الطائرة شعر بألم فى صدره ثم ما لبث أن تصبب العرق بغزارة وهنا التفت الى سكرتيره الخاص محمد أحمد طلبا ان تجئ سيارته إلى حيث يقف لأنه يشعر بتعب مفاجئ وكان هذا على غير العادة.. كان يسير إلى السيارة ملوحا للجماهير التى تكون فى انتظاره..

وعندما وصل جمال عبد الناصر إلى البيت كانت الاسرة مكتملة على موعد الغداء معه كما سبق أن قالت له السيدة الجليلة قرينته فى الصباح..

كانت الاسرة فى الانتظار.. غير أن افرادها جميعا احسوا انه متعب لكنه تحامل على نفسه ووقف وسطهم دقيقة تتحدث فيها مخفيا المه مع حفيديه الصغيرين «هالة» و«جمال»

ثم توجه إلى غرفة نومه حيث لحقت به السيدة الجليلة قرينته تسأله: متى تريد فى الغداء؟

فقال لها:

لا أستطيع أن أضع شيئا فى فمى

ثم خلع ملابسه.. وارتدى بجامة بيضاء مخططة زرقاء ودخل إلى سريره.

وأتى الدكتور الصاوى حبيب ليبدأ فحصه الطبى.. وليشد ما كان وجله عندما اتضح له أن هناك «جلطة فى الشريان الامامى للقلب».

وحتى يتيقن الطبيب وليشرك معه آخرين طلب استدعاء الدكتور منصور فايز..

ثم جاء الدكتور رفاعى كامل..

وجاء ايضا الدكتور زكى الرملى..

كما جاء الدكتور طه عبد العزيز..

وجرت عمليات اسعاف مستخدمة جهاز تنظيم ضربات القلب.. وسط القلق المشحون بالتوتر.. تحسنت صحته قليلا.. وتحدث مع الاطباء..

قالوا له أن من الضرورى أن يبدأ وعلى الفور أجازة يستريح فيها من كل شئ..

ـ كنت أريد أن أذهب إلى الجبهة لأطمئن على أولادى قبل الاجازة.. فهل استطيع ان اذهب اليهم واراهم قبل أى أجازة.

إن كل الوزراء اليوم فى الجبهة.. لقد طلبت اليهم أن يذهبوا إلى هناك، وأن يعيشوا يومين مع الجنود والضباط... يجب أن يعرفوا أو يعرف كل مسئول حقيقة ما يقوم به الجيش فى الجبهة.

هكذا كانت كلمات جمال عبد الناصر.. ووصيته الاخيرة.. بضرورة التقدير الحقيقى للمسئولية تجاه جبهة القتال.

وجاءت الساعة الخامسة.. وهم عبد الناصر مع من فراشه يفتح الراديو المجاور له ليسمع نشرة أخبار الخامسة.. ثم أغلقه بعد قراءة الموجز وهو يقول أنه لم يسمع النبأ الذى كان يتوقعه.

ولم يقل ما هو هذا النبأ الذى كان يتوقعه!!

ولم يعرف أحد حتى الآن..!!

وقال الدكتور الصاوى راجيا:

ألا تستريح سيادتك انك فتحت جهاز الراديو واغلقته..

ولا داعى لبذل أى مجهود؟

فقال عبد الناصر دون أن يعلم الموجودين أن هذه آخر جملة ينطق بها:

لا يساوى.. الحمد لله.. دلوقت بس أنا ارتحت..

ورد الصاوى:

الحمد لله يا أفندم..

لكنه قبل أن يكمل كلامه فزع للمشهد الذى رآه على وجه جمال عبد الناصر العظيم..

كان يضع يدع على صورة.. فتراخت لتسقط بجانبه.. ثم راح فى غيبوبة عميقة..

تلبدت الغرفة من جديد بالكآبة.. الأطباء يبذلون كل ما لديهم من جهد ويعطون كل ما يعرفونه من علم.

والآخرون.. أصدقاء جمال عبد الناصر ومعاونوه الذين هرعوا وقفوا حيارى، يبكون فى صمت يبتهلون، يدعون الله.. يعتصرهم الالم..

كان فى الغرفة.. أنور السادات وحسين الشافعى وعلى صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف ومحمد أحمد ومحمد حسنين هيكل.

ثم جاء الفريق أول محمد فوزى فى اللحظة التى كان الطب فيها يعلن النبأ المروع على لسان أحد الأطباء.

إن كل شئ قد انتهى..

كان قضاء الله قد نفذ.

وقاطعه محمد فوزى بحدة ملتاعة:

لا .. لا .. واصلوا جهدكم..

ولكن.. قضى الأمر..

انفجرت الدموع من العيون.. وارتفع البكاء والنحيب ودخلت السيدة الجليلة قرينة عبد الناصر التى كانت خارج الغرفة.. حيرة.. قلقة.

دخلت السيدة الجليلة وسط الجو المشحون بالجلال والحزن.. وأمسكت بيده تقبلها وتناديه.. بينما الآخرون يبكون.. وعندما سمعت أحدهم يقول من خلال الدموع الريس.

التفتت تقول:

لا تقولوا الريس.. قولوا أنه جمال عبد الناصر وكفى.. سيبقى بالنسبة لى وللناس كلهم جمال عبد الناصر..

ثم انحنت عليه.. تقبل يده مرة اخرى وهى تقول:

لم يكن لى فى الدنيا سواه.. ولا أريد فى الدنيا غيره.. ولا طلب شيئا إلا أن أذهب إلى جواره حيث يكون..

ثم.. بالالم كله.. بالحزن كله.. باللوعة كلها التى غطت غرفة نوم جمال عبد الناصر بالطابق الثانى فى منزله بمنشية البكرى.. اتجهت السيدة الجليلة قرينته الى محمد حسينين هيكل:

قل لى أنت.. رد على.. ألن أسمع صوته بعد الآن..؟!!

وفى هذه اللحظة اقترب أحد الأطباء من الفراش يغطى وجه البطل.. فقالت له السيدة الجليلة..

اتركوه لى.. أنظر إليه.. أملأ عينى به..

واستدار كل من على الغرفة خارجين.. تاركين للسيدة الجليلة جلال اللحظة الاخيرة.. وحده معه.

واستداروا واتجهوا إلى غرفة الصالون المجاورة لشرفة النوم حيث تقرر:

١ـ اعلان حالة الطوارئ القصوى فى الجبهة

٢ـ دعوة الوزراء الموجودين فى الجبهة بطائرة خاصة

٣ـ عقد اجتماع فوري مشترك بين اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى العربى ومجلس الوزراء فى قصر القبة.

كما تقرر..

نقل جثمان الزعيم إلى قصر القبة.. باعتباره المقر الرسمى للرئاسة..

وعندما جاءت سيارة الاسعاف الخاصة برئاسة الجمهورية لنقل جثمان البطل.. قالت السيدة الجليلة..

حتى بعد أن مات.. أخذوه منى ـ لم يتركوه لى.. وسقط الحزن على وجه مصر..

سقط الزعيم شهيدا

غير أن فقراء مصر لم يصدقوا أنه مات

لا.. ليس هو الذى مات.. وهل يموت النهر؟

هل يموت الريح..؟

فهذا الطراز العظيم من الرجال الثوار لا يموت.. ولم يمت أحد من العظماء فى التاريخ..

إن حكاية جمال عبد الناصر مع المرض تستحق أن تكون ملحمة تتواتر خلالها القصص عن الانسان وكيف يصنع مصيره.. وكيف يستعين بكل شئ فى سبيل مثله العليا ومبادئه.. حتى لو أضطر أن يمشى.. وصولا لتحقيق مبادئه.. فى طريق مفروش بالالم وأعصابه المعذبة.

إن جمال عبد الناصر لم يكن مريضا مطيعا للاطباء.. لو كان إنساناً عاديا.. ربما أطاعهم.

لو كان مجرد رئيس للجمهورية.. ربما أطاعهم لكنه كان ثائرا.. مناضلا.. زعيما لامة تضم مليون عربى وكان كل واحد من هذه الملايين المائة يتطلع إليه.. يريده أن يحل مشكلته... يريد أن يسمع رأيه فى كل موقف.. والحياة.. كل يوم.. زاخرة بعشرات المواقف!

وكان هو بأصالة المسئولية.. متحملا القدرة الذى هو قدر مصر.

لقد بدأ حكايته مع المرض منذ عام ١٩٥٨ وسط الاحداث الكبيرة التى شهد بدايتها

أو نهايتها وذلك العام ومنها على سبيل المثال.

دراسة نتائج حرب السويس وتأثيراتها على الاوضاع المختلفة مصريا وعربيا ودوليا..

نهاية المؤامرة على سوريا التى كانت مهددة بغزو عسكرى من الحدود التركية سنة ١٩٥٨.

بداية الوحدة مع سوريا أول وحدة عربية فى التاريخ الحديث وما صاحب ذلك من مشكلات على المستويين العربى والدولى.

الحرب مع حلف بغداد وفصولها المثيرة التى أنتهت بسقوط الحلف.

قيام ثورة العراق واستنادها على مصر وعبد الناصر بالذات لتأييدها وصد أى هجوم عليها..

ومشاكل أخرى.

ولقد كانت كل التفاصيل لديه.. ولقد كان هو بحكم المسئولية يدرس كل شئ مهما كان ضئيلا ولقد كان الاخرون فى العالم العربى لا يستريحون إلا إذا سمعوا رأيه هو..

كانت فترة حافلة قلقة معذبة تحتاج لاعصاب أقوى من الفولاذ.. ولقد كان يدرس كل أمر بعقله ووجدانه..

ومن ثم فلم يمكن مفاجأة لدى الأطباء وهم يعرفون طبيعة علم ومشاغله أن يكشفوا إصابته بمرض السكر..

وبعد اجراء الفحوص اللازمة قالوا:

إن المرض لا يمكن السيطرة عليه ولابد من السيطرة عليه وذلك بمقتضى ضبط ثلاثة عناصر رئيسية فى طريقة حياته

ضبط الطعام

ضبط المجهود

ضبط الانفعالات

وسمع هو منهم.. وقرأ تقريرهم.. ووافق على العنصر الأول الخاص بضبط الطعام ومن بين ما قاله أن هذا ممكن «بشرط واحد هو أن لا يمتد المنع إلى الجبنة البيضاء».

ذلك أنه كان يحب الجبنة البيضاء ولا يتناول غيرها فى عشائه.

أما عن المجهود والانفعالات فقد قال:

كيف لى أن اسيطر على المجهود والانفعالات هذه هى كل حياتى كلها..

حقا كانت تلك حياته كلها..

لانه كان ثائرا.. فلقد كان يبذل أقصى الجهد..

ولانه كان انسانا. فلقد كان ينفعل بالالم والامل..

ولانه كان يفعل ذلك بغير حدود.. وأن مرض السكر ظل يلازمه.. بل تضاعف.. وتضاعف.. خصوصا وأن السنوات التى صاحبت هذا المرض كانت أكثر عنفا يكفى انه حدثت خلالها مؤامرة إنفصال سوريا .. ثورة اليمن.. وحربها التى اشتركت فيها مصر بكل الجهد.. بدماء الاف من شبابها.. بالمال.. بالصراعات..

بمقاومة وتحمل كل الضغوط.. ثم حدث معارك يونيو ١٩٦٧ الوحشية بكل ما فيها ولا يحتاج ذلك إلى بيان.

وفى ١٣ يوليو ١٩٦٧ عندما أجرى الأطباء عليه كشفاً طبياً أحسوا بالخطر الداهم.

كانت مضاعفات السكر قد أحدثت تأثيرا فى شريان القدم اليمنى وكانت هناك فى أعصاب الساقين مسببات لالام شديدة.

لكنه وهو المناضل الثائر المسئول لم يكن على حد قول محمد حسنين هيكل مستعد لأن يسمع من أحد فقد كان جهده كله فى عميات عادة بناء القوات المسلحة وفى عملية ترتيب الجبهة الداخلية والجبهة العربية كان يمشى فى طريقه وكان يدوس على كل الآلام.

ومضى الجهد برغم الالام موفقا ومضى عام ..

وفى يوليو ١٩٦٨ سافر إلى موسكو حيث أجرى كشفا كاملا فى برميخا وكان معه أنور السادات واتضح أن جمال فى حاجة إلى علاج شرايين الساق من أثر مضاعفات السكر.

ومن بين ما قرره الأطباء يوميا أن يقلع عن تدخين السجائر وبالفعل أطفأ آخر سيجارة أمامهم ولقد كانت السجائر كما يعرف المقربون منه.. هى الترف الوحيد فى حياته.

وعاد إلى القاهرة يستأنف عمله الذى كان يستغرق ما بين ١٥، ١٨ ساعة يوميا.

ومضى التقدم برغم كل شئ..

ومضى عام..

وفى ربيع ١٩٦٩ كان مقررا أن يسافر إلى موسكو للعلاج.. ولكن هذه الفترة شهدت معارك المدفعية الكبيرة التى سقط فيها الفريق عبد المنعم رياض شهيدا.. والتى استطاع فيها الجيش المصرى تحطيم ٦٠٪ من خطها برليف الذى اقامه الاسرائيليون ليكون حسناً على الشاطئ الشرقى للقناة..

فى ذلك الوقت قال له الحريصون على صحته أن يسافر لاستكمال العلاج.. ورد عليهم:

لا أستطيع أن أترك اولادنا هنا يموتون وأذهب أنا للعلاج فى تسخا لطوبوا..

وتسخا لطوبو هى المستشفى التى قضى فيها عدة أيام سنة ١٩٦٨..

وهكذا لم يستطع السفر وقرر تأجيل ذلك إلى ما بعد..

وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٧٩ كان مقررا أن يسافر بعد أيام لكن عندما أجرى عليه طبيبه الخاص صاوى حبيب كشفا طبيا تبين له أنه مصاب بجلطة فى القلب.

ومن ثم تقرر أن يبقى فى الفراش ثلاثة اسابيع.. وقيل تبريرا لغيابه أنه مصاب بالانفلونزا.. وذلك حرصا على أشياء كثيرة وقتها..

واستدعى الدكتور شازوف وزير الصحة السوفيتى وأكبر خبراء القلب فى الاتحاد السوفيتى فجاء على رأس فريق من الخبراء واجروا فحوصا شاملة له.. وكانت النتيجة تأييدا للنتيجة التى خرج بها الاطباء المصريون.

وعندما سأل شازوف هل يستطيع السفر إلى تسخا لطوبو لاستكمال العلاج الطبيعى الخاص بتصلب الشرايين قال الطبيب لعبد الناصر:

سيدى لم تعد تستطيع أن نجئ تسخا لطوبوا لان القلب لا يتحمل العلاج بالماء الطبيعى الا بعد مرور ٥ سنوات على الاقل.

وهكذا..

كان عليه أن يتحمل آلام القلب..

وكان علينا أيضا تحمل آلام التهاب الشرايين..

وكان عليه كذلك بحكم أصالة المسئولية

وبقدره الذى هو قدر مصر أن لا يغيب عن ممارسة عمله.

جاءت الدورة الجديدة لمجلس الأمة.

وجاء مؤتمر القمة العربى فى الرباط..

وجاءت زيارته الاولى لليبيا.. ثم للسودان وفى هذه الزيارات كان عليه أن يظل واقفا فى المواكب والمؤتمرات ساعات طويلة كانت الجماهير ملهوفة عليه..

ولكن هو بالارادة يضغط على الأمة.. غير عابئ لتوسلات أصدقائه ومعاونيه وأطبائه.

كان ثائرا لا يخشى المخاطر..

وكان زعيما.. يتحمل المسئولية..

وعاد إلى القاهرة..

وبدأت المرحلة الجادة فى الصراع المسلح.

بدأت غارات العمق ضد المدنيين فى مصر.. ولم يهدأ البطل ثم قرر السفر إلى موسكو.

وذكر أطباؤه.. أن السفر مشقة.. وهم يعرفون أنه عندما يسافر يعمل ليل ونهار بغير كلل.. إن سفرياته ليست نزهة.. لكنها رحلة عمل مضنية ورجوه ألا يفعل.

وقال لهم.. وآمال مصر كلها بين يديه..

إن الطب لا يستطيع أن يفعل شيئا أمام الموت.. هناك ناس يموتون كل يوم وبينهم ابطال.. ليس هناك طب يستطيع أن يعطينى أجازة في مثل هذه الظروف.

وسافر إلى موسكو..

وجاء ليطير إلى اسوان حيث التقى بالزعيم اليوغسلافى الراحل تيتو.

وانتهز اصداقاؤه الفرصة طالبوا منه أن يبقى عدة أيام فى أسوان للراحة.. لكن وهذا بمشيئة الله توفى عمه خليل حسين فسافر من أسوان إلى الاسكندرية ليشترك فى تشييع الجنازة ويتقبل العزاء.

فى ذلك الوقت توقفت بفعل القوة المصرية غارات العمق وجاءت الفرصة ليطلبوا منه أن يستريح..

لكن مسألة أخرى حيوية شغلته وهى تنظيم الجبهة الشرقية العسكرية وسافر إلى ليبيا ليحضر مؤتمر طرابلس.

وبعد عودته من ليبيا بيومين سافر إلى موسكو لمباحثات هامة.. وقتها فحصه الدكتور شازوف الذى قال لعبد الناصر:

إننى أفزع حينما أتابع برنامج عملك وزيارتك.

ونتيجة لهذه الفحوص الطبية طلبوا منه أن يبقى شهرا للعلاج فى مصحة برميخا.. لكنه على مضض وافق على أن يبقى اسبوعين فقط وذلك حتى يعود ليحضر جلسات المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى.

عاد فى ٢٠ يوليو..

وحضر الجلسات فى ٢٣ يوليو.. بذل فيها جهدا كبيرا وظل ساعات طويلة يتحدث عن قبول المبادرة الامريكية ويناقش الاعضاء.

وعندما انتهى المؤتمر أحس بالالام تضغط عليه، آلام القلب وآلام التهاب الشرايين.

لكن لم يكن يستطيع أن يستريح.. ذلك أن المبادرة الأمريكية أحدثت ردود فعل مدوية فى العالم.. وفى البلاد العربية وحدثت مشاكل ومعارك.

وكان عليه هو وهو وحده أن يوجه هذا كله ثم هدأ الموقف قليلا.. وتحت الالحاح قبل أن يسافر إلى مرسى مطروح لاجازة مدتها سبعة أيام..

لكن..

وبالمشيئة الاقدار..

حدثت أزمة الاردن الرهيبة..

ولم يكن يستطيع بحكم مسئوليته وقدره أن يبتعد عنها بل إن المقاومة استغاثت به.

ووجد نفسه غارقا فى الأزمة لحلها.

وعاد إلى القاهرة لمؤتمرها..

ونجح جهده

وفى آخر يوم لمهمته وبعد أن ودع آخر ضيف فى القاهرة عاد إلى بيته يلتقى بأسرته كلها..

ثم يقول الحمد لله..

وترتسم الراحة على وجهه..

وتصعد روحه إلى السماء..

ويذاع نبأ الفجيعة.

وتهتز له الدنيا من أقصاها إلى أقصاها..

وتنتاب مصر لحظة غيبوبة مذهلة..

هل مات جمال عبد الناصر حقا؟!!!

■■

مات حبيب الفقراء..

حينما سمع النبأ أرتفعت الصيحات.. لا.. لا.. لا وانتاب انسان مصر لحظة غيبوبة مذهلة..

27

القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

يا جمال يا نور العين..
سايب مصر ورايح فين..؟!

• يتقاسم الشعب الحزن من بعدك يا جمال.. كما يتقاسم الفقراء الرغيف..

• الشعب فى موت جمال عبد الناصر ظلت صورته فى هذا اللقاء تتماثل أمام عينى.. بينما جثمانه خلفى فى الطائرة. *(مقاتل طيار نبيل)*

• يوم ما قالوا لى تعالى اكتب على ضريح جمال عبد الناصر خفت، اعصابى انهارت.. أصل أنا طول عمرى أكتب اسمه على حاجات بتتبنى.. مصانع.. مدارس.. شوارع جديدة.

الخطاط الشيخ

حسن خالد

مات جمال عبدالناصر

والإنسان المصرى.. عاش معه اياماً خالدة.. ذاق معه حلاوة الانتصار.. وعرق النضال.. وشرف العمل الجاد..

رأى معه شباب هذا الجيل المستحيل يتحقق.. والاحلام تتجسد.. والامل يملأ القلوب بتحقيق المزيد من الاحلام..

ففى كل شبر من أرض مصر.. عمل أقامه جمال..

وفى كل قلب.. إيمان خلقه جمال..

وفى كل فكر.. مبادئ وضعها جمال..

وفى داخل كل شاب ثورة وتمرد بذرها القائد.. والمناضل.. والمعلم جمال عبد الناصر.

تطوف العيون وترى من خلال الدموع الغزيرة.. فى هذه الطرقات مشينا وهنا وقفنا وهتفنا له وانتظرناه واطلت علينا ابتسامته وارتفعت يد محبيه فى هذه الطرقات.. كنا نجرى ونلهث ونقطع انفاسنا ويضيع صوتنا من شدة الصراخ بالنداء الحبيب المحبوب.. ناصر.. ناصر. ناصر.

والآن..

هبط الموت على مصر.. وهبط الحزن على الشعب.. فقد مات جمال عبد الناصر.. مات الأب والانسان والمعلم.

تجسد سواد العيون.. وامتلأت افواهنا بالملح من عدة الحزن.

حزنا عاما۔ شاملا۔ وقوميا.

تقاسم الشعب الحزن.. كما يتقاسم الفقراء الرغيف فقد كان الحزن أكبر من أن يتحمله مصرى بمفرده.. ولابد أن يحمله شعب بأكمله.

توقف قلب مصر.. حين توقف قلب جمال عبد الناصر.. أين الشعب.. وصاحب الدعوة العنيدة لحرية الوطن.. وكرامة المواطن.

ومرة أخرى جمعنا جمال عبد الناصر.. الاب والانسان على الحزن.. كما كان يجمعنا حول اهدافه ومعاركه حول خطبه وقراراته..

وكيف لا يجتمع الشعب على الحزن العميق وقد دخل جمال عبد الاصر حياتنا وقلوبنا وعقولنا.

كان حاضرا دائما.

ثابتا دائما..

شجاعا دائما.

واليوم.. يتقاسم الشعب الحزن من بعدك يا جمال.. كما يتقاسم الفقراء الرغيف..

ولا يمكن أن يكتمل حديثنا عن جمال عبد الناصر دون أن يتضمن صورة لقطات صغيرة من واقع مذهل.. عما فعله وعبر عنه وقاله «أفراد الشعب» يوم مات جمال عبد الناصر تعبيرا عن حزن الشعب النبيل.. وتأكيدا لمقولته الدائمة لشعبه «إن هذه الأمة وهذه الأرض لن تموت».

يا جمال يا نور العين.. سايب مصر ورايح فين؟!

لعل أصدق تعبير عن الحزن الشعبى الجارف هو تلك الاحداث وأن كانت ضد المنطق. وضد العقل إلا إنها تترجم بما لا يدع مجالا للشك عمق العلاقة التى ربطت الزعيم بشعبه..

وهذا القليل مما استطاع الجهد تجميعه.

مقاتل محمد محمد عبد الفتاح.. لم يستطع قلبه أن يتحمل الحزن الداهم فأصيب بحالة اغماء فى يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧٠ ونقل الى المستشفى العسكرى وأجريت له

الاسعافات الاولية اللازمة.. ولكن تأثره البالغ لفقد قائده كان قد تمكن منه تماما ففاضت روحه الى ربها!

الأستاذ بشرى حنا المدرس بمدرسة رأس التين الثانوية.. سقط ميتا بين تلاميذه وهو يحاول مغالبة انفعالاته فى اثناء رثاء القائد الزعيم.

مريض بمستشفى المبرة فى الاسكندرية أخذ يهتف من اعماقه: ازاى تسيبنا يا جمال.. لا تتركنا يا جمال ثم اشعل النار فى نفسه..!

ومات..

المواطن محمد عبد الفتاح بشبين الكوم سقط ميتا اثناء اشتراكه فى جنازة صامتة حدادا على جمال عبد الناصر.. بعد ان ردد شعارات تقطر حزنا وأسى!

وداد محمد على القليبى اخصائية اجتماعية القت بنفسها من الدور الثالث بمنزلها بشبرا الخيمة مرددة «ناصر».

شعبان رشوان محمد طالب بالثانوية الزراعى أحرق نفسه حزنا وكمدا وهو يردد ناصر.. ناصر الى ان فاضت روحه إلى ربها.

مواطن ليبى.. كاد يصيب نفسه بالعمى الكامل حين القى على عينيه مواد كيماوية حارقة حتى لا يرى جنازة جمال عبد الناصر على شاشة التليفزيون.

فتاة بالمحلة الكبرى.. كان جمال عبد الناصر قد أمر بعلاجها من مرضها الخطير فى الخارج.. وشفيت منه.. وحين علمت بخبر وفاة الزعيم والاب.. فقدت النطق ثم سقطت ميتة!

آلاف من حالات الاغماء والانهيار العصبى لم يستطيعوا مقاومة عنف الصدمة أو تقبل حقيقة أن جمال عبد الناصر يمكن أن يموت.. ويترك الساحة التى ظل فارسها النبيل طوال ثمانية عشر عاما!!

ما فعله العشرات من شباب مصر الذين القوا بأنفسهم فى النيل حينما لمحوا على البعد جثمان جمال عبد الناصر ملفوفا فى علم الجمهورية العربية المتحدة.

ما فعله الكثيرون فى مختلف الدول العربية حينما حطموا منازلهم واجهزة

تليفزيوناتهم حتى لا تنقل اليهم مشهد الوداع الحزين.. وحطموا حياتهم الخاصة تعبيرا عن احزانهم وكأنهم يرفضون أن تسير الحياة بشكلها العادى بعد غياب جمال عبد الناصر أو كان يرفضون أن تبقى لهم أى ملكية لاى شئ بعد أن فقدوا أعز وأغلى ما يملكون: جمال عبد الناصر.

تلك امثلة قليلة للطريقة التى عبر بها ابناء الشعب عن عمق الحزن والتأثير لموت الاب والانسان جمال عبد الناصر حزن بدأ يتدفق الالاف والملايين من البشر على القاهرة فور سماع النبأ المفجع.. حزن أبكم وصل حتى الموت.

وتنطلق الهتافات والشعارات الباكية فى الشوارع..

متصدقش.. متصدقش.. عبد الناصر لسه مماتش.

أنور أنور يا سادات.. ليه بتقول عبد الناصر مات..

يوم تسعة وعشرة بايعناك وليلة الاسراء ودعناك

ابكى ابكى يا عروبة.. على بناكى طوبة طوبة..

يا ديان ياديان.. عبد الناصر فى الميدان

يا شباب يا شابات.. اوعوا تقولا ناصر مات

عبد الناصر لسه مماتش.. روحه معانا لحد النصر.

●●●

«الشيخ تهامى الصوفانى وقع على وشه وشلناه لداره بين الحياة والموت.. فين وفين على ما قدرنا ننطق.. لقينا نفسنا كلنا بنقول فى نفس واحد مش معقول عبد الناصر يموت..!.. يا ليلة سوده يا جدعان».

فلاح من قرية «جزيرة محمد»

●●●

بتقولى أزاى اقطع جلابيتى؟

صحيح هى الجلابية اللى حيلتى.. معنديش غيرها.. انما أنت فكرك ان كان فيه عنده عقل لما سمع خبر موت جمال؟!

سيدة فقيرة تعيش فى منطقة بولاق الشعبية

والدى عبد الناصر

وسالتى إليك وددت لو كتبتها بالدم فداء لك.. ولكنى اعاهدك أمام الله بأننى فاعل ذلك غدا فى سيناء.. وعزتك عندى سوف اجعل من اشواك سينا سنا لقلمى.. بمداد من دمى.. لقد تعلمت منك هذا.. ثمانية عشر عاماً وأت تكتب رسالة شعبك.. بدم قلبك.. إلى أن توقف قلبك..

●●●

المقاتل مصطفى جمال حسن

لن أنسى أبدا ما حدث حينما فوجئنا به بيننا فى الجبهة واستمع الينا جميعا باهتمام شديد.. كانت ابتسامته تشجعنا وتزيد اصرارنا وحين اقترب منه أحد الجنود قائلا: سيدى ا لرئيس.. اريد ان اناقشك فى مسألة فنية حول فاعلية السلاح الذى استخدمه وضع يده على كتف الجندى، واستمع اليه بكل اهتمام.. وطلب منا دراسة اقتراحه.. ثم كانت المفاجأة فى اليوم التالى حينما اتصل بوحدتنا من القاهرة ليسألنى عن تفاصيل ما تم بشأن اقتراح الجندى..!!..

هكذا كان القائد والزعيم.. نموذجا للقائد العسكرى العظيم..

مقاتل نبيل

.. عبد الناصر لم يمت.. مستحيل..

هانذا أراه أمامى فى زيارته للجبهة.. وهو يقترب منى.

وأنا لا أكاد أرد عليه فيقترب منى ويطمئنى ويشجعنى.. ويسألنى عن حياتى وكل ما أريد.

كان صريحا كعادته.. طيبا.. ودودا.. عبد الناصر مازال حيا.. هذا هو ما أفهمه فقط..

مقاتل: إبراهيم سيد أحمد

●●●

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين

الوداع

ثورتك ثورة كفاح عشتها طول السنين

الوداع

أنت عايش فى قلوبنا يا جمال الملايين

الودع

أنت ثورة أنت جمرة تذكرك طول السنين

الوداع

أنت نوارة بلدنا وأحنا عذبنا الحنين

الوداع

أنت ريحانة ذكية لاجل كل الشقيانين

الوداع

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين

بتلقائية حزينة ومؤثرة رددت الملايين هذه الكلمات رددتها.

لحناً باكيا تفجر به الدمع وتقاسمت به الحزن فى كل مكان..

وحاول بعض الفنانيين اعادة صياغة هذه الكلمات واعطاء توزيع موسيقى مناسب لها وطبعها على اسطوانات إلا أنها لم ترتفع بأى حال من الأحوال إلى المستوى الذى ادته به الملايين الحزينة.. المكلومة، فقد كان الشعب هو الموقف وهو المؤلف.. وكان الفقيد هو فلذة كبد هذا الشعب .. جمال عبد الناصر.

وقد خرج النشيد أول ما خرج من أفواه فرقة أولاد البحر البورسعيدية.. ثم ردده شعب مصر كلها..

يا حمام

روح قوام

لجمال

بوس خدوده

وقوله جنوده

اشتاقوله

من زمان

فرقة اولاد الارض السويس

●●●

وحكى قائد الهليوكوبتر التى نقلت جثمان جمال عبد الناصر المقاتل الطيار نبيل.. يحكى عن تلك اللحظات المفعمة بالحزن.. والالم والمسئولية الجسيمة الثقيلة الملقاة على عاتقه يقول:

كان احساسى بالرهبة.. والمسئولية الكبيرة الثقيلة امام العالم كله..

بذلت أقصى جهدى لاستعيد قوة اعصابى.. قمت فى يوم الاربعاء ٣٠ سبتمبر ١٩٧٠ بمعوينة ارض الاقلاع والهبوط واخترت اصلح الاماكن..

قمت بعمل «بروفة» كاملة من داخل قصر القبة الى نادى الجزيرة.. أقرب مكان إلى مبنى مجلس قيادة الثورة.

وعندما أصبحت عقارب الساعة تعلن العاشرة «الموعد المحدد» وصلت بالطائرة داخل قصر القبة.. كان المكان المحدد للهبوط داخل حديقة القصر.. الحرس الجمهورى يقف فى تشكيلات حول جوانب القصر.. وعلى طول امتداد القصر من الداخل..

لحظات كئيبة ثقيلة ثم خرج جثمان الزعيم على أكتاف بعض الضباط.. تتقدم به عربة لتحمله وتتقدم به على بعد ١٠٠ متر من الطائرة.. يحمل جثمان الزعيم على الاكتاف والأيدى إلى الباب الخلفى للطائرة.. لا أكاد أصدق رغم ذلك أنه جثمانه.. أنه مات.

داخل الطائرة قرأنا جميعا «الفاتحة» على روح الزعيم وكان ذلك قبل الاقلاع بلحظات.

اصعب وقت.. وقت عصيب أحسست به عندما بدأت محركات الطائرة تدور وترتفع الطائرة هذا ما قدر لى أحساس بفقد الزعيم إلى الأبد وأمام ملايين العيون وملايين من أيدى البشر بدت من تحتى فى الشوارع ومن فوق اسطح المنازل ترتفع وترتفع وكأنها تريد أن تمسك الطائرة حتى لا يذهب عنها بعيدا عبد الناصر.. وأصلت ا لطيران.. كيف.. لا أدرى حتى الآن!

نفقذت المهمة الثقيلة فى عشر دقائق.

كان يتقدم مستقبلى الجثمان أبناء الزعيم والفريق أول محمد فوزى.. أعطيته التمام.

الجموع اتجهوا إلى الجثمان ليشارك فى حمله.. لحظات رهيبة لا يستطيع الانسان أن يصفها بدقة أو حتى أن يعيشها.

لقد كانت لحظات رهيبة عصيبة..

عشر دقائق طيران تساوى عندى عشر سنوات طيران كاملة.. لقد قابلت الزعيم قبل ذلك وعايشته.. مرات عديدة أقربها فى أحد المشروعات قبل وفاته المفاجئة بشهرين فقط.. كان معنا فى مكان ما من «المشروع» تحدث معنا طويلا عن المعركة وأعباء التحرير وعن دورنا كسلاح فعال فى المعركة.. عن اهتمامه بتطوير وسائل الهليوكوبتر.. كان فى حديثه مهتماً بأن يقف على مشاكلنا واحتياجتنا.. للعمل على حلها وتوفيرها..

لقد ظلت صورته فى هذا اللقاء متماثلة أمام عينى بينما جثمانه خلفى فى الطائرة.؟

لحظات رهيبة.. عصيبة.. فى أسوأ مهمة.. لم أود القيام بها أو أن أقوم بها فى حياتى..

●●●

والشيخ حسن خالد.. الخطاط الذى كتب اسم جمال عبد الناصر على رخام القبر الذى وورى فيه جثمان الزعيم.. يقول: من سنة ١٩٤٤ وأنا باكتب كل الخطوط الكوفى والزخرفة والعربى والتذهيب.. يعنى الكتابة بلون الذهب.. يوم ما قالوا لى تعالى أكتب على ضريح جمال عبد الناصر خفت أعصابى انهارت أصل طول عمرى أكتب اسمه على

حاجات بتتبنى.. «مصانع، مدارس، شوارع جديدة» أنا عمرى ما شفته إلا فى الجرنال أو التليفزيون.. أزاى بس أكتب اسمه على رخام قبر؟!.. كانت شديدة على نفسى قوى.. فضلت أقول: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فأدخلى فى عبادى وادخلى جنتى.

يوم ما قالوا الخبر الاسود الواحد مصدقش.. عبد الناصر يموت؟! بقى ده معقول؟! افتكرت كلام الرئيس جعفر نميرى لما قال أن اللى حصل فى الاردن زى يوم كربلاء.

شوف.. أنا راجل طول عمرى ماليش دعوة بالسياسة.. لكن بالله عليك قول لى.. من سنة ١٩٥٢ فيه حد فى البلد دى مالوش دعوة؟! أنا كانت السياسة بتيجى لغاية مكانى هو كتابة رخامة حجر الاساس لاى مصنع إيه؟؟.. مش معناه سياسه.. مش معناه بيوت بتفتح؟!

شوف.. أنا راجل ما أفهمش كثير فى السياسة.. لكن السياسة أصلها ما بقتش صعبة.. بقت فى لقمة العيش.. كانت السياسة زمان هى المفاوضات والمفاوضات دى ناس تقابل بعض بعيد تشرب شاى مع بعض وبيقولوا كلام كثير..

لكن السياسة من يوم ما ربنا اعطانا جمال عبد الناصر بقت غير كده.. حاجة ثانية.. حرب فى السويس وبورسعيد، مصانع بتطلع فى كل مكان.. قوانين لصالح الناس الغلابة.. حرب فى الجزائر.. صواريخ وطيارات.. إلخ.. آه.. طلبوا منى أن حاكتب على قبر الراجل الطيب اسمه وآية من القرآن.. خفت.. ودعيت أن ربنا يوفقنى ويقوينى.. لأنه عمل علشان الناس كثير.. أزاى الواحد يضبط الخط فى موقف زى دا ...؟

الواحد مليان بالحزن.. ونا بكيت عليه لحد ما جابوا لى الدكتور.

أنما برضه قلت لنفسى لازم تكتب.. كأحسن وأعظم ما كتبت فى حياتك.

لازم ترد للراجل الكبير ولو جزء صغير من جميله عليك وعلى البلد.. وأقولك إيه.. طيب والله رغم أن أسرة الرئيس رفضوا أن الرخام بتاع القبر يكون من النوع الايطالى الفاخر وقالوا لازم يكون رخام مصرى.. أنما تقول إيه أن حتة الرخام طلعت ناعمة خالص.. كانت سهلة فى الشغل.. كان لها «روح» عارفه أنها حتبقى ضريح أعز الرجال

قائدنا وزعيمنا جمال.. الف رحمة عليه..

ولكن.. هل حقا مات جمال عبد الناصر؟

أبدا.. لم يمت

فهذا الطراز العظيم من الرجال لا يموت.

فهو لم يكن شخصا..

ولم يكن فردا..

ولكنه كان مخاض أمة فى بعث جديد.

كان املا مضيئا.

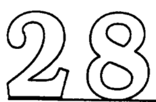
ودربا للفقراء فى جدار الحياة الصعبة.

فهل يموت الريح..؟

هل يموت النهر..؟

هل يموت جمال عبد الناصر..؟

■■



القصص الصغيرة فى حياة العظماء
يجب ان يسجد لها التاريخ..
فهى تفسير لماذا حدثت المواقف الكبيرة

عبد الناصر فى عيون الناس

ساسة

صحفيون

فنانون

هل مات عبد الناصر؟

يا للمأساة..!!

إنه نبأ رهيب!!

فى أبريل عام ١٩٥٦ كتب قلم صهيونى فى جريدة «هاعولام» هذه الكلمات التى ترسم صورة جمال عبد الناصر كما يراها أعداؤه.

إن هذا الشاب الاسمر الطويل القامة الذى بلغ فى يناير الماضى ٣٨ عاما هو أعظم الرجال فى هذا العصر.

هذا الشاب الذى استطاع فى خلال مدة تقل عن أربع سنوات أن يحدث انقلابا حقيقيا فى مكانة مصر فى العالم فانتقلت من دولة فاسدة إلى دولة محترمة يتسابق اقطاب العالم فى نيل رضاها.

هذه المعجزة السياسية قد تمت بدون نفقات مالية باهظة، إنها ثمرة المجهود الشخصى لرجل واحد ومن هناك سينبعث مصدر القوة الهائلة التى يتمتع بها جمال عبد الناصر.

أن العسكريين الاسرائيليين رأوا الذين هذا الرجل فى أيام الفالوجا السوداء قد شهدوا كلهم بصدق نيته ولم يكن من النوع الذى تأكل الكراهية والحقد قلبه.

لقد استغرب زعماء اسرائيل هذا الصبر وقوة الاعصاب ولكن استغرابهم يزول لو أنهم نبشوا ماضى هذا الرجل فأن الثورة المصرية كانت عملا عقليا رفيعا.. وتمت دون أن تسفك فيها قطرة دم ويتوهم البعض أن نصر الثورة كان بسيطا ولكنه فى الحقيقة لم يكن كذلك، إنه كان ثمرة سنوات، إنه كان عملا يدل على قوة تخطيط وتفكير استغرق عدة سنوات.

وهذا الرجل الذى قام بهذه الثورة ظل سنوات طويلة يضم إليه رجلا بعد رجل ويقيم الخلايا هناك فى الميدان وفى قلب القاهرة.. ولم يحرك ساكنا إلا بعد أن أصبح متأكدا تماما من الفوز .

لقد وقع تطوير هائل فى العالم العربى وأفريقيا لكى تتحرر من الاستعباد واسرائيل لا تستطيع أن تقف أمام هذا التيار الجارف.

إن وفاة عبد الناصر تعنى وفاة عدو مر، إنه كان أخطر عدو لاسرائيل.

أن اسرائيل لهذا السبب لا تستطيع أن تشارك فى الحديث الذى يملأ العالم كله عن ناصر وقدرته وحكمته وزعامته.

وفى مقابلة لدوروش طومسون الصحفية البريطانية مع جمال عبد الناصر قالت:

فى الساعة السادسة بالضبط ظهر ناصر كان يرتدى قميصاً مفتوح الرقبة وجرسيه من الصوف الرمادى بلا أكمام وبنطلونا رماديا داكنا وبدأ اشبه بالرجل الرياضى منه برجل السياسة لقد قابلت اكثر من حاكم آخر.

موسلينى بعبوسه المخيف وجو العظمة الروزمانية الذى يحبط به.. وهتلر الذى كان من المستحيل التحدث إليه على الأطلاق لكن..

خلال الثلاث ساعات التى قضيتها مع ناصر احست احساسا قويا بما قاله ومن الطريقة التى كان يتحدث بها «أنه رجل تغلب عليه العاطفة والاحساس أكثر من كونه رجلا هادئا ذا ارادة حديدة».

لقد شعرت أنه رجل يحب اكثر ما يكره.. انه عربى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى شأنه شأن الكثير من العرب الذين عرفتهم.. ميال بالفطر إلى المجاملة والكرم.. وهو شديد المراس وإن كان فى نفس الوقت بريئا.

وفى حديثى معه وصف الشعب عدة مرات «بالطيبة والبراءة» وقد سألته.. أى شخصية فى التاريخ نالت اعجابك.

وكان رد الفعل المباشر هو أن ألقى برأسه إلى الوراء ضاحكا وقال:

هل تؤمنين بسير الناس..؟ إن الرجال لا يكررون انفسهم فى التاريخ.. ثم قال بلهجة حادة:

إن المرء ليجد من خلال حياة العظماء قدوات طيبة للسير بمقتضاها فأنا رجل مسلم درت بامعان سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام لقد كان محمدا نبيا وسياسيا وهو

كرجل سياسى كان هناك أمر مهم يتميز به وهو وضوح أقواله وأعماله أنه لم يكن رجلا قاسيا مع اعدائه وكان كلما انتصر عليهم اطلق سراحهم وأنا اكره القسوة والانتقام، فالانتقام يولد الانتقام وليس له نهاية.

ويقول وليم أودفور الصحفى الامريكى.

بينما كان يتحدث بدأت أفهم السبب الذى جعل هذا الرجل الصغير نسبيا يقطع هذا الشوط البعيد فى مثل هذه الفترة الوجيزة.

فأنه يملك ميزتين سياسيتين لا تقدران بثمن حيوية هائلة وجاذبية عظيمة ومن الصعب الا تعجب به عندما تختلف معه فى الرأى ولقد ساعدته الميزتان فى صعوده إلى القمة.

وقال لى جمال:

علينا أن نظهر لكم أنكم لا تستطيعون اهانة دولة صغيرة دون أن يلحق بكم شئ.. ولو أننا قبلنا هذه الصفعة - سحب السيد العالى - لاعدتم الكرة وتتابعت الصفعات.

ويحكى تاريخنا - الصحفى الهندى - عن انطاباعاته الاولى عن عبد الناصر قائلا:

عندما دخلت المنزل الصغير المتواضع وسمح لى بدخول مكتبه المتواضع أيضا.. هدأت نفسى وانفضت عنى ملامح الحيرة والارتباك وكان سبب ارتباكى هذا هو اعتقادى أن الملوك والرؤساء وأنما يختارون لسكناهم القصور الرائعة الضخمة كى يصنعوا على أنفسهم نوعا من الهيبة والوقار وأشياء من صفات الآلهة.. حتى يخشاهم ويشعر بجلالهم وقوتهم كل من يحاول الاقتراب منهم أو التحدث إليهم ولكنى وجدت الأمر يختلف تمام الاختلاف مع الرئيس جمال عبد الناصر وسرنى أنه لا يعرف مثل هذا الغرور ولا يعتقد فى المظاهر الكاذبة.

وقال لى جى موليه فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦:

لو سقط عبد الناصر فسوف تنتهى حرب الجزائر فى ٢٤ ساعة فإننا نعلم أن عبدالناصر هو الذى يمول حرب الجزائر بالمال والسلاح فلو ضربنا الدينامو بالقنابل فأن الآلة كلها تتوقف عن الحركة.

نحن نعتقد أنه لولا جمال عبد الناصر لما اضطررنا أن نمنح مراكز استقلالها ولا أن نمنح تونس استقلالها ولما اصبنا بالضربات التى اصبنا بها فى كل مكان بل إن نظامنا الديمقراطى نفسه داخل فرنسا مهدد من جمال عبد الناصر أن كثير من الضابط الشبان يقولون أنه لا ينفع فرنسا فى ظروفها الحالية سوى ضابط مثل جمال عبد الناصر.. وإن اضرابنا لا فائدة منها ومعنى أن هذا كله مؤسساتنا البرلمانية الديمقراطية فى داخل فرنسا مهددة بوجود هذا الرجل فاذا قضينا على هذا الرجل فإننا بذلك نقنع ضباطنا الفرنسيين بأنه ليس مثلا يحتذى.

أنا أتنبأ بأننا لو فشلنا فى القضاء على عبد الناصر فسوف تحل بنا الهزيمة فى داخل فرنسا نفسها.

وحينما قال له أحمد سليمان وزير الصناعة السودانى مداعبا فى محاولة للتخفيف عن همومه ومتاعبه:

يا سيادة الرئيس.. كثيرا ما أفكر فيك وكثيرا ما أسأل نفسى.. أليس لك مطالب شخصية فى الحياة أليس لك متعة من متع الدنيا؟..

وابتسم جمال عبد الناصر وقال فى تواضع: لقد نلت من حب الشعب العربى الكثير.. إنك لا تتصور ما أحس به عندما يهتف الناس باسمى.. إننى أسأل نفسى هل استحق كل هذا الحب والتأييد والثقة.. إن هذا المشاعر تزيد من همومى ومسئولياتى.

وسكت عبد الناصر ثم تابع حديثه: عندما أضع رأسى لانام أظل أفكر طويلا واسأل نفسى ما الذى حققته اليوم لشعبى؟ ما الذى انجزناه من عمل على طريق تحرير الارض المغتصبة؟

ويحكى محمد موسى شفيق سفير أفغانستان السابق فى القاهرة عن زيارة قام بها لعبد الناصر فى بيته قائلا:

دخل على فى صالون بيته المتواضع، وحيانى بابتسامته التى كانت تشيع فى اللقاء معه الود والارتياح من أول لحظة.

كان الجو حارا ومع ذلك كنت قد تمسكت برباط العنق والبدلة الكاملة على عهدنا بالزيارات الرسمية، دخل على وهو يرتدى قميصا مفتوح الصدر قصير الاكمام وبنطلونا رمادى اللون وبابتسامات اخرى بدأ اللقاء قائلا: أما أن تخلع أنت رباط العنق.. أو أرجع أنا إلى حجرتى واربط رباطا حول رقبتى أنا الآخر وأنا أترك لك الاختيار فى هذا الامر لكن على شريطة أن تحكم عقلك فى هذا الجو الحار ولا تتبع التقاليد فحسب.

واعتذرت.. وسررت ووضعت رباط العنق فى جيب سترتى.

اردت أن اذكر هذه الواقعة كدليل من آلاف الادلة على أن البطل العظيم ورائد التحرر فى تاريخنا المعاصر كان بسيطا يحكم عقله فى كل ما كان يفعله ولا يقع فريسة للتقاليد والعادات السياسى منها والاجتماعى لقد كان هذا الزعيم الذى أمسك بيده تقاليد الثورة فى التاريخ العربى الجديد، ذا قلب كبير ذا أدب جم.. عارفاً بدقائق الخلق الكريم وشاعرا بآلام الناس فى أى مكان.

ويقول الملحن العالمى ميكبس بتود راكيس:

كان حلمى أن اقابل جمال عبد الناصر.. ولكن للاسف الشديد لم يتحقق لى سوى السير فى جنازته وكنت أظن أن الوقت متسع لكى اقابله.. لم أكن اتصور أن رجلا فى مثل قوته وشبابه يمكن أن يذهب هكذا سريعا ولكنه القدر.

إن جمال عبد الناصر واحد من اشرف المناضلين فى العالم.. ولقد كان اسمه على كل لسان حينما تصدى بجرأته المذهلة للعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ فأصبح اسمه رمزا للتحرر والنضال من اجل السلام.. وقد تابعنا نحن الشعب اليونانى البسيط كفاح الشعب المصرى بقيادة ناصر والانجازات التى قام بها والانتصار العظيم ضد الاستعمار البريطانى.

ولقد صد عبد الناصر ايضا بشعبه الهجوم الاستعمارى الجديد ولولاه لما انتصر شعب السودان وشعب ليبيا بنجاح ثورتهما.

إننى علمت فى باريس بوفاة الرئيس عبد الناصر المفاجئ فحضرت أنا وصديقى فالجلوس على نفقتنا الخاصة إلى القاهرة لنشاطر الاحزان الشعب المصرى حزنه الكبير

العظيم وجئنا لنجد ذكرى القائد العظيم الذى أصبح الآن رمزا لشعوب العالم فى الكفاح من أجل الاستقلال والسيادة ولقد بهت الجنازة الشعبية التى ودعت عبد الناصر اذانها كانت سيمفونية انسانية عظيمة عزفتها الملايين تعبيرا عن حزن مجيد.. وفى نفس الوقت كانت صورة للزحف البطولى العظيم الذى لا يمكن أن يحدث إلا لقائد البطل عظيم احبه شعبه.

لقد ظللت طوال الليل اسمع اغنيتة وداع عبد الناصر الحزينة ووجدت الوحى يهبط على لاكتب أغنية لعبد الناصر مستمدة من اللحن البسيط المؤثر الذى قدمه له شعبه الكبير الحزين لفراقه ولا عجب فعبد الناصر أعز الرجال وواحد من أشرف المناضلين فى العالم.

إن ما حدث يوم وفاة عبد الناصر لم يكن جنازة إنها مسيرة ومظاهرة سياسية لاعلان تصميم الشعب على مواصلة النضال الذى بدأه عبد الاصر.. كانت استفتاء رائعا على مبادئ عبد الناصر.

كان الـ ٣٠ مليون مصرى كلهم ناصر.. والـ ١٠٠ مليون عربى كلهم ناصر ومن يحاول أن يقضى على مبادئ عبد الناصر فعليه أولا أن يقضى على هؤلاء.

وعلى الامريكيين أن يعوا جيدا مثلنا اليونانى الشعبى الشهير «حذار من شعب رجاله بيكون!».

وقال شعبان أبو السعد قائد الاوركسترا السيمفونى بمصر أنا راجل فلاح.. معدم.. ومع ذلك رحت فى بعثة إلى روسيا ورجعت قائدا اوركسترا..

قبل كده» قبل عبد الناصر مش ممكن كان واحد من الشعب زيى يطلع بعثة ويتعلم مين كان يصدق!

راجل فلاح من الشعب يروح بعثة لمدة ست سنوات علشان يتعلم الموسيقى السيمفونية الفن الراقى ده ما كانش موجود قبل كده.. أو كان موجود فى صورة ضيقة جدا..

مش كده وبس ده كمان منحنى وسام علم ١٩٦٦ واعطانا احنا الموسيقيين كلنا الاحساس بالاطمئنان وباننا نمشى فى الطريق الصحيح.

اكثر من كده كمان أنه أنشأ المعاهد العليا للموسيقى فى شكلها الحديث وخلق بالطريقة

دى الضمان الآن فيه مصدر كبير حيفضل يغذى وينمى ويطور هذا التيار من الموسيقى الرفيعة.

لقد كبر الشعب كله مع جمال عبد الناصر.. لم يكن للناس حساب.. لم يكن للكرامة الانسانية وزن.. أصبح لها وزن.. لم يكن من حق احد أن يتكلم عن الحق.. أصبح من حق كل انسان أن يناقش الحق وللعدل ولوحده التضامن والتماسك فى الداخل والخارج.. لم يكن هذا الوطن ملكا لكل أهله.. أصبح ملكا للجميع.

وكان جمال عبد الناصر واجهة شريفة مشرفة لمصر وللعالم العربى وكانت مصر صغيرة أصبحت كبيرة وكانت واحدة من الدول جعلها قاعدة للحرية ومطارا للثورات.. وحصنا امينا لكل صاحب رأى أو صاحب فلسفة.. فمن دخلها فهو آمن على نفسه وعلى رأسه.

وقال يوسف شاهين المخرج السينمائى:

إننى كفنان احس بصلتى الشخصية به.. ولو لم ألتق به مواجهة... كان فيه شئ يجذبك نحوه فحسب وأنما كذلك نحو الوطن أيضا.. مهما كانت مشاغله كان لا ينسى أن يصدر توجيها بحل مشكلة للفنانين. أذكر يوما غضبت وسافرت إلى بيروت كان فى يقينى أن عبد الناصر سيعيدنى إلى أرض الوطن.. وكم فرحت عندما حدث بالفعل لأننى أومن بأن الوطن فى حاجة لجهد كل واحد من أبنائه مهما كان متواضعا.. وأن عبد الناصر هو الذى علمنا هذا وتصور مدى الدفعة التى تستمدها لمجرد شعورك بأن انسانا ما قد احس بك من تلقاء نفسه.. فما بالك اذا كان هذا الانسان هو القائد العظيم والزعيم نفسه وسط مشاغله الكثيرة والخطيرة.

لقد أدخل الرئيس عبد الناصر المفهوم السياسى فى عملنا السينمائى ووضع نصب أعيننا دائماً هذا المضمون ولقد جاء هذا المضمون السياسى من خلال ما أتيح لنا من لقاءات سياسية جرى فيها الحوار حرا وخلاقا.

وفى كل عمل فنى أقوم به كنت أحس بأنى لى «ظهرا» أستند إليه.. أن هناك معلما ورائدا اتمثل فكرة واسلوبه هو، الذى أعطانا حق التجربة والخطأ ففتح لنا طريق الحرية الفنية على مصراعيه وقد اعتدت فى عملى وكلما واجهتنى معوقات أن استشعر الحق فى اسماع صوتى لعبد الناصر وكنت أقول هذا أحيانا وأن لم افعله أقول هذا ولا أشعر

بأنى فقدت عبد ا لناصر الآن لأننى واثق من أن ما أعطاه لوطننا سيوصلنا إلى تحقيق كل ما كان يتمناه لنا ربنا .. وما أعطاه لنا يكفى لنسير به قرونا من الزمان..

البطل إلى مثواه.. فمعنى هذا أننى سأحرم نفسى حق ممارسة الحزن كبقية أبناء شعبى وأننى سأغلب العقل على العاطفة لأعمل لكن عزائى وسندى كان عبد الناصر الذى أكد دائماً قداسة العمل وفى ذلك اليوم الرهيب كنت أمارس حزنى للحظات ثم انتزع نفسى لاعود إلى العمل وسط هذا البحر الهائل من البشر المحيطين بالبطل الشهيد لاستند من روحه قدرة على مواصلة العمل.. يوم قلدنى القائد وسام الفنون انتابتنى حالة عصبية لم اعرف معها كيف تسلمت الوسام على صدرى لاقابله حاملا واجب العمل.

ماذا أقول..؟ لقد سيطر على إحساسى بالغيرة من ملائكة السماء الذى يضمون عبد الناصر بينهم الآن.

وقال أحمد بهاء الدين:

رأس جلسة الملوك والرؤساء التى سبقت ارسال البعثة الثانية التى رأسها جعفر النميرى إلى عمان وحين خيم اليأس من احتمال وقف نزيف الدم العربى فى الاردن.

قال جمال عبد الناصر:

سأذهب أنا إلى هناك

وكان هذا كافيا لأن يتطوع كل من هو موجود للذهاب بشعور دافق أن حياة عبد الناصر يجب أن تصان وبأن بقاءه فى حد ذاته هو الضمان، أكبر الضمان.

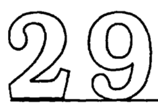
ولم يكن أحد يعرف أنه قد كتبت له الشهادة فى نفس الساحة ونفس القضية وأنه سيكون أعظم الشهداء فمع وضع النقطة الاخيرة فى الأيام العشرة الدامية، كف القلب الكبير عن النبض.. وكأنه قد تفجر بما فيه من عبء باهظ وبألم كظيم وعظيم.

وكان ليجئ خان رئيس وزراء باكستان وقتها كلمة بليغة..

هل مات عبد الناصر.. ياللمأساة!!

.. إنه نبأ رهيب!!

■■



هكذا عاش.. هكذا مات!!

كان يستيقظ قبل السابعة.. يشرب الشاى بحبوب السكارين.. ويقرأ صحف القاهرة بطبعاتها الثلاثة.. ويدون ملاحظاته عليها..

ثم يرفع سماعة التليفون.. ويبدأ الاتصالات.. يتصل بمكتبه ليعرف آخر الاخبار والتطورات الداخلية والدولية.. ثم بوزير الحربية ليقف على ما يكون قد فى الساعات ما بين نومه واستيقاظه.

ثم يخرج ليتناول إفطاره فى الصالة العلوية من منزله وبجواره السيدة الجليلة قرينته.. ويحتسى فنجانا آخر من الشاى.

وبعد دقائق كان يدخل حجرة مكتبه ويبدأ عمله.. وبسرعة لافتة للنظر يبدأ بقراءة الأوراق التى يضمها غلاف لصق عليه طابع أحمر مكتوب عليه «أفضلية» أو «عاجل جدا».

كانت الأوراق تدخل مكتبه ثلاث مرات يوميا.. فور استيقاظه وفى الثالثة بعد الظهر وفى السادسة مساء إلا فى الأمور البالغة الاهمية كانت الأوراق تصله فورا فى أى وقت.

ثم يبدأ اتصالاته التليفونية من مكتبه.. وقد كان التليفون من أهم وسائله فى العمل.. فيتصل مباشرة بالوزراء فقد كان يعتبر الوزير المختص هو مستشاره الاول فى المجال الذى يتولى فيه مسئوليته ثم بمن يعتبرهم مسئولين مباشرة فى الموضوعات التى يكون لديه استفسار عنها أو توجيه يريد ابلاغه.

وكانت بعض مكالماته تزيد عن الساعة ولم تكن المكالمة تصل الى هذا الوقت إلا إذا كان على الطرف الآخر من الخط واحد ممن كان يثق فى قدراتهم ويناقش معهم المسائل الكبرى التى تتصل بمواقف هامة وامكانيات التحرك المتاحة داخليا وخارجيا.. وغالبا ما يكون

هؤلاء من خارج الجهاز التنفيذى لانهم فى رأيه مفيدون بأكثر من فائدتهم لو انضموا لاجهزة تنفيذية لتحررهم من السيطرة الفكرية والعملية للجهاز البيروقراطى وتحررهم من قيود المنصب وما تفرضه بشعور منهم أو بغير شعور.. على تفكير المسئول التنفيذى.

وكان جهاز الراديو بجوار جمال عبد الناصر من أهم معاونيه فطوال اليوم يعمل مؤشر المحطات ينزلق يمينا ويسارا بين أسابيع خبيرة بموضوع محطات اذاعة العواصم العالمية ومواعيد نشرات أخبارها.

كان جهاز الراديو فى حجرة مكتب جمال عبد الناصر أو حجرة نومه بجوار سريره جزءا لا يتجزأ من عمل عبد الناصر.

وفقط بعد رحيل عبد الناصر صمت الراديو بجوار سريره بعد ما استمع لنشرة اخبار الخاصة من اذاعة القاهرة.

وفى الثالثة تماما بعد الظهر كان يخرج من حجرة مكتبه الى مائدة الغداء حيث يجتمع مع عائلته، كان حريصا على هذا الموعد.. وكانت عائلته كلها حريصة عليه أيضا، حيث كان الوقت الوحيد الذى يتقابل فيه لرب العائلة أن يكون بين أولاده وزوجته.

وبعد الغداء.. يتجه إلى حجرة نومه ليستلقى قليلا.. ولمدة ساعتين كان يستغلهما فى قراءة الصحف العربية والامريكية والبريطانية وتقارير وكالات الانباء وترجمات يعدها مكتبه للصحف الفرنسية والسوفيتية والاسرائيلية.

وإذا اتسع الوقت ينتقى أعداداً حديثة من بعض المجلات المتخصصة فى التصوير والآلة ومجلات الطيران والاسلحة المختلفة فى القوات المسلحة.

وهذه الفترة كانت فرصة لافراد عائلته حيث يدخلون عليه فرادى للتحدث معه أو للجلوس فى صمت إذا كان منهكما فى القراءة وكان ذلك هو الوقت المحبب لحفيديه جمال وهالة ليندفعا إلى حجرته فى طلب الحلوى.

وفى الخامسة ينهض ويرتدى ملابسه وينزل إلى الحديقة لينسى فيها وقتا محسوبا حدده اطباؤه.. وغالبا ما كانت السيدة الجليلة قرينته ترافقه فى رحلته اليومية القصيرة بين الاشجار التى كان يهتم بها.

ثم يرجع إلى العمل فى حجرة مكتبه بين الاوراق والتليفون والراديو حتى يحين موعد العشاء فى حوالى العاشرة فيتناوله سريعا ليمضى فى العمل حتى ساعة متأخرة من الليل ليبدأ فى قراءاته التى تمتد لساعات متأخر ة من الليل.. وكان يقرأ عدة كتب متنوعة الموضوعات فى نفس الفترة فى الاقتصاد والسياسة والاديان والاعمال الادبية المصرية والاجنبية أو ليرى فى بعض الأحيان عرضا سينمائيا لاحد الأفلام مع أولاده وكان يفضل الأفلام ذات المضمون والاداء المرتفع إلا إذا كان مرهقا ومكدود الذهن فيشاهد نوعا من الأفلام الخفيفة لأنه فى هذه الحالات وعلى حد قوله كان يتفرج على الفيلم ولا يراه فقد كان العرض السينمائى بالنسبة له وسيلة لاراحة عقله من التفكير وليس لبذل مزيد من الجهود فى المتابعة والتفكير والاهتمام..

كانت مشاهدة الأفلام فترة استراحة بالنسبة له يعود بعدها إلى العمل حتى الساعات الأولى من الفجر..

وفى كل يوم كان عليه أن يستقبل ما بين ثلاثة إلى خمسة أشخاص وكانت بعض هذه المقابلات تجرى فى الصباح وبعضها الآخر فى المساء ولم تكن جميع مقابلاته رسمية، فكثير ما كان يلتقى بمسئول أو بأحد من عملوا معه عن قرب، لمناقشة موضوع واراد أن يتناوله بالمناقشة تفصيلا.

وكانت ساعات عمله تتراوح ما بين ١٤ إلى ١٨ ساعة يوميا..

وكانت حدة الذاكرة من السمات التى ميزت جمال عبد الناصر، كان فى كل موضوع يلم بتفصيلات وثيقة ساندت حجته فى مناقشاته مع المتخصصين فى كل موضوع ودعمت توقعاته عن التطورات القادمة وزادت وضوح الرؤية امامه عند اتخاذ القرار.

ويوما وجه جمال عبد الناصر سؤالا فى اجتماع لأحد مجالس الوزراء قال فيه:

لقد قرأت تصريحات عدد منكم ادليتم بها للصحف على مدى بضعة أشهر.. أود أن أسأل:

كيف ستنفذون كل هذه الوعود؟.. لقد تحدث بعضكم فى مراحل زمنية متباعدة عن مشروعات لو جمعناها لوجدنا أنها بالقطع تفوق قدرات وزارته!..

وكان جمال عبد الناصر يفضل قراءة ما يحتاج إلى اختزانه فى ذاكرته على أن يسمعه وكان يقول: «إذا قرأت شيئا فأننى لا أنساه»، ولذلك كان يطلب عند عرض أى موضوع عليه أن يكون العرض شاملا كل التطورات والتفصيلات.

ولم يكن جمال عبد الناصر يجب أن يسمع من أحد العاملين معه كلمة «أظن» حين يوجه إلى أحدهم سؤالا.. وكان يقول لمن يبادره بهذه الاجابة: «إذا كانت المسألة مسألة «أظن» فاعتقد أننى قادر على أن «أظن» جيدا.. أن ما أريده هو أجابة محددة أما بنعم أو بلا، وإما بأنك لا تعلم وسوف تدرس الموضوع.

وكان من يلتقى بجمال عبد الناصر يلحظ على الفور أنه مستمع ممتاز كان يستمع إلى محدثه بكل جوارحه ولا يقاطعه وكان اهتمامه يزداد ويبدو واضحا حين يتناول محدثة موضوعا أو تصرفاً بالنقد، أو حين يسوق فى حديثه اقتراحا.

ويتميز جمال عبد الناصر باتساع وتنوع الدائرة التى يعمل فيها ذهنه طوال النهار، كان فكرة خلال اليوم الواحد يجول ويتمعن ويدفعه فى موضوعات بغير عدد.. وكان يحتفظ بجانب سريره بنوت يدون فيها ما يدور فى ذهنه، أو بعض انطباعاته من أحداث صغيرة تمر، وتاريخ أى يوم فى نوتته تؤكد ذلك التنوع غير الطبيعى فى اهتماماته وفيما يفكر من موضوعات.

وبعد أن أصيب بالازمة القلبية الأولى - فى سبتمبر ١٩٦٩- أحضرت له هدى عبد الناصر كبرى بناته جهاز تسجيل من النوع الصغير لكى يسجل عليه ما يشاء من ملاحظات أو أفكار أو أوامر تنفيذية - وخاصة خلال ساعات الليل الأخيرة- بدلا من أن يضطر إلى القيام فى كل مرة ليسجل ملاحظته واخطاره، ولم يكن جمال عبد الناصر يحب أن يغير من عاداته.. وظل جهاز التسجيل الصغير فى مكانة كما هو ولكن فى أحد الأيام بدأ يستخدمه ولم يستوقف نظر أحد يومها.. فاذا كان جمال عبد الناصر قد فعل فلأن القيام والجلوس عدة مرات خلال الليل كان قد بدأ يتعبه.

وككل البشر.. وكطبيعة الانسان.. كانت هناك عوامل محددة تؤثر على تفكيره بأكثر من غيرها.. عوامل يمكن للمرء أن يجدها من خلف قرار يتخذ أو تصرف يؤتى أو تعليق يقال أو مناقشة هادئة تدور أو تأثر من موقف معين.

وبين العوامل التى أثرت فى فكر جمال عبد الناصر وكأمثلة بغير حصر لا يميزها سوى أن العين المتتبعة ما كانت قادرة على أن تخطئها كان «المواطن العادى» «المصرى» كان «الرجل العادى» و« الاسرة العادية» «محور تفكيره» وكان دائم الربط بين كل قرار ومن تأثيراته على الاسرة المتواضعة وعلى عدد من سيشملهم القرار منهم.

هكذا عاش جمال عبد الناصر.. إلى أن كان اليوم الأخير.. الاثنين، الموافق ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠.

ذهب إلى مطار القاهرة الدولى وأثناء توديعه أمير الكويت شعر بأنه غير قادر على الوقوف.. وطلب سيارته لنقله من حيث يقف لأنه أصبح عاجزا عن السير إليها.. وركب السيارة وهو يجر قدميه.. وطلب أن يحضر الأطباء.

وفى الثالثة والنصف كان قد وصل إلى منزله ليجد السيدة الجليلة قرينته وأولاده فى انتظاره على مائدة الغداء ولكنه اتجه مباشرة إلى حجرة نومه فى الطابق الثانى.

وبدأت محاولات الأطباء اليائسة دون جدوى.. كانت الأزمة القلبية أثقل مما ينفع معها أى دواء.. وفى السادسة والربع مات جمال عبد الناصر.. نفذت مشيئة الله.. ولا راد لقضائه.. وارتفع الصريخ والنواح.. الريس.. الريس مات.

واتفق على نقل الجثمان من منشية البكرى إلى قصر القبة.

وتعلقت السيدة الجليلة قرينته بالجثمان الذى حمله معاونوه من الدور العلوى إلى الدور الأسفل لنقله بسيارة الإسعاف المنتظرة على الباب الداخلى للبيت.

وفتح الباب الخارجى على مصرعيه ووضع الجثمان الطاهر فى عربة الاسعاف وتبع عربة الاسعاف عربتان أو ثلاثة تحمل زملاء عبد الناصر ومعاونيه.

وأخذ الموكب الحزين طريقه إلى قصر القبة..

كانت الشوارع هادئة فلم يكن الخبر قد أذيع بعد.. ولم يكن هؤلاء الذين يسيرون فى الشوارع الموصلة إلى قصر القبة يعلمون أن الموكب يحمل أغلى من فى مصر كلها ولم يكن هؤلاء يعلمون بالكارثة التى حلت وبالحادث الجلل الذى وقع.

وصل الجثمان وووسط نحيب الضباط والجنود الذين تجمعوا وهم لا يصدقون ما يحدث امامهم إلى غرفة العيادة بالقصر حيث وضع جثمانه على السرير الوحيد بالغرفة وقد غطى بملاءة بيضاء..

ووقف على الباب حراس بأسلحتهم.

وجهزت الثلاجة الخاصة بالقصر وحينما تم ذلك نقل الجثمان اليها ليبقى هناك حتى يوم تشييع الجنازة إلى مثواه الاخير فى جامع عبد الناصر بكوبرى القبة حيث كانت قيادة الجيش التى سقطت فى يد قوات الثورة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢..

ثم قطعت الاذاعة والتليفزيون برامجها العادية واقتصرتا على إذاعة القرآن الكريم.. وبدأ الشعب يحدس ويخمن عما وقع ولكن لم يخطر ببال أحد أن آيات الله كانت تتلى على روح جمال عبد الناصر بعد أن فارق الحياة!!

وفى الساعة الحادية عشرة إلا خمسة دقائق من ليلة ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وجه انور السادات البيان الذى نعى فيه الأمة العريقه أبنها وبطلها وقائدها البار.. جمال عبد الناصر.

وكان هذا اليوم الطويل الحزين يوم ٢٨سبتمبر ١٩٧٧٠يوافق ليلة «الاسراء والمعراج» كما كان يوافق يوم انفصال الاقليم الشمالى عن الاقليم الجنوبى فى الجمهورية العربية المتحدة.

ويا للمصادفة العجيبة!!

ومنذ مات جمال عبد الناصر انفتحت أبواب الجدل على مصرعيها حوله وحول ثورة ٢٣ يوليو ذاتها.. لذلك أنه طبع احداث المرحلة التى عاشها بطابعه وجسد الثورة فى شخصه فلا تكاد تجد زعيما معاصرا ألفت عنه الكتب بشتى اللغات وكتبت عنه المقالات والدراسات وقامت جامعات العالم ومؤسساته بعقد حلقات بحث عنه، كما حدث لجمال عبد الناصر ولم ترو عن زعيم مجموعة من الحقائق والاكاذيب كما رويت عنه وهذا أيضا طبيعى فهو أكثر عربى أقام الدنيا وأقعدها منذ قرون.. يكفى أن نسجل هنا كلمة بليغة جدا.. وهادئة جدا.. قالها زعيم عربى كبير معاصر كان من سوء حظ الامة

العربية أن الخصومة وقعت بينه وبين عبد الناصر، ولكنه قالها عندما مات، قالها بما لا يكابر فيه صديق أو عدو: كيفى أنه أعطى الأمة العربية فكرة عن أمكانياتها.

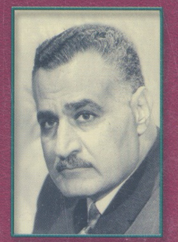
وهى امكانيات بلا حدود.

وفى ٢٣ يوليو ١٩٦٩.. قالها جمال عبد الناصر لنا محذرا ومنها: «إن مصير الشعوب لا تقرره كبوة عارضة وإنما يقرره حجم الارادة الوطنية والقومية واستعدادها لتقبل الخطر وتحمل الصعاب وليس يخيفنا أن تكون هناك بقاع غالية من أراضينا تحت احتلال العدو.

ولكن كان يخيفنا أكثر أن تعيش أوطاننا كلها غير متشبهة للخطر المحيط بها.. راضية بالاستسلام .. تخلط بينه وبين السلام ، بينما العدو يمضى فى تنفيذ مخططاته العدوانية بغير تفان ويحقق ما يريد بغير مواجهة ينتصر عليها وهى فى غيبوبة لا تميز فيها بين العدو والصديق.. بين التسلل المنظم وإلا من الخداع».

■■

الفهـــرس





بعيداً عن السياسة

■ ليس هناك غموض فى تفسير ظاهرة بقاء جمال عبدالناصر حيا فى ذاكرة أمته.. رغم المحاولات المحمومة لشطب أو تشويه هذه الذاكرة.. التفسير ببساطة أن ذاكرة الشعوب لايصيبها الوهن أو الضعف.. وهى تستطيع دائما ان تميز بين قادتها الذين اخلصوا فى العمل من أجل رفعتهم.. وكانوا تجسيدا لطموحاتهم واحلامهم.. وبين من تولوا امورها فوأدوا تلك الاحلام وهذه الطموحات وعادوا بشعوبهم عشرات السنوات إلى الوراء.. الأولون يحتلون مكانة أثيرة فى وجدان وقلوب شعوبهم - والآخرون يسقطون فى غياهب النسيان ـ بقرار شعبى ـ وكأنهم لم يوجدوا أبدا.

يبقى أن أذكر واقعة صغيرة جعلتنى أطرح تهيبى من الكتابة عن جمال عبدالناصر.. جعلتنى وللمرة الأولى بعد ٣٠ عاما من رحيله أكتب عنه.. ليس لأننى أصبحت أكثر قدرة على التعبير عنه وعن عصره.. أو لأننى وفقت فى العثور على صيغة تجعلنى راضيا عن ما أكتبه عنه..

لم تكن كل هذه الأسباب هى دافعى فى كتابة هذا الكتاب.. كان دافعى هو سؤال واجهتنى به ابنتى البكر أكثر من مرة وهو: لماذا لا أكتب ما احكيه لها عن عبدالناصر..؟!

المؤلف

